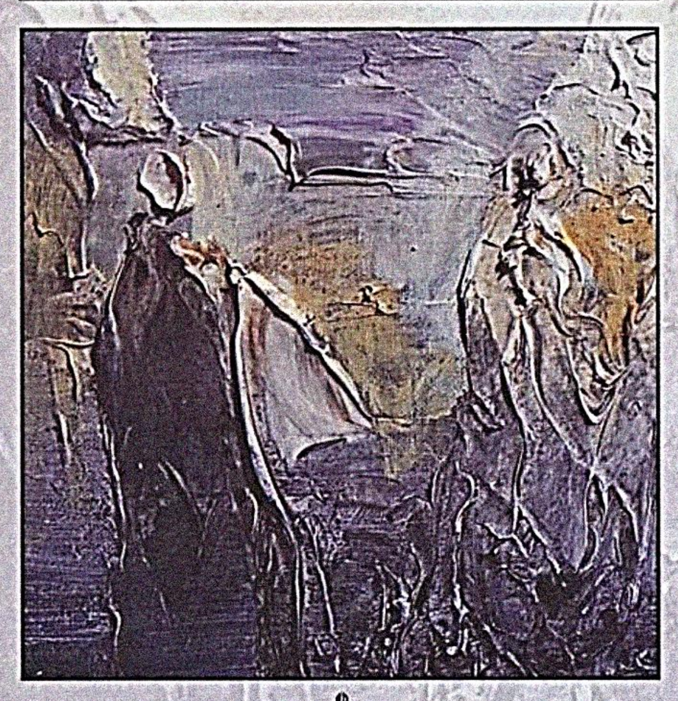
واسيني الأعرج

مرايا الضرير

كولونيل الحروب الخاسرة

رواية



علي مولا

واسيني الأعرج

مرايا الضرير

«كولونيل الحروب الخاسرة»

رواية

ترجمة: عدنان محمد

* واسيني الأعرج
* مرايا الضرير
* ترجمة: عدنان محمد
* جميع الحقوق محفوظة © Copyright
* الطبعة الأولى 2011
* موافقة وزارة الإعلام رقم 103634
* الناشـــــــــر: ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 5141441
* الإشــــراف الفني: د. مجد حيدر
* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

وُلِدَ واسيني الأعرج عام 1954 بتلمسان. وهو أستاذ جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. ويُعَدّ أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف كتابات الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

تتجلى قوة واسيني التجريبية التجديدية أكثر ما تتجلّى في روايته الكبيرة، المبرمجة اليوم في العديد من الجامعات العالمية، الليلة السابعة بعد الألف بجزأيها: «رمل الماية» و«المخطوطة الشرقية»، التي حاور فيه ألف ليلة وليلة لا من موقع ترديد التاريخ ولكن من هاجس الرغبة في استرداد التقاليد السردية الضائعة.

- حصل في سنة 1989 على الجائزة التقديرية من رئيس الجمهورية (رفض استلامها بسبب المضايقات على المثقفين الجزائريين وقتها).

- في سنة 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.

ـ نال في سنة 2001 جائزة الرواية الجزائرية، على مجمل أعماله الروائية.

ـ اختير في سنة 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث، في إطار جائزة قطر العالمية للرواية على روايته الملحمية: سراب الشرق.

ـ نال في سنة 2006 جائزة المكتبيين الكبرى عن روايته: كتاب الأمير.

ـ فاز في سنة 2007 بجائزة الآداب الكبرى (الشيخ زايد) عن روايته: كتاب الأمير.

ـ حصل في سنة 2008 على جائزة الكتاب الذهبي في المعرض الدولي على روايته: سوناتا لأشباح القدس.

ـ تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية، الدنماركية والإسبانية.

سعداء هم النسّاؤون لأنهم ينسون حتى حماقاتهم.

نيتشه

إننا نجري نحو الهاوية فرحين بعد أن نكون قد وضعنا شيئاً ما أمام أعيننا لئلا نراها.

باسكال (أفكار)

الفصل الأول

العَود الأبدي

1

سلاح الجريمة؟

ـ لا، لم يكن هناك من سلاحٍ للجريمة قطّ. بل هناك قَدَر يجب تركيعه، ومحوه مرةً وإلى الأبد. ولهذا القدر اسمٌ: النورسة.

نورسة!

تفوه! يا له من اسمٍ كريه!

صدّقوني الآن، إني جادّ في كلامي. أنا لا أريد أن أبقى متفرجاً حيادياً وهذا الكائن المنحطُّ يتلف صحّتَنا. هل النورسة طائر حقاً؟ وهل هي حيوان سليم الجسم والعقل؟ أليس مرضاً؟ إنها انحطاط نموذجيٌ وحضور مفروض وفاسد. لقد بلغت قدرتُها على الإغواء مداها الأقصى. رائحة البخور تتصاعد من حوله! أوه! وحدَهم المساكين هم من يقتنعون بذلك. وما يجب أن نخشاه هو بالتحديد ما يجذب. إننا نرفع إلى شفاهنا ما يدمّرنا ويودي بنا إلى الهاوية بأسرع ما يكون.

ـ روائح، دائماً روائح! إني أشم رائحة النفتالين ورائحة الموت. أرغب في أن أنهض وأفتح النافذة. هواء! أريد مزيداً من الهواء.

لا أعرف ما إذا كنتُ أنا من يتكلّم أم هو هذا الإله المجنون ذو الشارب المتدلّي الذي لا يجد متعةً إلا إذا انغرس منذ الصباح الباكر أو في ساعة متأخرة من الليل فوق رأسي لكي يقرأ لي حماقاته كلَّها وأحقادَه التي لا تنتهي.

أنا أشكو! حسنٌ نعم، لأن في كل شكوى جرعةً كافية من الانتقام.

ما يزال الليل مخيّماً.

مخيّماً جداً.

سواد من العناء والوحدة، مصطبغ بفاغنر، وتَعْبره أمواج مظلمة وشاردة، ووقعُ خطوات السلحفاة نجاة الخفيفة والواثقة.

لا.

لم يَحِنْ بعدُ موسمُ صيد النوارس البيضاء.

* * *

لم يكفَّ التلفزيون الوطني الذي بقي طوال الليل يشتغل صامتاً، كعادته، عن إعادة نشر آخر الأخبار الخاصة بعمال التنظيفات ومدبّرات المنازل في القطاع العام والخاص الذين استحقّوا اهتمامَ وزارة الأشغال العامة واعترافَها لأول مرة في تاريخ البلاد، وكذلك اهتمامَ واعتراف الاتحاد العام لنقابات العمال و*عائلة الثوار الدائمين* الذين لم يألوا جهداً قطّ في مكافأة كل عمل وطني يخدم الشعب والدولة.

كان الكولونيل أمير زوالي يُمعن النظر ببلاهةٍ إلى الصور ودفترُ ملاحظاته في يده، مهتماً بآلام بواسيره التي يعاني في تحمّلها والتي أيقظته منذ الصباح الباكر، أبكر من عادته بقليل. بل إنه استغرب وجودَ زعيم *عائلة الثوار الدائمين*، بجثته الضخمة والفظّة وحركاته المحسوبة جيداً وإشاراته الجنسية لاسيما عندما يكون مقابل امرأة: يبدأ شعورٌ لديه بعدم الارتياح، ويأخذ بتدليك خصيتيه ومؤخرته. وقال الكولونيل وهو ينظر إلى صورته المشوّهة: لو كان في ظروف غير هذه لعُدَّ لوطياً، وأُعدِمَ رمياً بالرصاص بلا أدنى شك. كانت زوجته الجديدة متعلّقة بذراعه اليمنى، وهي صبية لم تكد تُتِمّ عامَها العشرين. ذلك هو تقليد *عائلة*

الثوار الدائمين. فما إن يصل أحدُهم إلى منصب رفيع، حتى يصبحَ من واجبه أن يغيّر سريرَه أولاً قبل أن يغيّر زوجته.

بدا الزعيمُ فائضَ السرور كطفل بلا ذاكرة، وأخذت أسنانه المغطّاة بالذهب تلمع تحت ثريات الفيللا الفخمة التي يقام فيها حفل الاستقبال. وعندما رُكّزت عليه الكاميرا كان يُجري حديثاً ودياً مع مدبّرة المنزل عمتي خدّوج. لقد أراد أن تكون هذه الحركةُ مُطَمئِنة، فهي ترمز إلى تَعَلّق *الأسرة* بالطبقات المحرومة، وتبيّن أن الأزمنة الصعبة لم تغيّرها. تلك الأسرة التي أقسمت أمام العلي القدير وأمام الشهداء بالبقاء مخلصةً لمُثُل الثورة.

صرخ في سريره:

ـ أمير زوالي! أيها الكبير، يا صديقي العزيز! أيها الكولونيل العظيمٍ في الأزمنة الضائعة والحروب الكبيرة التي أعطت عِرقاً مبتوراً وبلا تاريخ بدلاً من أن تعطي عِرقاً خالداً! كل شيء تافه. هذا هو الانحطاط بعينه. صعود الرعاع الذي يعني مرةً أخرى صعودَ القيم الميتة. يا لها من خديعة! يا لها من كذبة كبرى! إن ذهنيّة القطيع هي التي تسود على كل ما يمكنه أن يكون استثنائياً في هذا البلد. أية طلقة رحمة! لم يبقَ شيءٌ الآن. لم يبقَ شيءٌ على الإطلاق إلا البحر والفراغ والسواد والغياب الكامل للإحساس، لم يبقَ إلا هذا الجنون الذي يسكنني والذي ما يزال يمنحني بعضَ الطعم لهذه الحياة وبعضَ دوار الحب، وإلا، هه! كل شيء ينهار. يا إلهي ما هذه التفاهة! ما هذا الاضطراب.

ضغط بإبهامه ضغطةً صغيرة على جهاز التحكم وأطفأ التلفاز وهو يمعن النظر إلى السلحفاة الصغيرة نجاة وهي تأتي نحوه كل صباح لتنهي نومها على كتاب جنسي أو على علبة أقراص مدمجة فارغة. دخلت نجاة إلى هذا المكان بمحض المصادفة وبقيت فيه. الجميع أحبّ حضورَها الصامت ونظافتها. مدّ يده نحو الستيريو وبحركة آلية نزع *بارسيفال فاغنر* وهو يحاول نقل نجاة التي كانت

تحاول التشبّث عبثاً. استبدلها بـ *السفينة الشبح* دون أن يكفّ عن التمتمة في سريره الدافئ الذي لا يقوى على مغادرته:

- يريدون مساواة البشر. سحقاً لهم. إن حشرات التفسّخ والجبن والاحتيال هي التي تختلط بحشرات العظمة المفقودة. كل شيء فسد. الدولة هي أكبر كذبة في العصور الحديثة.

في ألغاز *السفينة الشبح*، ترك نفسه يغرق كطفل رضيع داخل موجةٍ قديمة من الحليب ومن الضباب الوردي وقليل من المرارة.

* * *

يعود حبُّهُ لفاغنر إلى سنوات عديدة خَلَتْ، عندما التقى أولَ مرة بأخت زوجته سارة بريكسي التي صعقته من النظرة الأولى، والتي لم تُثِر معه مشكلة عدم ختانه، إذ كانت تحبّ كثيراً كلَّ ما يميّزه عن الآخرين. لقد عرفها منذ طفولتها وهي على خلافٍ تامّ مع أختها التي أبدت كلَّ أنواع الشكوك والتحفّظ منذ ليلة زواجهما الأولى.

فكّر طويلاً بسارة قبل تلك الليلة الملعونة التي دفعته دفعاً محموماً إلى قتلها وإحراقها، كدأبه دائماً مع النوارس البيضاء، وتلك قصّة تمكّن من نسيانها بصعوبة. يتساءل أحياناً، وفي لحظات صفائه، ما إذا كان قد ارتكب خطأً شنيعاً عندما خلَطَ بينها وبين نورسةٍ بيضاء.

تمتم وهو يفرك عينيه التعِبتين من الليلة السابقة:

- هكذا هو الحب المجنون، إنه أعمى.

إما أن يأتيه شعور القوة الطاغي، أو العكس تماماً. الحل الوسط في الحب لا يوجد إلا عند الأرواح التّعِبة والمهزومة.

منذ ذلك الزمن البعيد، انقطع بكل حماسةٍ إلى اكتشاف ذلك الرجل الرائع الذي لم يكن يعرف عنه إلا شذرات قليلة بفضل صديق ألزاسي، كان رفيقَ سلاحه، وكان مجنوناً بنيتشة، وقد شاركه أوقات الصمت انتظاراً للحرب العالمية الثانية. ولكن منذ أن ظهرت سارة،

ركبه الجنون والرغبة الجامحة في معرفة التفاصيل. ومع ذلك، ثمة أمرٌ يقلقه. من هو الأب الحقيقي لفاغنر؟ هل هو كارل فريدريش فيلهلم فاغنر أم لودفيغ جاير؟ حتى لو أن ريشار يقول إنه ابن فيلهلم فاغنر. إنها مسألة تؤرّقه. وربما تكمن هنا أكبر قوة للغزٍ نسوي لا يمكن معرفته. المرأة هي الوحيدة التي تعرف مصدر جميع الأجيال الخارجة من بطنها. من يعلم؟ هل نحن جميعاً، في مكانٍ ما، أبناء حرام!؟

- هل كان الطفل الذي أُحرق في تلك الليلة اللعينة في بطن سارة ابني؟ هي وحدَها من كانت تملك الجواب على ذلك. ولقد ذهبت دون أن تذيعه حقاً.

أية تفاهة للخلق، وأية خدعة هي قوة الإنسان! كائن بهذا الصغر يدّعي أنه يتحكّم بالعالم في حين أنه عاجز عن القول ما إذا كان ابنه ينتمي إليه أم لا. الإنسان يسحب خلفه عيوب إلهه كلّها. ذلك الإله الدعيّ وغير الكامل. يجب على ذلك الإله أن يموت لأنه صورة كاملة للنقص.

مع مرور الوقت، قبل أن يحتفظ بالأسئلة لنفسه دون أن يبحث عن الإجابات المستحيلة. لقد تعلّق في أثناء عزلته تعلّقاً مرَضياً بكل ما هو لغزي في هذا الرجل وفي موسيقاه. من *المركبة الشبح، ذلك الإخفاق الباريسي الذي جرح فاغنر إلى الأبد، إلى الغرق في بارسيفال* وغسق الآلهة، في لحظات الوحدة القصوى.

فاغنر، ذلك الظلامي، كما يحلو له أن يسمّيه، ذلك الرجل الذي له هيئة عملاق، ولكنه أكثر هشاشةً من كأس شاي، ذلك الذي يترك نفسه يذوب في علاقة حب مستحيل مع ماتيلد فيسيندونك. لا ريب في أن تلك القَدَرية هي التي ولّدت عمله الأكثر غنائية: *تريستان وإيزولد*.

إنما تُولد مأساة العَظَمَةِ من رحم المستحيل.

منذ لقاء جميع المحرّمات ذاك الذي غدت فيه سارة سيدةَ صمته، لم يكفّ سحرُ فاغنر عن السكن بداخله، وعن هزّه كريشةٍ

نورس، وعن الدخول إلى أعماقه، وعن جعله يفقد عقله الذي يسعى الآن ليستردّه كل صباح.

قال لنفسه: *هذه العربة الشبح هي حميميتي، إنها صورة العظمة والجنون الثوري. كيف تسنّى لهذا المجنون الظلامي أن يتخيّل عالماً كهذا؟ كان عائداً من ريغا عن طريق البحر، عندما هبّت عاصفة عاتية، وحين لمع في رأسه فجأةً ذلك الهولندي الأسطوري الذي كان يطير تحت كل السموات، والذي حُكم عليه بأن يتيه إلى الأبد لأنه كفر. كل سبع سنوات، كان بوسعه أن يلمس الأرض لكي يجد المرأة التي ستضع حداً لعقابه. يا له من جنون رائع!*

ـ فاغنر في الصباح الباكر!

محبة هذا الرجل تعني أن أعرف كيف أدفع ثمن هذا الحب. إنه كفري الأبدي بهذه الطبيعة الميتة وبهذه الصحراء المسطّحة. لولا هذه النوارس اللعينة لتسنّى لي أن أُمضي حياتي كلها وأنا أستمع إليه، فالاستماع لفاغنر هو استماع لصوت سارة بريكسي العميق والهادئ.

هذا الكابوس اللعين ما ينفكُ يسكنني ويأخذني إلى مأساة النوارس تلك، مع أني كنتُ قد نسيتُها منذ طفولتي. وها هو، خلافاً لكل توقّع، يلطي من جديد لكي يضعني على طريق إفنائها.

سحقاً لها. فهي من أراد ذلك. كان من الأفضل لها أن تطير بعيداً أو أن تغادر بحراً ليس لها.

ـ اللعنة! لماذا اختارت هذه النوارس المشؤومة أن تهاجر نحو هذا البحر المنسي، رغم أنه بلا ألوان وبلا حياة؟

أخذ نور الفجر ينزلق ببطء وصعوبة من خلال أباجور النافذة.

ما يزال الوقت مبكّراً جداً لصيد النوارس البيضاء.

لم أعرف البحرَ الميتَ قطّ، ولكني كثيراً ما سمعتُ عنه. أعتقد أنه يشبه كثيراً هذا الفراغ. وبالمقابل، فقد عرفتُ الربع الخالي من

الأرض حيث لا يوجد أي كائن حي إلا السرطانات والأفاعي ذات الأجراس. لا بدّ للمرء من أن يكون قوياً جداً لكي يصل إليه. ولكن هذا كله يعود إلى التاريخ القديم. وما يهمّني اليوم هو أني هنا ماأزال على قيد الحياة، بعيداً جداً عن الصحراء.

فتح الأباجور، جلس على كرسي قديم، ملأ رئتيه بالهواء النقي، والتفت نحو كلبه غزال الذي كان يقعي عند قدميه ويلعق حذاءه منتظراً، كأم عجوز، أن يقدّم إليه حليب الصباح.

ما يزال الليل مخيماً تقريباً. وما يزال اللون الأزرق الغامق يغلّف هذه الصحراء الزرقاء. ليالي الشتاء طويلة، طويلة جداً أحياناً إلى حد أنه لا يستطيع أن يتحمّلها. القلق والخوف يخيّمان بسرعة على هذا البحر الصامت. وليس هناك إلا وسيلة واحدة لتبديدهما: الاعتماد على أية تفاهة كانت، المهم هو القيام بعمل ما، التحرّك ومَلء الوقت.

- ثم، لا شيء مستحيل.

الحياة هنا، ويجب أن أفاجئها. يجب أن أقوم بشيء ما، أي شيء. ولكن يجب ألا نرضخ للرعب الذي تفرضه علينا، ولا لنزواتها. إن عيب نيتشه الوحيد هو أنه كان يكره فاغنر! أعتقد أن الأرض تصبح أحياناً أضيق من أن تتحمّل عظيمين في آنٍ واحد، ومع ذلك، أنا لم أحبَّ فاغنر إلا من خلال كره نيتشه ومن خلال حب هذه المرأة الاستثنائية سارة بريكسي، أخت زوجتي التي توفّيت... المهم... لطالما قلتُ للآخرين إنها ماتت بسبب نوبة قلبية. إنها خسارة، ولكن كان يجب أن تموت لكي أحيا.

عندما أستيقظ باكراً، تتشبّث بخنّاقي رغبةٌ مجنونة إليها. أريد أن أعيش سارة بريكسي بجنون ككتاب مقدّس يصبح من لمسة الحب نصاً مدنّساً ومفارقةً بلا تفسير.

كانت سارة جميلة العظماء وحب الآلهة

امرأةَ الحلول القصوى

كانت سارة كلَّ شيء ولا شيء

لغز الصحراء.

غادر كرسيّه القديم.

ككل صباح باكر، يقوم بترتيب الشاليه قليلاً. الحد الأدنى من الترتيب لأن عمتي خدّوج التي تمر به دائماً تتكفّل بترتيب الباقي. رتّب الأشرطة والأقراص المدمجة المنبطحة أرضاً كأشياء تسيل منها الحياة بصورة دائمة. نظر طويلاً إلى القرص الأخير للشيخة ريميتي قبل أن يُدخله إلى علبته. إنها هي التي تداعبه كل مساء قبل أن يتعرّى، كدأبه كل مساء قبل أن يشرع في رحلة مقدسة داخل المجلات الجنسية:

يا حبيبي تعال هذه الليلة

ليس هناك إلّانا يعرف الحب

هُزَّ المجانين

تعالَ ولا تطرح الأسئلة.

يحرص حرصاً بالغاً وهو يرتّب الكتب الجنسية لئلا تشك عمتي خدّوج في أي شيء. إن لها حاسة شم ذئب جائع. وإن وجدتها، الله وحده يعلم ماذا ستفعل بها. ماذا ستكون ردة فعلها؟ لا ريب في أنها ستلصق به كلَّ النعوت السيئة. يجب أن يخبّئ عنها كل شيء. ستكون الكارثة إذا ما عرفت على سبيل المثال أنه فرّ من بيته يومَ ختانه وغاب أكثر من شهر عند جدته لوالده لكي يتفادى أن يقطعوا له قضيبه (هذا ما قاله له أولاد القرية).

- اسمع يا زوالي. نحن لا نمزح، فأنت صديقنا. والله رح ينحّي لك زبّك. أقسم لك. لقد فعل ذلك مع جميع الأولاد الذين من عمرك والذين يشبهونك. وسيضع لك أنبوباً صغيراً لكي تبول، هذا كل ما في الأمر.

لم يتمكنْ أن ينسى شرّهم قطّ. في النهار، كان يذهب إلى

البحيرة ليحرق نعال الكريب ويزرع الحلفا ويطارد النوارس، وفي الليل يعود إلى بيت جدته لأبيه التي كان لها دالّة كبيرة على ابنها فكان واثقاً من أن أحداً لن يستطيع مسّه.

وكبر هكذا حتى صار غير قابل للختان.

إذا سمعت عمتي خدّوج ولو جزءاً يسيراً من هذه القصة فلن تصمت أبداً. النميمة هي عماد حياتها.

الكتب الجنسية ذات أهمية حيوية بالنسبة إلى أمير زوالي. إنها جزء مكمّل لحياته اليومية ولا يستطيع أن يستغني عنها. فبفضلها يملأ عينيه كل مساء بألوان نارية وبالشهوة قبل أن يخلد إلى أحلام مخملية. وكل مساء يُنهي رحلته الغرامية على إحدى النساءً الجميلات المعروضات أمامه، وعلى لحمها الحي والمحرق المنسوج بالرغبة. إنهن لا يغصن في جسده كما كانت تفعل امرأته المرحومة، بل يقبلنه كما هو بلا زيادة أو نقصان. يغمض عينيه على النهدين المنتفخين كتفاح المجانين أو على الفخذين الرخاميتين المقدودتين بيد جريئة وخفية مخفيتين فرجاً تجلّله عانة ساحرة، وهو يتخيل أنه يمرر أصابعه بين هذه المخامل وهذه الروائع، قائماً بجولة من المداعبات البطيئة ومتأنياً عند كل التفاصيل ومكتشفاً الروائع المخبَّأة في جسد غير عادي، تحت صوت الشيخة ريميتي وهو مكافئ لنفسه دائماً، وهي إذ تقطّر سحراً وجنوناً، تؤرجحه في فراغ من اللذة والأحلام. ما يلبث الضيق أن ينتابه مع القطرات الأولى من السائل اللزج المندفعة بين أصابعه. إنه لا يطيق المني الذي لا يكف عن السيلان في باطن يده وبين أصابعه المتشابكة بقوة حول قضيبه. رائحته التي تشبه رائحة نسغ الأشجار البرية ولّد لديه رغبةً في النوم. ينهض، يغتسل ثم ينام كأمير بعد أن يفرغ جسده من كل ما كان يلهبه من الداخل.

ينام في فضائه منفصلاً كلياً عن الأرض.

منذ أن صار هنا في الـ م م ح *(المنطقة مشدّدة الحراسة)*، جال

على أجساد نساء كتبه جميعاً. بل إنه طوّر ردّات فعله وتعلّم كيف يقدّر الألوان المختلفة متمهّلاً عند خصوصية كلٍ منها وثقافته الجنسية.

على سبيل المثال، هو يعشق السوداوات إذ يجدهن أكثر اندفاعاً وجنوناً وكلاماً أثناء الفعل الجنسي، وأحياناً يجدهن أكثر بدائية ووحشية، مستعدّات لافتراس الشريك كما كان يفعل مجانين الحب في الماضي. أمر غريب. إذ ما يزال الرجل الذي هو الكولونيل أمير زوالي يحتفظ بغريزته الأولى حول الجنس غير ممسوسة، وهو ما يزال يرفض أن يؤنسنها فهُنا بالضبط تستيقظ شياطيننا الخفيّة التي ما نزال نجرّها خلفنا منذ العصور الغابرة.

الصفراوات يجدهن متحفّظات دائماً، بل حييات عندما يتعلّق الأمر بالوضع القائم. وهن لا يستطعن التصرّف إلا بحسب طقس مُعَدٍّ مسبقاً، ولكن ما إن يذقن نشوة الحب حتى يصبح من الصعب كبح جماحهن والسيطرة عليهن، وتُسمع أنّاتهنّ كذئبات إلى البعيد. لذا تراه يتّخذ كافة الاحتياطات ويُحكم إغلاق الأبواب والنوافذ، عندما يريد أن يمارس الحب مع إحدى الآسيويات، لئلا تُسمع أنّاتها وصرخات لذتها وألمها.

أما البيض فتتنوّع حالاتهن علواً وانخفاضاً، وليس فيهن قاعدة عامة. فالألمانيات مثلاً متطلّبات جداً من حيث النظافة. وقبل أن يختار الكولونيل امرأةً ألمانية يكون مضطراً إلى أخذ كافة متطلّباتها بالحسبان. هذا يزعجه قليلاً، وهو الذي لطالما أحبَّ القيام بالأمر بسرعة. ولكي يتجنّب كل هذه المُربكات يبرمج يوم حمّامه مع الليلة التي يريد أن يمضيها مع امرأةٍ ألمانية. وبالمقابل فإن الفرنسيات مهووسات بمسألة وضع الواقي، وإذا ما أردتَ شيئاً منهن أخضعنكَ لاستجواب طويل حول علاقاتك السابقة لتبديد أي شكٍ في مرض ممكن. ثم يهدأ كل شيء. من ناحية المرض، هو لا يشكو من شيء، وهو يخزّن كمّاً كبيراً من الواقيات الخارجة من مصنعه الملتهب. إنه يجد واقيات «زينة» جيدة الصنع، تحترم

المعايير الوطنية والدولية وحتى الدينية والإثارية مع خط قرآني واضح يدفع مستخدميها إلى أن يذهبوا في استيهاماتهم إلى أقصى حد: «*نساؤكم حرث لكم آتوا حرثكم أنّى شئتم*».

إنه يفكر دائماً باستبدال حريمه لكن الأمر في غاية الصعوبة. فهو غير مؤهل للقيام بذلك ولا للمشي في هذا الاتجاه. فالعلاقات مع الخارج هي ما هي، إذ من النادر جداً أن يجد مجلات جديدة من هذا النوع، ثم إن الأمر حميمي جداً إلى درجة أنه لا يستطيع أن يطلب من أولئك الذين يحملون تأشيرة خروج بأن يجلبوا له مجلات جنسية. في السابق، كان يأخذها من المهرّبين، كان يصادرها مدّعياً بأنه سيسلّمها إلى المسؤولين وإلى السلطات المختصة قبل إحراقها لأن ذلك يسيء إلى الأخلاق وإلى العادات الإسلامية. واليوم يكتفي بالنساء القديمات اللواتي كان قد نسيهن، ولكن ما إن يبدأ وهو عارٍ، لأنه ينام عارياً على الدوام، حتى يتذكر تفاصيل هذه المرأة أو تلك ويغوص في جسدها الحريري.

بدأ يفقد المتعة.

ربما كان ذلك بسبب السن، يقول لنفسه كلما عادت إليه ذاكرته. أحياناً، لكي يتجاوز العطل الجنسي، يركّز اهتمامه على الخرساء عايشة البكوشة لكنه يتمكّن بشكل سيء من الإحاطة بوجهها الطفولي الذي لم يفقد شيئاً من أَلَقِه على الرغم من التجربة الرهيبة التي عاشها.

الخرساء نور من المستحيل الإحاطة بها. إنه يحاول كل الأوضاع لكي يدخلها إلى حلمه، ولكنها تغيب في أقسى لحظات اللذة لتتركه وحيداً أمام كتبه الجنسية أو في ثقب أسود أو بكل بساطة، تتابع عنها سارة بريكسي وهي تحمل في يدها بيدوناً من المازوت تصبّه على رأسه ثم تتأنى في البحث عن أعواد الثقاب. ينهض وفي فمه كلمات لم يتمكّن قط من تذكّرها. منذ الليلة التي أحرقت فيها شاربه المتدلّي، منذ ليلة كابوسه نفسها، حلقه ولم يعد يطلقه أبداً.

وعندما عادت للانتقام مرة أخرى سحبت الملاءة التي كان يغطي جسمه بها ونظرت إلى عانته. وفي كل مرة، لكي تثير أعصابه أكثر، تصبّ المازوت ثم تتأنى في البحث عن أعواد الثقاب. عندما أتت في المرة الأخيرة وأحرقت عانته نهض في جوف الليل وصرخ:

- أنتِ مجنونة! فلتمسك بكِ أحجار قبرك. اتركيني بسلام، أستحلفك بجميع الأولياء.

ودون أن يفكر بأي شيء عمد إلى حلاقة عانته أمام مرآة قديمة لأن كرشه العظيمة كانت تعيقه كثيراً. ومنذ ذلك الحين تركته سارة بريكسي بسلام، ولم تعد تزوره إلا لكي تزعجه بإلقاء نظرةٍ على جسمه العاري الذي شوّهه تقدُّمه في السن. تنفجر ضاحكةً كمجنونة، ودون أن تكلمه، تفتح يدها وتباعد بين أصابعها وتخبّئ وجهها ثم تختفي تاركة على أطراف شفتيها بقيةَ ابتسامة ساخرة.

- أكره حضورها، ومع ذلك أنا في حاجة ماسّة إلى هذا الحلم. يجب أن أحلم، أن أطير نحو السماء السابعة لئلا أموت. لا أريد أن أنسحق إلى الأرض كهيكل عظمي تعِبٍ أو كدمية مسكينة مخلّعة.

وفي الصباح الباكر، يفتح عينيه دائماً مع فاغنر.

حب سارة وقراءة نيتشه المحمومة منذ حرب الرماد وحتى اليوم لم يُسهما إلا في تعقيد هذا المرض الذي يسمى فاغنر.

اعتاد الكولونيل أمير زوالي ألا يغادر مكانه إلى صيد النوارس اليومي إلا بعد أن تمر أمام الشاليه تلك المرأة اللغزية التي يسمونها هنا الخرساء أو عايشة البكوشة أو الفنانة.

عايشة مضطرة للمشي في هذه الطريق، إذ ليس لديها من طريق أخرى تسلكها لكي تنزل إلى البحر حيث تمضي صباحها كلَّهُ في تأمّل الشمس وهي تشرق كوردة حمراء قرميدية أو نحاسية غامقة، قبل أن تمعن النظر إلى حركات الكولونيل أمير زوالي الذي حطّ رحاله في هذا المكان منذ سنتين مع كلبه الهرِم وهو يُقيم حرباً

شعواء ضد المتطفّلين البيض الذين يوسّخون البحر كل صباح، تلك النوارس البيضاء التي تأتي من البعيد، من البعيد القصي، من هاوية الموت، من المحيطات عديمة الأسماء، قبل أن تأوي إلى كوخ قديم كان يأوي إليه الصيادون في الماضي. على أية حال، إن أول منحوتة صنعتها الخرساء منذ أن سكنت الـ م م ح *(المنطقة مشدّدة الحراسة)*، كانت على شرف الصيادين الذين رحلوا ثم لم يعودا. أطلقت عليها اسمَ: *صيّادو تيبازا*. دوار البحار. وجوه معبّرة جداً لكن العيون كانت أكبر من العيون الطبيعية، والأسنان تصرّف بقوة، والنظرات متّجهة نحو أفق بلا تفاصيل. لطالما اشتغلت عايشة البكوشة على أشخاص حقيقيين وعلى نظراتهم، فالمدينة ملآنة بمنحوتاتها: الأمير عبد القادر غاضباً من ليون روش، وهي منحوتة لرجلين أحدهما يرتدي البرنس والآخر يرتدي ملابس على الطريقة الغربية، وكل منهما ينظر شذراً إلى الآخر، كديكين، دون أن يتمكن أحدهما من قتل الآخر. وتمثال لفاطمة نسومر وهي تذرّ البارود والأحرف الأبجدية لكلمات مفقودة. تمثال صغير لامرأة داخل مقر اتحاد النساء الجزائريات. على أية حال لقد ألبسنه ثياباً. وقد نشب صراع حام بين من يريدون الاحتفاظ بهذا التمثال ومن يريدون التخلّص منه وإعادته إلى وزارة الثقافة لكي تتحمّل مسؤولياتها وتتصرّف بشأنه، والانتهاء من هذا الخلاف الذي سبّبته. قام الحل الوسط على إلباس الجزء العاري من التمثال وإبقائه في مكانه. وما قيل فُعل. ابن باديس فاتحاً كتاب الشر والحكمة. وهو صورة لرجل يفتح كتاباً ويقرأ أبجدية ما تلبث أن تصبح قراءة، وحلقات سلسلة غليظة تمتد إلى ما لا نهاية. «الجميلات الثلاث. ظل الكلام». ثلاث نساء، كل منهن تنظر في اتجاه مختلف، مبتورات. الأولى فقدت ذراعها اليمنى، والثانية فقدت عينها اليسرى، والثالثة ذاكرتَها. «بوضياف. الموت في باطن اليد». رجل طويل محفور في صخرة قديمة، تشبه جذع شجرة، وخلفه رجال وجوههم تشبه أخطام كلاب وذئاب وهم يضحكون، وإلى جانبه رجل ذو هيئة بالغة الاحترام يهمس في أذنه. «تين ـ هينان،

جسد من رمل ومن ريح». إنها بقايا جثة مقطّعة وموزّعة في الجهات المختلفة.

وضعت البلدية تمثال *صيّادو تيبازا* في مدخل الـ م م ح *(المنطقة مشدّدة الحراسة)*، بَيْدَ أن السلطات منعته بسبب عدوانيته وأودعَتْهُ مؤقتاً في حديقة أحد كبار المسؤولين في المنطقة. استماتت الخرساء لكي يوضع التمثال في مدخل ساحة الصيادين. السكان المجاورون للـ م م ح يسمّون كوخَ الصيادين محتَرَفَ الخرساء. فقد استقرّت في المرتفعات الأولى المشرفة على الشاطئ حيث تُمضي سحابةَ نهارها منذ أن قدِمت إلى هنا في نحت حجر كبير من الغرانيت وضعته دوائر الولاية في خدمتها بمثابة اعتذار عن الخطأ والضرر الذي اقتُرف في حقها. لا أحد يعرف ما ستفعله بهذا الحجر، ولكن الجميع يشكّون في أمرٍ معين. إنها امرأة تحب أن تعمل بصمت وبحميمية قبل أن يتمخّض عن هذا الصمت عملٌ رائع في نهاية الأمر. دائماً تُبقي هذا المكان سرياً. ولا أحد يزعجها لأن كلاً من أولئك الذين ساعدوها يظن أنها ستنحت تمثالاً له، أو أنه بكل بساطة لا يعير عملها أي اهتمام، فما هي إلا امرأة غريبة الأطوار اقتربت من الجنون بعد الهجوم الذي تعرّضت له.

هي نفسها لا تفهم هذه الصحوة الهستيرية المفاجئة نحو التماثيل من كثير من الناس المهمّين ممن يحيطون بها. وآخر المرشحين كان الوالي الذي أتى شخصياً ذات صباح أولاً لكي يقدم اعتذاره عن سوء التفاهم الذي حصل ثم لكي يهنّئها على فكرتها العبقرية في أن تشتغل بمادة أولية وطنية مئة بالمئة، لا تتطلّب أية جهود للاستيراد وتدرّ على البلاد الملايين من القطع الأجنبي. ثم وعدها برحلة إلى الخارج لكي تعرض أعمالها هناك.

- يجب أن يعرف الغرب أننا نصنع الروائع إذا ما وضعنا جميع الإمكانات بين يدي فنانينا.

كلما سمعته عايشة البكوشة يتكلم عن هذا المعرض في الخارج تنتابها الحيرة، فاغرة الفم وما لا نهاية من الأسئلة تحوم في

خاطرها: كيف يمكن نقل *أطنان الحجارة لعرضها خارج البلاد؟ يلزمها سفن شحن أو سفينة مستأجرة خصّيصاً لهذه الغاية، وليس هناك من كان بوسعه أن يفعل ذلك إلا نابليون الذي راوده الحلم في أن ينقل الأهرامات إلى امبراطوريته. هل يجب امتلاك شجاعته وطموحاته وجنون عظمته!*

ثمة ملاحظة لم تخفَ على نظر الكولونيل: إن عايشة البكّوشة، تلك المرأة اللغز، تشبه سارة بريكسي. وأحياناً، عندما ترتدي ثوباً أبيض، فإنها تشبه نورسةً.

نورسة خرساء! وهذا ما يملؤني رغبةً في أن أحرقها. على أية حال، إني أراها تحترق كما فعلت سارة بريكسي. لعنتُ الشيطان في قرارة نفسي لأبعد هذه الصورة ثم تابعت أعمالي.

إنه يخشى أن يفقد القليل من العقل الذي بقي لديه.

لا أحد يعرف قصة عايشة البكّوشة في أدقّ تفصيلاتها. ومن يعرفها يبقى أخرساً مثلها. يصمتون عندما يُطرح السؤال، أو يعيدون رواية للأحداث استهلكها الجميع:

- إنها هنا لأن لسانها قد قُطع بسبب عملها في الفن.

ولكن عندما يقع فنان بين أيديهم يقطّعونه إرباً إرباً، فكيف هي ما تزال على قيد الحياة؟ وبعض ذوي الخيال الخصب يذهبون بعيداً أكثر، فيشكّون في صحة القصة أصلاً ويقولون إن لسانها لم يُقطع بل إنها فقدت النطق بسبب الاعتداء الوحشي الذي تعرّضت له على يد بعض المجرمين.

حتى الكولونيل أمير زوالي، مثله مثل كبار المسؤولين الذين يسكنون الـ م م ح *(المنطقة مشدّدة الحراسة)*، ومنذ أن علم ذلك، لم يكفّ قطّ عن التفكير بالتمثال الذي تأخّر في القدوم، وهو الذي شارك في جميع الحروب الوطنية والدولية. من الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء، مروراً بالثورة الوطنية، عندما ترك خلفه

رتبة ضابط في الجيش الفرنسي وفرّ في عام 1956 ليتأرجح بين ميصاليين الـ MNA والـ FLN، قبل أن يستقرّ به المقام مع الأقوى والمؤهَّل أكثر للقيام بالمعركة حتى النهاية. وحتى معركة الصحراء ضد المغرب في عام 1963، بُعيد الاستقلال، لأن المصادفة وحدها هي التي شاءت أن يكون في ذلك المكان في تلك الآونة، لكي يُقيم حرباً قاسية مع أشقّائه الذين لم يكن لديهم ما يفعلونه إلا الاعتداء. وحتى الانقلاب الذي قاده بومدين على بن بيلاّ، إن كتيبته هي التي أنهت الأمر مع ميليشيا الدفاع التي كانت تتشكّل في عنّابة وفي الصحراء من أجل الرد. في كل مرة، كانت تحدث معجزة. وبفضله دمّرت الشبكة الشيوعية بأكملها ووُضعت في حالةٍ من عدم القدرة على الضرر.

لم تكن هذه حروباً صغيرة، بل كانت حروب إبادة صامتة، ومع ذلك... ما يزال على قيد الحياة. والانتهازيون الجدد لا يعرفون شيئاً من الحقيقة المعروضة أمامهم. لقد صنعنا الحياة من أجلهم، الأعمال القذرة أيضاً: لقد تركتُ جزءاً من حياتي في كل حربٍ من الحروب الكبرى في هذا القرن. حياة كان يجب أن تكون قصيرة، ولكن ها هي تمتدّ بقَدَر لا أعرف كيف أصفه. آثار على الجسد وفي النفس تعود بالتسلسل الألمي، مليئة بصرخات ووجوه مفقودة أكمدتها الحرارة والخيبات العديدة التي ليس لها تفسير.

لا.

ما يزال الوقت مبكّراً لصيد النوارس.

2

- لحياة الكلب هذه قصةٌ طويلة.

رحلة الكولونيل أمير زوالي معقدة جداً، مليئة بالمناطق المظلمة ومزروعة بالأفخاخ. وهو وإن لم يعرف السعادة الغامرة، بسبب الظروف السيئة التي وقعت على رأسه كالبارود السيء الذي لايقتل ولكنه يعوّق مع تقدم السن، فقد عاش بامتلاءٍ بعض المتع وبعض الأمجاد بوصفه رجلاً ميدانياً، متحدياً أعداءه الذين يطيب لهم أن يلقّبوه: «رجل (الانتصارات) الميداني». ولكن ما هذه إلا أقوال الشيوعيين الذين طالما قاتلهم وكرههم، وأولئك الذين لم يخوضوا أية حرب ثم وجدوا أنفسهم، بقدرة قادر تقريباً، في رتب أعلى من رتبته.

لم يُحبَّ المرايا قط، ولكن في كل مرة ينظر إلى نفسه مواجَهةً، لا يرى إلا مجداً عظيماً يشعّ من عينيه؛ واحتراماً لقواعد الحروب، فإنه يزرّر قميصه حتى الزر الأخير فيخنقه، ويتحقّق من مؤخرته، ويسوّي قيافته تماماً كأمير أندلسي وهو يستعيد العبارة الجميلة التي لم تكفّ سارة عن ترديدها قبيل وفاتها:

- يا عزيزي الأوسم والأقوى بين الجميع، ها قد أتى اليوم الذي ستجد فيه نفسك بين أهلك، أولئك الذين يرون أن وجودك، حتى وأنتَ متقاعد، ضروري جداً لبقاء بلادٍ تمرُّ في حالٍ من الخطر المستمر.

لقد أمضى الجزء الأكبر من حياته في صحراء بلا ذاكرة وبلا

أفق، حياة عسكري يرى الأيام والناس الذين ينظرون. لقد اختار عملاً يصعد فيه صعودَ السهم ثم يقف عند رتبة كولونيل. كان يلزمه خوض معركة مجنونة مع الجيران الذين يتأهّبون لشنّها لكي يشقّ لنفسه طريقاً جديدةً نحو رتبة الجنرال. ولكن فكرة هذه الحرب الممكنة ما لبثت أن انطفأت شيئاً فشيئاً وانطفأ معها حلمه.

قال لنفسه وهو يتمطّى ويتثاءب وهو ما يزال تحت تأثير النعاس:

ـ الزمن يمر متثاقلاً أمام هذا البحر عديم الصوت.

ها قد مرت سنوات عليه الآن منذ أن غادر ثكنة النقطة صفر، ومع ذلك لم ينسَ شيئاً. إنه يتذكّر كل التفاصيل التي تشكّل هذا العالم من النظرات ومن الأحاسيس الأكثر بدائيةً. لوحة تذكارية مصنوعة من الخشب المعاكس وقد وُضعت غير بعيد عن الثكنة، ما تزال تذكّره باستمرار برياح الموت تلك التي هبّت ذات صباح فلم تُبقِ إلا هياكل أشياء وأحلام كائنات حية. وعند كل هبّة رياحٍ رملية ترتعش هذه اللوحة كورقة ضائعة في الفراغ قبل أن ترضخ وتسقط. شكلها الفارغ يذكر بشاهدة قبر تحوّل، وبمساعدة كلمات رنّانة وفارغة، بحياةٍ كاملةٍ من الغبار والرماد. فارغة، بل أفرغ من أن تقول الألم المخبَّأ *للناس الذين ينظرون*، ومنهم من يمرون على مقربةٍ منه، دون أن يتوقّفوا، إلا لكي يرفعوها ويسندوها بالحجارة وبأطراف الأصابع بعد كل هبوب لرياح الرمال.

بل إنه يتذكر التفاصيل التافهة، خط عربي بلا روح وبلا رغبة، مرسوم على عجل على قطعة من المعاكس ومرفوعة كيفما اتفق، ترقد دائماً في الوحدة ولا يُؤنسها إلا الغياب والصمت:

> بسم الله الرحمن الرحيم
>
> بعون الله دشّن وزير المجاهدين القدامى هذا الموقع التاريخي تكريماً لضحايا التجارب الفرنسية الأولى للقنبلة الذرية في هذا الموقع المسمّى حمّودية ريكان، بتارخ 13 شباط 1960.

النقطة صفر موقع قديم قِدم العالم، ومكان شبه مقدّس، وهو في طلاق دائم مع الحياة. هنا ترك الكولونيل أمير زوالي جزءاً من لحمه، داخل قلعة قديمة مزروعة داخل مثلث رملي. وهي ما تزال تعاني من عدوى إشعاع يعود إلى عام 1960، في تامنغو التي يسمّيها الجميع النقطة صفر في الصحراء، عند حدود عدة دول وعلى تخوم شمال أفريقية العطش والفراغ المليء بالألغاز. مكان خاوٍ، غير بعيد عن ريكان التي لم تكن آنذاك إلا قرية صغيرة عند حدود تنزروفت بجدرانها المصنوعة من الطين الأحمر وغابة نخيلها الخضراء. لقد أُجريت التجارب النووية الفرنسية الأولى على سجناء وحيوانات. يبدو أن إطلاق الـ gerboise bleue قد تم عند الساعة السادسة صباحاً، وهي قنبلة تُعد أقوى بأربع مرات من قنبلتَيْ الـ Betty والـ Little Boy اللتين أطلقتا على هيروشيما وناغازاكي. السكّان غير الرّحل كانوا قد أُخطِروا وأُعطيت أوامر ووُزّعت على نطاق واسع. ويجب على السكان أن يخرجوا من بيوتهم منذ التحليقات الأولى لطائرة صفراء، كما ما يزال يذكر سكانُ ريكان الذين عاشوا الحدث. وعلى الجميع أن يلفّوا أنفسهم بغطاء ويلتصقوا بالأرض. وكانت عائلات العسكر الفرنسيين قد أُخليت قبل عدة أيام إلى أدرار التي تبعد ما يقارب 150 كيلومتراً شمالاً. ما كان أحدٌ في تامنغو يعرف ما الذي سيحدث بالضبط. في 13 شباط سُمع هدير خطير لإحدى الطائرات منذ ساعات الصباح الأولى. قامت بعدة دورات ثم ابتعدت. إنها لحظة الإطلاق. شغّل الجنرال أيوريه جهاز الإشعال فأضاء وميضٌ غَبَشَ الصباح، وسُمع صوت انفجار هائل، ولفَّت الجوارَ نفحةٌ حارّة. ثمة أشخاص سيفقدون أبصارهم لأنهم رأوا وميض القنبلة. وعلى الرغم من المسافة البعيدة فقد احترقت بيوت وتهدّمت سطوحٌ، وشوهد الفطر في تسابيت، على بعد ما يزيد عن 200 كيلومتر إلى الشمال. وكان غبار الرمل الذي أثاره الانفجار هائلاً ومحمَّلاً بالجزيئات الذرية. وانفغر فالقٌ في الأرض محدثاً حفراً مليئةً بالنار، وقال بعضهم إن الجبل قد اهتزّ قبل أن ينهار،

وانطلق لهبٌ هائل من داخله قبل أن تتشكّل غيمةٌ حمراء وسوداء وصفراء ورمادية. ثم هبّت رياحٌ شبيهةٌ بالرياح الرملية، وكانت مليئةً برائحة الكبريت والموت فلفحت *الناس الذين ينظرون*، والذين أذهلهم هولُ النار واللعنةُ المرتبطة بالرحيل المتسرّع للأميرة ضيا.

هذا مكان يخبّئ وراءه قصة كبرى قيلت بطرق مختلفة ولكن الروايات كلها تتفق على أن آدم الذي طُرد من الجنة قد سقط في هذا الجزء من الصحراء المسمى تامنغو النقطة صفر لأنه بدأ جولته من هذا المكان بحثاً عن حواء التي سقطت في صحراء الربع الخالي.

في النقطة صفر يلتقي اليومَ *الناس الذين ينظرون* لكي يحتفلوا بذكرى الأميرة ضيا، آخر حفيدات الملكة العظيمة تين هينان. بدأت رحلتها الطويلة نحو عشيقها ونحو عدوّها سالكةً الطريق نفسها التي سلكها آدم منذ آلاف السنين للقاء حواء، وهي الطريق المرسومة نحو باجي مختار ثم تومبكتو ثم غادس. كانت ضيا الوحيدة القادرة على شم رائحة الآثار القديمة. واجهت الرجل الذي صار فيما بعد عشيقها أمام صخرة الأمراء المسنّين المقدودة وجرّدته من سلاحه. وعندما تأهّبت لقطع رأسه توسّل إليها:

ـ يا أميرتي! كيف تريدين أن تقتلي شخصاً لم يقتل أحداً؟ فالرجل المهزوم رجل ميت. أنتِ عظيمة والعظماء لا يقتلون ميتاً مرتين. تكفيه قتلةٌ واحدة لتعيده إلى الطريق المستقيم.

ـ ولكنكَ تحاربني، وكنتَ ستفعل بي الأمرَ عينه.

ـ ليست هذه نيّتي على الإطلاق، فقد أمضى آدم حياته كلها وهو يجوب الصحراء لكي يلتقي بحواء. تخيّلي للحظة أنه حاربها لأنها أنزلته من الجنة، بعد هذه الرحلة الطويلة من النقطة صفر إلى شبه الجزيرة العربية إلى الربع الخالي مروراً بباجي مختار وتومبكتو وغادس! لا بدّ أن مصير البشرية المسكينة كلها كان سيتحول إلى الفراغ.

ـ لماذا فرضتَ عليَّ هذه الحرب إذن؟

ـ هذه ليست حرباً يا أميرتي، لأنها لم تقتل أحداً، ولكن هذا هو اللقاء الذي كان يجب علينا أن ننجزه لكي نغيّر مجرى الحياة وأن نفتح الطريق من النقطة صفر إلى تومبكتو وغادس، دون أن نخشى المفاجآت أو الحروب التي قضت على أهل المنطقة. فإذا كانت قتلتي الثانية تفتح الطرق كلَّها لشعبنا الذي ليس هو في الواقع إلا كائن واحد فأنا مستعد لتلقّي حدّ سيفك، يا أميرة *الناس الذين ينظرون*.

ـ أتقصد أنك جعلتَني أكسب هذه المعركة؟

ـ بالطبع لا، إنه انتصاركِ، وكذلك هو انتصاري إذا كان موتي الأول، وربما الثاني، يحرّر الفقراء.

أخذته إلى بيتها ثم أمضت عاماً وهي تنظر إليه مواجهةً، وعن كثب، في عينيه، وفي اليوم السابع والستين بعد الثلاثمائة أعلنت له حبَّها وحرّرت الطريق من النقطة صفر إلى تومبكتو وغادس مروراً بباجي مختار، وتدلّهت به طوال حياتها إلى أن فرّق الموتُ بينهما.

كان قصر النقطة صفر الذي يحرسه حرَسٌ من بسكرة العميان والصمّ والبكم نقطةَ لقائهما وحبّهما وكذلك النقاط الثلاث الأخرى وهي نقاط باجي مختار وتومبكتو وغادس، مع الحلم في أن يُنجبا طفلاً (وقد أنجبت ثلاثة) يبني النقطة الخامسة في الربع الخالي في قلب الصحراء، حيث تسنّى لآدم أن يقبّل حواءَ، أولَ مرةٍ، وهي التي تمنّعت طويلاً قبل أن تستسلم لسحره. وعندما سئلت عن سبب اختيارها لحرّاس عميان وصم وبكم سارعت إلى الرد:

ـ لا أريد أن أجد نفسي يوماً في مواقف من المستحيل أن أسيطر عليها أو أن اقتل بوابيّ الخاصّين. فعندما يكونون عمياناً وصماً فإنهم لا يرون ولا يسمعون شيئاً. وعندما يكونون بكماً فلن يكلّموا أحداً. وهكذا ستكون أسرار قبيلتي في منأى من الألسن السيئة ومن المعتدين. على أية حال، إن النقطة صفر وجزءاً من سكان بيسكرا الأصليين لم يقدّموا لنا منذ القنبلة الكبرى وحتى قبلها إلا نماذج كاملة من هؤلاء العميان والصم والبكم. لقد منحتهم

بيسكرا موهبة الكتمان والصمت وحمّى العمل في ظل أصحاب القرار.

في الماضي، في نهاية القرن التاسع عشر، بُنيت ثكنة النقطة صفر على عجل تلبيةً لحاجات الجيش الفرنسي الضرورية. لقد بُنيت بلا روح وبلا فن معماري على أنقاض قصر الأميرة ضيا القديم، تلك الأميرة العاشقة من الطوارق، والتي أخذت على عاتقها أن تحارب الغزاة وأن تحضر كل ولادة جديدة في قبيلتها أو في قبيلة عشيقها. وقال بعضهم إن جميع السكان رأوا النورَ بين يديها، فهي التي أخرجتهم من بطون أمهاتهم بلا ألم. وكانت تعرف جنس المولود من النظر إلى عيني المرأة الحامل. فقد قيل إن تلك كانت نبوءتها ومعجزتها. وفيما بعد، في أواخر حياتها، وبعد أن أرسلت أبناءها الثلاثة على طريق الربع الخالي في الصحراء، أصبحت إلهة، صارت امرأةً مقدسة يعبدها الجميع حتى أعداؤها من سكان باجي مختار وتومبكتو وغادس.

أتى كثيرون إلى الثكنة لزيارة الأميرة ضيا يصحبهم شيوخٌ عميان سعياً إلى استرداد بصرهم أو الحصول على أولاد دون أن يجرؤوا على الدخول إلى داخل الثكنة ولا حتى على أن يطلبوا الإذن في ذلك. ينظرون إلى المكان الذي يحتله العسكر والمصفّحات والسلاح الثقيل، وبعد سبعة أيام وسبع ليالٍ يغادرون المكان دون أن يطرحوا أيَ سؤال. كل ما يفعلونه هو أن يُلقوا نظرةً بيضاء ومنزلقة كماء جارٍ وأن يشمّوا هذه الرائحة المتضوّعة والغريبة للمسك والعنبر، وأن يستحمّوا في الرمال القديمة التي داعبتها يدا امرأة عاشقة، ثم ينسحبون بصمتٍ كظل هارب من شمسٍ صفراء ومعدنية تخترق غيوماً كثيفة وثقيلة.

وإذ كان الكولونيل يعيش هذا الطقس مرةً واحدة في السنة فإنه لم يفهم قطّ دواعي الأمور. فيما بعد، وبالمصادفة المحضة، فهم مقصد هؤلاء الناس الذين كانوا يأتون مرةً واحدة في السنة، في الربيع، ليُمضوا سبعة أيام وسبع ليالٍ من النظر ليلاً ثم يعودون إلى

أماكن سكنهم. وعندما طلب إلى معاونيه المقرّبين تقديراتهم حول هؤلاء الناس الذين لا يكفّون عن النظر أجابوه بأنهم أناس مسالمون، وأنهم *الناس الذين ينظرون*، الذين يعيشون على القصة الخرافية لأميرتهم ضيا، وهم ما يزالون مؤمنين بأنها ستعود لكي تخرجهم من هذا الصمت القديم الذي طال أمده، وستعيّن أميرةً أخرى بدلاً منها. كان هناكِ كثير من الطامحين إلى هذا المنصب ولكن أحداً لم يصدّقهم ما دامت ضيا لم تُبدِ أية علامة للعودة. على أية حال، ستكون علاماتها الأولى هي اختفاء هذه الثكنة وعودة القصر كما كان في السابق. إنهم ينتظرون تلك الرياح الحارة التي ستأتي دون إنذار مسبق، والتي سوف تأخذ كل شيء عند مرورها، الثكنةَ والبشر. *الناس الذين ينظرون* لا يحملون شيئاً معهم إلا عصيّاً لكي يقتلوا الأفاعي. فقد علّمتهم الأميرة ضيا ألا يستخدموا السلاح أبداً إلا عندما تأمرهم بذلك.

ذات يوم قال لأحد صف ضباطه مستغرباً:

- كل سنة يزدادون كالجراد!

- يا سيدي الكولونيل، لقد استطاعوا أن يحاربوا فراغَ الصحراء وحرارتَها بعددهم غير المحدود. فالرحلة الصعبة تقتل أعداداً كثيرةً منهم. والعطش والجوع والحيوانات المفترسة تبيدهم حتى قبل أن يصلوا إلى هنا، وفي هذه الأثناء ثمة أمواج أخرى تشقّ طريقها في أماكن أخرى.

- ومع ذلك فهذا جنون، لا بدّ أن لديهم قناعة فولاذية لكي يواصلوا هذه الرحلة الطويلة إلى الموت.

- لا يا سيدي، إنهم أناس مقتنعون حتى الموت. فلو أمرتهم تلك الأميرة الأسطورية أن يحرقوا أنفسهم أحياءً لفعلوا ذلك دون أي طيف من أسف. إنهم مقتنعون بأن صوتها قد خمد داخل هذه الثكنة، عندما وضع الفرنسيون أقدامهم أول مرة في هذه الصحراء وهدموا قصرَها دون أن يعرفوا.

- يا لها من قصة مضحكة!

لم يؤمن الكولونيل أمير زوالي بقضية هؤلاء *الناس الذين ينظرون* إلا بعد أن وجد نفسه في مواجهة أحد الاكتشافات، داخل الثكنة نفسها. بعد ذلك أعاد النظر في كل شيء. صارت قصتهم احتمالاً في نظره بعد أن كانت مجرّد اعتقاد مضحك.

يرجع هذا الاكتشاف الآن إلى زمن بعيد، بعيد جداً. عندما كان هؤلاء الناس يقومون بحفر حفرة بمثابة مرحاض لهم، لأنه كان من الواجب تحديث المكان فلم يعد بوسعهم قضاء حاجاتهم الحيوية في صحراء مفتوحة على المخاطر كلها. قال لنفسه إن خطراً يهدّد بالموت قد يسبّب تمرّداً. ومنذ اليوم الذي فقد فيه هؤلاء الناس واحداً منهم بعد أن وخزه سرطانٌ أسود، قرّر أن ينهي قصة هذا المرحاض مرةً واحدةً وإلى الأبد. وإذا لم يكن الموت هو الذي يدفعهم إلى الثورة فإن طريقة الموت بالتحديد هي التي كانت ستفعل ذلك. كان الضحيةُ أكبر أسرته، وأحدثت الوخزة تأثيراً مباشراً إذ سمّرته في مكانه كتمثال لا يستطيع أن يصرخ ولا أن يتحرّك. مات وهو في وضعية البطة. وعندما وجدوه في المساء كان جافاً وقاسياً كغصن شجرة يابس. حتى طبيب الثكنة لم يستطع أن يقوّمه. ووجب عليهم أن يفتحوه عند ركبتيه من العمود الفقري إلى المرفقين والرقبة حتى تمكّنوا من تمديده داخل النعش قبل إرساله إلى أهله لكي يدفنوه.

وبينما كانوا يحفرون الحفرة وجدوا متاهة فيها غُرَف صغيرة رطبة جداً مليئة بمئات الأغراض الصغيرة: أطباق من الفخار وجرة ذات أحزمة فضية وقطع ذهبية، بعضها يحمل صورة نابليون، وبعضها الآخر يحمل صورة الملكة تين هينان وقد سوّدتها الرطوبة، وأسلحة تحمل العلامة نفسها للنجمة الطوارقية في زرقة ما تزال تقاوم. كما وجدوا فسحةً كبيرة بدت كفضاء بلا نهاية وقد حملته عوارض بدأت تتهاوى. رمّموه بالخشب والإسمنت وكيّفوه بحيث يصبح مطبخاً ومكاناً لتخزين الأطعمة وغرفة للعناية وحتى

للراحة عندما يشتد أوار الشمس، أو حتى ملجأ ضد عمليات قصفٍ محتملة.

ووُضعت الأشياء في غرفة الكولونيل بغية تسليمها إلى السلطات المختصة لكي تضعها في المتحف الوطني.

منذ ذلك الحين، امتلكت القلعة الصغيرة كل شيء من القصر في جوف هذه الصحراء. أراد الكولونيل أن يُطلِع *الناس الذين ينظرون* على اكتشافه، لكنه سرعان ما شعر بأنه لا يستطيع أن يتوقّع ردة الفعل والنتائج التي يمكن أن تترتّب على هؤلاء الناس الغامضين. فأعطى الأوامر لجنوده بأن يلفّوا الأمر بالصمت والسرية تحاشياً لأية عواقب، فالاكتشاف يتماشى مع معتقداتهم ولا أحد يستطيع أن يعرف النتائج. وبدا له أن تركَ كنزٍ كهذا بين أيدي أناس لا يتمتّعون بأي نوعٍ من الوعي لهو جنون حقيقي، ففضّل أن يستفيد منه بنفسه.

ـ لن يعرف أحدٌ بذلك، وليكن ما يكون!

ذات يوم، وبعد أن غاب أسبوعاً عاد برفقة أجنبيين ثم دخلوا جميعاً إلى داخل القلعة. حمل الأجنبيان الجرة وبعض الأسلحة والأطباق الفخارية ثم عادا إلى سيارتهما الجيب. وقبل أن يُسأل عمن يكون هذان الرجلان أعلن أنهما أجنبيانِ يعملان لصالح وزارة الثقافة، وأنهما سيدرسان هذا الكنز ويوثّقانه قبل وضعه في المتحف الوطني للآثار القديمة تحت عنوان: كنز *النقطة* صفر.

ومنذ ذلك الحين نسي الجميع قصة كنز الأميرة ضيا.

لم يوقف *الناس الذين ينظرون* توافدهم الربيعي. وكل عام كان الجمع يتزايد مقسّما إلى سبع مجموعات، يرأس كل مجموعة مسلّحةٍ بالعصي رجلٌ يحمل رمحاً شبيهاً بالرماح التي وُجدت تحت الثكنة. نصبوا خياماً بل إن بعضهم بنى بيوتاً من الخشب. وصارت نظراتهم مليئة بالمرارة وحتى بالخيبة. وقال بعضهم إنهم سيبدؤون حرباً شعواء لكي يحرّروا قصر أميرتهم وينصّبوا عليه السلطان أخا، وهو أحد أبناء الأميرة، والناجي بالمصادفة المحضة، لأن التماسات

الناس الذين ينظرون كلها لم تُفضِ إلى شيء. حتى السلطان أخا لم يستقبله في الثكنة إلا صف الضباط، الأمر الذي جعله يستشيط غضباً.

وحتى أيامنا هذه، عندما يصلون إلى المكان تحت قيادة السلطان أخا يمارسون طقساً كاملاً: أضحيات وطقوس وإيماءات كلها تذكّر بقصة الأميرة ضيا التي كان لها قلبان قلبٌ لزوجها وقلبٌ لمشاعرها الإنسانية ولجنونها ولزوجها المخبَّأ ولشعبها الرملي ولأعدائها. لقد حملها موتُ زوجها المفاجئ على أن تنزل تحت الأرض وتبقى تحت قصرها وألا تكلّم شعبها إلا من خلف جدار من الصلصال ومن الرمل طوال سبعة قرون وسبع سنوات بأربعة عشر صوتاً مختلفاً قبل أن تنطفئ عندما تظهر دبّاباتٌ وطائراتٌ أول مرة في الصحراء في بداية القرن العشرين.

صحراء ملآنة بالفراغ وفراغ مليء بالصحراء وبالصمت وبأصوات مظلمة ونقية.

أقرب مدينة تقع على بعد مائتي كيلومتر إلى الجنوب. ومن أجل الوصول إلى أول واحة انطلاقاً من النقطة صفر، أي انطلاقاً من الثكنة، يجب قطع ثلاثمائة كيلومتر باتجاه الشمال. كذلك يجب اتخاذ الاتجاه الصحيح. ولا بدّ أن يكون المرء في غاية الجنون وهو يحاول الهرب عندما يكون سجيناً. الهروب هو الموت الزؤام. وقد حاول ذلك رجلان ممن قاوما ابتزازات الكولونيل، فتركهما يفعلان. وبعد أسبوع جفّا كما لو أن قوةً ما أفرغتهما من الداخل ولما يبتعدا عن الثكنة أكثر من عشرة كيلومترات. لقد دارا طويلاً في الفراغ دون أن يُدركا ذلك قبل أن يُسبلا ذراعيهما ويموتا.

لطالما قال الكولونيل لنفسه إن ما هو رهيب في صحراء النقطة صفر هو أن المرء يظن نفسه ماشياً في حين أن ما يزال في مكانه. إن ذلك هو أكبر ضروب الجنون وأكبر السرابات وأعتى أنواع الأوهام. في الصحراء يتعلّم المرء صبر الثعالب الهرِمة

واحتيالها. وحدهم *الناس الذين ينظرون* قادرون على قراءة الآثار فوق الرمال التي لا تتكلّم ولكن بوسع المرء أن يجعلها تتكلّم إذا كان يمتلك لغة العلامات. والناس الذين ينظرون يمتلكونها في ذاكرتهم.

والكولونيل من هؤلاء لأنه يمتلك صحراء بداخله.

3

في كل حرب ترك الكولونيل أمير زوالي خلفه جزءاً من جسمه المسكين ومن لحمه الذي ما يزال يقاوم. ولم يجعل منه هذا العناء إلا رجلاً مقاوماً مليئاً بحلم يسعى إلى تحقيقه، حلم يقوده إلى القمة، ولا يهمّ بعده ما إذا كان سقوطه قاضياً مريعاً في نهاية حياته. لم يكفّ قط عن القول لجنوده الذين أنهكهم التعب والخوف:

ـ هكذا هي الحياة يا أبنائي، إنها لا تختلف عن المرأة، يجب الإمساك بها أولاً من المنطقة الأكثر هشاشةً وحساسية. ومن لا يفهم مدى امتلاء التاريخ بأحداث العنف والقسوة والحيلة، وكم هو عبثي، فلن يستطيع أن يفهم أن الأمر يعود إليه، إلى اندفاعه الذاتي، في أن يمنح معنًى للتاريخ.

إبّان الحرب العالمية الثانية، قاتل إلى جانب الحلفاء وفَقَد أصابع قدميه كلّها تقريباً. فعندما داس على لغم أحسّ بالموت تحت قدميه، ولو لم يكن ذلك الألزاسي المجنون بنيتشه إلى جانبه، ذلك الرجل الشجاع والذكي الذي أمره بألا يتحرّك حتى يجد له مخرجاً بأقل أضرار ممكنة لكان قد تفتّت. لقد حفَرَ له الألزاسي حفرةً كاملة إلى جانبه قبل أن يدعوه إلى أن ينزلق بكل هدوء وشيئاً فشيئاً إلى أسفل الحفرة دون أن يرفع قدمه عن اللغم. لولا ذلك لكان ميتاً الآن. فالألغام المضادة للأفراد تشوّه، ولكنها تقتل أيضاً، إنه يعرف ذلك تماماً.

وفي أثناء الثورة الوطنية، بعد أن هرب من الجيش الفرنسي،

ووُضع تحت الإدارة المباشرة لسي حواس، لكي يفعل مثله، السيرة نفسها مع الميصاليين، ثم الـ MNA، أعداء الـ FLN اللدودين. لقد عاش مع كل المغامرات الممكنة والمتخيّلة في منطقة بسكرة، عندما كان مع الـ MNA ثم ثار ضد عصابات بلونيس. كان لأمير زوالي ملاحظات كثيرة لكنه لم يقلها قطّ. فهو يرى أن بلونيس كان وغداً. ولم يكن يكفّ عن ترديد هذا الأمر كلما بدا له مكناً. لو لم يكن بلونيس مخبولاً ووغداً لكان قد انتقم لضحايا ميلوزا بطريقة مختلفة عن الذهاب مباشرة إلى أعداء شعبه، ولكان أصبح بطلاً. كانت هذه الحماقة صغيرة جداً بالنسبة لشخص عظيم. فقد كانت قواته التي يقودها سي مفتاح تنشر الرعب في أنحاء الولاية السادسة كلها. وعندما علم سي مفتاح بأن معلّمه قد اغتيل على يد مستشاره السياسي حسين مقري التحق بقوات الـ FLN.

كان أمير زوالي يحدّث نفسه قائلاً: الثقة بالحياة أمر صعب. بحادث عرضي يمكن أن يهتزّ كل شيء. كيف يمكن للناس أن يغيّروا اتجاههم ليجدوا أنفسهم فجأةً على الضفة الأخرى؟ وحتى عندما يريد تصحيح الرمي، يكون الأوان قد فات. الخيانة كالطلقة، ما إن تغادر السبطانة حتى يصبح من المستحيل إعادتها إلى مكانها. والخائن رجل ميت في لحظة الندم نفسها. لا يجد أحداً يسمعه. ومن يستمعون إليه لا يستمعون إلا لإعداد نعش الموت الأبيض.

- يا إلهي، أية حياة جاحدة! إنها تحجب كل شيء بعماها. وعلى التاريخ أن يُخرِج وجوهَه المخبّأة. هل يبقى الخائن طوال الحياة خائناً، وهل يبقى البطل بطلاً إلى الأبد؟ وفي حياتي رأيت أشخاصاً يتّصفون بهذا اللقب أو ذاك وهم عكس ألقابهم. على أية حال إن المنتصر هو من يكتب تاريخه وتاريخ الآخرين. إنه سيد الأقوال جميعاً. وما أراه الآن أمام هذا البحر الفارغ يقلقني. في كل مرة كانت العظمة هي الخاسر الأول. مَن كان على حق ومَن كان على خطأ؟ هل هو ميصالي بجنون سيطرته وبتقاه اللذين سحقا كلّ أولئك الذين سلكوا طريقاً غير طريقه؟ أم الـ FLN بآلتها الجهنمية التي لم

يكن لها يدا ملاك والتي أبادت جموع الـ MNA كلها خلال شهر؟ بين 20 أيلول 1957 و26 تشرين الأول، وأبيد ضباطها الواحدَ تلو الآخر: أحمد سماش وميلودي سعيد وحسين ماروك وعبد الله فيلالي، أحد روّاد الحركة الوطنية، وأحمد بخات وآخرون. وميصالي نفسه كاد أن يُقتل في عام 1959، فقد نجا بفضل تضحية أحد المخلصين له، علي جوادي، وكان ذئباً، فقد وقف بين القاتل وبين رئيسه وتلقّى الطلقات الموجَّهة إلى ميصالي. إن الفكر الوضيع والرغبة التسلّطية هي التي جرّت كل شيء إلى الزوال، وليس العظمة التي فُقدت على أية حال من سجل الطرفين المتحاربين. لقد كان ذلك أقرب إلى صراع الأنواع الصغيرة من أجل البقاء.

في الصحراء، ومع سي حواس الذي كان قد ترك بيع البلح نهائياً، زرعوا الكتائب الأولى للـ ALN وبيسكرا في ولد نايل وجبل آمور في جبال كسور. وفي تلك الآونة جُرح الكولونيل، وكان ما يزال رائداً، في المنطقة التي لم يكن يتوقّعها. الجرح أعمى دائماً. فقد اخترقت إحدى الشظايا حوضَه وأفرغت خصيتيه من سائلهما. أول صورة خطرت بباله قبل أن يفقد وعيه كانت صورة بغل مخصي. لم تشكّل الإصابة خطراً على حياته لكنه فقد كل أمل في الإنجاب أو في أن يكون كالآخرين.

مع مرور الزمن، تعلّق بالحياة وقبِلَ نفسَه وهو لا يكف عن القول:

ـ لا يهم. فالحياة يمكن أن تستمر دون أولاد. ويمكن أن نعطي الحياة معنى آخر غير معنى الإنجاب الذي يشكّل جزءاً من البيولوجيا المشتركة التي لا يستطيع الكائن أن يثبت فيها أياً من قدرات ذكائه.

وبعد ذلك، كرّس جسمه وروحه للعمل العسكري.

في أثناء اضطرابات العام 1963، كُلّف بإسكات تمرّد الجنوب

لأنه كان عارفاً بتلك المنطقة. وبينما كان خارجاً من أحد المقاهي تلقّى رشقةً من مجموعات شعباني، الأمر الذي سبّب كسراً في ضلعه. ولم ينجُ إلا بفضل حارسه الشخصي الذي فقد حياته في الحادث. فيما بعد، تمكّن من الانتقام لنفسه ولحارسه الخاص عندما ألقى القبض على عشرة من أكثر المقرّبين لشعباني فأعدمهم بيده ودفنهم في الصحراء. فكّر: يجب أن يكون المرء قاسياً، وإلا عمّت الفوضى البلاد. وكان يحبّ أن يردّد على مسامع متملّقيه: عندما تكون البلاد في خطر، يجب ألا نطرح الأسئلة، بل يجب أن ننفِّذ، وإلا لكانت النهاية والفناء وتمهيد الطريق لكل المغامرين.

في السنة نفسها، وبعد الأحداث، اضطرّ إلى مواجهة اعتداء مغربي. وكادت قنبلةٌ حارقة أن تودي بحياته ولكنه هرٌّ بسبعة أرواح، خرج سالماً مع بعض النقص في بصره بسبب بعض الغازات الضارة. ولم يذهب ذلك هباءً، فقد ظهرت مكافأته برتبة كولونيل اعترافاً بتضحيته.

وخلال انقلاب عام 1965، استدعي من الجنوب لكي يتحالف مع بومدين ضد بن بيلّا. ففعل ذلك بلا تردد. وأُرسِل إلى عنّابة حيث كان التمرّد قوياً جداً. ففعل ما لم يجرؤ أحدٌ على القيام به: لقد أباد وسَجَنَ جميع المعارضين الشباب الذين كانوا ما يزالون مؤمنين بأسطورة رئيسٍ خارج من الثورة العظيمة. حتى المرأة التي ألقت عليه طاولة قديمة في ساحة لوكور، أنزلها من الطابق الرابع كيمامة مسكينة لا تعرف كيف تتفادى الموتَ القادم من صياد أعمتْه رغبةُ الموت. فانحنت على شرفتها وهي ترتدي ثوباً أبيض كنورسة هرمة أنهت طيرانها. لقد رأت المجزرة كلها فلم تستطع أن تكبت صرخة الدم والموت، فصارت تعوي كذئب:

ـ يا الحقارين، يا الحركة، يا الخونة، يا الميزيرية الكحلاء ياالقتّالين! لقد أذللتمونا، فليذلّكم الله بالطريقة الأكثر انحطاطاً وظلماً.

أول ما لاحظه عندما رفع رأسه هو أنها كانت ترتدي ثياباً بيضاء، دائماً هذا البياض الذي يضايقه ويطيِّر صوابَه. أطلق طلقة تحذير بجانبها، وبدلاً من أن تخيفها زادت من هياجها:

ـ يا لك من مسكين. أنتَ لن تخيفني أبداً. لقد حاول أسيادك ذلك من قبلك بالتعذيب وماء الصابون.

ثم ضربته بأول شيء كان في متناول يدها، طاولة قديمة، ثقيلة جداً، سقطت على أم رأسه فكلّفته ست قُطَب ونصف نهار في المشفى وموتاً على ظهره. قال لنفسه: لا تأنيب للضمير، فعندما تنشب الحرب إما أن ندافع عن أنفسنا أو نفطس كالكلاب.

الإخفاق الوحيد في حياته، بينما كان يريد أن يعود إلى مكانه، هزّت الأحداث الـ MDN (وزارة الدفاع الوطني)، عندما قرر طاهر الزبيري أن يضع حداً لحياة بومدين. وكانت فرصته الكبرى في أن يرى رتبته تتغيّر مرةً وإلى الأبد. ومع ذلك فهو يتذكّر جيداً ذلك النهار الرمادي الواقع في 14 كانون الأول 1967. وما كان مجرّد إشاعة بسيطة حول انقلابٍ بالقوة ما يزال في طور الإعداد بدقة على يدي قادة الأركان صار واقعاً. ولكن كانت الحرب بحاجة إلى رجلٍ محرّك، كريم وقادر على التوفيق بين جميع الاختلافات، رجلٍ مجنون إلى درجة أنه يذهب إلى أبعد مما هو معقول. كان سعيد عبيد الرجل الوحيد القادر على القيام بفعلٍ كهذا، قد اتّخذ مكانه سابقاً في لقائه العنيف مع بومدين، حيث أُجبِر على ترك منصبه في البليدة بوصفه قائداً للمنطقة العسكرية الأولى لكي يلبي الاستدعاء. كل شيء كان قد لُعب في تلك اللحظة وكان على الزبيري أن يوقف مسيرته الدامية نحو الجزائر. لم يكن لها معنى إلا بالنسبة إلى قائده عمار ملاح الواثق في رتل مدرّعاته الذي أباده الطيران على أبواب الجزائر في العفرون. في الجزائر إذا لم يحصل المرء على موافقة المنطقة العسكرية الأولى، فلا حاجة له بأن يحاول. ما يزال يذكر ذلك المساء الجليدي جيداً، عندما ركب طيارة بشار لكي ينضم إلى

بقية ضباط البلاد ملبيا نداء بومدين. ما يزال كلام هذا الرجل يرنّ في ذاكرته متحدياً غبار الزمان والجراح الكبيرة: *قبل أن تتحرّكوا، تأكدوا من أن الجيش كله موافق، فإذا كان جزء منه معارضاً لكم سوف تفشلوا، ثم إذا كنتم تريدون القيام بانقلاب فلا تسعوا إلى سرد تاريخي، لقد فعلنا ذلك في العام 1962 وأخطأنا*. وعندما صفّق الضباط لجملة الرئيس الأخيرة: *«إني أقول لكم منذ الآن، لن يكون هناك انقلاب قبل عشرين سنة»*، كان أمير زوالي المعزول في زاويته في قصر المؤتمرات في نادي الصنوبر يبكي سعيد عبيد، الرجل الشجاع والكريم الذي اغتالته *ظلال* ما تزال تتنفّس في لاشعورنا. أبت عظَمَةُ عبيد إلا أن ينهي حياته بمأساة. لقد عاش تمزّقاً هائلاً في ذلك الخميس الواقع في 14 كانون الأول ولم يؤيّد اللجوء إلى القوة التي كان يظن أنه يستطيع تجنّبها. كان جزءاً من المؤامرة لكنه لم يكن مؤمناً بأن طاهر الزبيري قادر على قيادة العملية وتنسيقها.

قصة أخرى يصعب هضمها: صمته.

في بداية السبعينيات كاد أن يموت في حرب عبثية لم يفهم معناها قطّ. بسبب اللفحة العنيفة جداً لقنبلة بقي في غيبوبة أكثر من شهر. وعندما استيقظ كان الشيء الأول الذي قام به هو عودته إلى ثكنته عند أهله. كانت معركة أمغالا في الصحراء الغربية قاسية جداً، وكادت أن تكون مذلّةً جداً لو أنه بقي عند حدود الهزيمة المقنّعة. اضطرّ إلى الرد بعد أن فقد مجموعةً من جنوده الذين كانت مهمّتهم العناية بالجرحى حين بوغتوا، وجد نفسه خارج الحدود نتيجة خطأ. أُبيدوا كأرانب بلا أية خبرة. قال لنفسه إنها قصة مقيتة. نحن مشهورون بأننا الجيش الأقوى في المنطقة، وها نحن قد وقعنا في فخ نصبناه بأنفسنا. كان يجب علينا أن نفعل شيئاً ما لكي نبيّن لجيراننا أننا نستطيع أن نؤذي إذا ما أردنا ذلك. كان على مقربة منا ثكنة مغربية تحوي ما يقارب المئة جندي. وكانوا متروكين لقدرهم تماماً. وبعد مناوشة خاطفة استسلموا لنا، فأحرقت الثكنة وأسِر الجنود وانتهى الحادث.

هكذا هي الحرب: العين بالعين والسن بالسن. ومن يطلب الهدنة أولاً يَكُن الحلقةَ الأضعف في الحروب الممكنة جميعها.

قال لنفسه: هم الذين رفعوا الرايات البيضاء أولاً، وليس أنا.

وبعد أن عاد، جريحاً، إلى قاعدة الجنوب على متن طائرة استؤجرت خصّيصاً لهذه المناسبة رُقّي إلى رتبة كولونيل.

ساعد جميع الرؤساء الذين عرفتهم البلاد وأَحَبَّهم جميعاً، وعملياً، حتى لو حاول كلٌ منهم أن يمحو الآخر، لم يكن هذا ليزعجه أبداً.

آخر مرة استُدعي فيها مع كتيبة كبيرة من الجنوب، كانت في العام 1988، وذلك لكي يُخمد أطفال أكتوبر الذين كانوا يسعون إلى حلم اختُرع لهم بخطاب مليء بالأكاذيب. كان واثقاً من أن الشعب الجزائري حكيم جداً وأن ما يحصل ليس إلا مؤامرة قادتها قوى أجنبية. كان يجب وأدُ التمرّد، مهما كلّف الأمر، قبل أن يصبح الوضعُ خارجَ السيطرة وتعمّ الفوضى. وكانت كتيبتُه في المناطق الأكثر سخونة في باب الواد وباش ـ جراح والحراش.

تذكّر كثيراً من التفاصيل التي فاجأته. مثلاً، كان يتوقع أن يواجه محترفين في الحرب، مدرَّبين في معسكرات إسرائيلية، ومرتزقة أوروبيين وأمريكان، لكن الذين واجههم لم يكونوا إلا تلامذة وأطفالاً ظنوا أنهم يلعبون. فخلال الاستجواب، وكان الكولونيل حاضراً يستمع ويقدّر ويسجّل ملاحظاته، أجاب أحدهم، وكان رفيعاً كسلك حديد، على الأسئلة التي طُرحت عليه:

ـ اسم أبويك؟

ـ ليس لدي أبوان.

ـ يعني؟

ـ أنا لا أعرفهما.

ـ تخوز بيا، هل تضحك عليّ؟

- لا يا سيدي أقسم برؤوس جميع الأولياء بأني لا أعرفهما.

- أنتَ في المدرسة؟

- لا.

- لماذا؟

- لقد طُردت، لا أحد يريدني لأني مُثيرٌ للاضطرابات.

- هل أنت نادم؟

- في الحقيقة لا، فأنا لم أُخلق من أجل الدراسة. لذا يلزمني بيت وحدٌ أدنى من الاستقرار.

- لماذا؟ ألا تسكن في مكان معين؟

- لا يا سيدي، لا أسكن في أي مكان.

- أين تمضي لياليك إذن؟

- في أي مكان، حيث هناك حرارة، في الجزائر.

- أين بالضبط؟ أريد أن أعرف المكان.

- على المزابل، وأحياناً أنام عند المداخن الحارة لبعض الأفران، وخاصة فرن عبان رمضان الذي أحبّه كثيراً. وفي الحدائق العامة والمحطات، وأحياناً، عندما أجد ثياباً جديدة ومالاً، أُمضي بعض الليالي في المطار.

- هل لديك فكرة عن الأماكن التي تمضي لياليك فيها؟

- لم أفهم، قلتُ لكَ إني أمضي بعض لياليّ في عبان...

- بالضبط، من هو هذا الشخص الذي تعذبه كل ليلة بتجاهلك؟

- ولكن يا سيدي أنا لم أخطئ مع أحد. عبان هو اسم شارع أو... ربما شهيد اغتيل أو قُتل خلال الثورة.

- قُتل، وتقولها وكأنه لص!

- لا يا سيدي، ما أزال أذكر، في المدرسة قيل لنا إنه سقط في

ساحة الشرف فحفظناها عن ظهر قلب. وفيما بعد روى لنا أحد الأشخاص من خارج المدرسة بأنه مجاهد قُتل على يدي مجاهدين آخرين ضمن عملية تصفية حساب. وقال إنه سيد عظيم كان مختلفاً عن الذين يحكموننا اليوم. ولكن يا سيدي، كل هذا كله لا يعنيني أبداً.

ـ هذا لا يعنيك؟ إنه مجاهد تقوم أنتَ الآن بتدمير حلمه.

ـ أنا لا أدمّر حلم أحد، أنا عاجز عن فعل ذلك. على أية حال أنا لا أعرف ماذا يعني أن يحلم الإنسان. أقسم لكَ يا سيدي، أنا لم أفهم أبداً ما يرويه أصدقائي. لا أعرف لماذا، ربما أنا مريض.

ـ من المحتمل أنك تعرف أشياء كثيرة وتخفيها عنا. مَن القوة التي تدعمك؟ من الشخص الذي حدّثك عن أبان؟

ـ ليست لدي قوة يا سيدي. كما ترى، أنا رفيع جداً كسلك. لم آكل منذ أن صرت عندكم، لستُ أدري أين. وبالنسبة للشخص فأنا لا أتذكره أبداً. قيل لي ذلك هكذا. وبما أن لدي ذاكرة لكل ما يناقض الكذب فهذا يلصق مباشرة. إني أتذكر كل التفاصيل الصغيرة في الحياة، وخاصة تلك التي أسيء لي فيها.

ـ لا تتخابث. إنها لعبة قديمة. أنت منظَّم، في أي حزب أو مجموعة؟ لأننا نعرف جيداً أنكَ تعمل تحت إدارة أشخاص آخرين يقولون لكَ أن تفعل ما لا تريد أن تفعله.

ـ أقسم لكم بأنه لا يوجد أحد. كنتُ ما أزال نائماً في زاوية الشارع عندما سمعتُ صوتاً يشبه صوت الهزّة الأرضية أو صوت بحرٍ هائج، ثم رأيتُ أناساً يكسّرون ففعلتُ مثلهم. وأعترف أني كسرت زجاج شركة طيران الجزائر والـ CNAN وبعض حواسيبهم، لأني لطالما حلمتُ بأن أسافر إلى أبعد ما يمكن وبأن أغادر هذه البلاد ولكني لم أستطع أبداً أن أفعل. ها قد قلتُ لكَ كل شيء ياسيدي، وأقسم بأني قلتُ الحقيقة، كل الحقيقة.

وقدّموا له نحوَ عشرة أشخاص من اللصوص والمجرمين وأساتذة الجامعات والفنانين: وكتّاباً ورجال مسرح ورسّامين،

كلهم اعتُقلوا عشية الأحداث من باب الاحتياط، فأنكر لأنه لم يتعرّف إلى أحد منهم، وبدا له ذلك بعيداً جداً لدرجة أنه ظن نفسه في عالم آخر.

وحتى بعد أن أخضعوه لجلسات صغيرة من التعذيب لكي ينشّطوا ذاكرته، بكمّاشة، أصرّ على ألا يقول شيئاً أو على أن يكرّر ما سبق أن قاله في الاستجواب.

وعندما غادر المكان، جعلوه يوقّع على ورقة، ولأنه كان طفلاً لم يستطع أن يصمت:

ـ ولماذا يجب أن أوقّع هذه الورقة يا سيدي؟

ـ لئلا تفعل ذلك ثانيةً.

ـ لا أعرف إن كنتُ سأعاود ذلك.

ـ وستوقّع على أن لديكَ بعض التأييد للشيوعيين.

ـ ومَن هم هؤلاء السادة؟

ـ صانعو اضطرابات، وشياطين حمر.

ـ عظيم يا سيدي، وأنا أيضاً، عندما كنتُ أقوم ببعض المشاغبات كانت جدتي تصفني بأنني شيطان أحمر. سوف أوقّع بإصبعي، فهذا أسهل من الكتابة لأني نسيتُ ممارستها.

قصة طويلة والتباس بلا نهاية. ثم...

لا شيء، أكرر، لا شيء.

عاد الكولونيل إلى كرسيّه ونقل السلحفاة نجاة إلى المطبخ، قرب أوراق الخس: هيا يا جميلتي تغذّي! ثم جلس بصعوبة بسبب بواسيره التي لا يحلو لها أن تظهر إلى في الأوقات غير المناسبة. أمعن النظر إلى كلبه غزال الذي ما يزال مريضاً.

لا شيء يا صديقي

تقاعد مرير

حياة أمير في الصحراء.

وأخيراً حياة كلب، كلب حقيقي. ورم في الرأس وبواسير في المكان الذي لا أستطيع أن أسمّيه. أي أني مريض من رأسي حتى ثقب شرجي، أية مصيبة!

حياة لا لون لها ولا رائحة.

كان يجب أن أعود إلى الشمال مهما كلّف الأمر ونهائياً، لأن الجنوب لم يعد له قيمة، وأن أحاول استعادة فيللتي في بن عكنون التي أجّرتها منذ سنوات لشركة ميشلان التي تستعد لمغادرة البلاد من تلقاء نفسها بسبب التهديدات التي تتلقّاها يومياً، وهي مقتنعة تماماً بأن من يهدّدونها ليسوا إلا مافيا مقنّعة مرتبطين بشركات أخرى وهمية في طور البحث لنفسها عن مكان في بلاد كل شيء فيها مفقود حتى الحب.

كل ما كان يهمّني في القصة هو أن أبقى قريباً من أملاكي قبل أن تلتهمها نيران المجانين بعد عدة أشهر.

في الواقع، إن حالتي تجعل مني بطلاً تراجيدياً. لقد أمضيتُ حياتي كلها في خدمة بلادي التي لم تبذل ولو جهداً لكي تقيني من الموت أو من التهديد. لولا تدخّل صديق قديم، مجاهد قديم ومسؤول يسمّى مدير المنظّمة القوية لعائلة الثوريين الدائمين (وكأننا نحن متآمرون) كان كل شيء سينتهي في عملية قطع رأس مؤكدة، حتى لو أن الحرب ضد مصالحي قد توقّفت منذ أن غيّرتُ نشاطي ومنذ أن استسلمتُ للموت، لأنهم يريدون الموت بدلاً من الحياة. الاختصاصي الأكبر في شمال أفريقيا كلها في النشاطات الجنائزية في الطبقات كافة، من شاهدة القبر المصنوعة من الحوار إلى الشاهدة المصنوعة من الرخام الإيطالي حيث تُنقَش عليها الأسماء والتفصيلات الأخرى. لم يكن الشاليه كما كنتُ أريده، ولكن لا يهم. المهم هو أني هنا بعد كل هذه الحياة المغامِرة. الفنانة، الخرساء، تؤثّر فيّ، ولا بد أن وجودي سيطمئنها ويلهمها. ومن المؤكّد أن التمثال الحجري الذي تنفّذه الآن سيكون مكرَّساً لي. كولونيل

المعارك الكبرى. أي تعليق جميل! سأكون أول من يسحب ستارة التدشين. في النهاية، يجب على المرء ألا يستعجل الزمن. فالأشياء الجميلة تأتي من تلقاء ذاتها. هذه السيدة الخرساء لا مثيل لها. في مكان ما، أشتهيها، ولكني أخاف على نفسي. ذات يوم سأروي لها قصة سارة بريكسي التي ماتت بسبب حب لم أستطع أن أتحكّم فيه. أنا وحدي أعرف جيداً ما دلالة موتٍ كهذا يرفض أن يقول اسمه: الاغتيال.

* * *

لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

ثم انزلق بهدوء على كرسيّه وهو يثبّت نظره على وجه سارة بريكسي وعلى نهديها المليئين بالنداءات وبالرغبة، وعلى الصور القديمة لمصانعه ومشاريعه، تلك التي أثمرت وتلك التي بقيت في الحالة الجنينية، مع ماكيتات جميلة وصور تعطي الانطباع بأنها موجودة حقاً. نظر إليها بإمعان مشروعاً تلو الآخر، من مصنع بالونات الأطفال حتى معمل الرخام الجنائزي، لأن الموت غدا الثابت الوطني الوحيد.

وأطلق زفرة مرارة طويلة.

ـ حياة كلبة، إنها الخراب. في نهاية المطاف هي لا تساوي شيئاً، ولكن هذا لا يمنع من الإبقاء عليها، حتى لو كان ذلك من أجل تحدّي أبناء القحبة هؤلاء الذين يظنون أنفسهم فوق الناس جميعاً.

وها أنذا عجوز ككلبي، ولكنني صغيرٌ جداً على الموت.

4

الكولونيل العظيم أمير زوالي الذي كان يتمنّى عبثاً أن يصبح عميداً اضطرّ أخيراً إلى قبول رتبة كولونيل بوصفها رتبة نهائية. مَوَران حلمه القديم اختفى عند آخر كيلومتر من مسيرته. وفي كل مرة كان ينظر إلى السلحفاة نجاة وهي تقطع الألف خطوة بين المطبخ وغرفة النوم لا يستطيع الامتناع عن التأرجح داخل هذه الغيمة البنفسجية القديمة التي كانت تمتزج بسماء زرقاء مليئة بالوعود والأحلام.

لطالما نصحونا بعدم قسر الأمور، وبأن نتخذ السلحفاة مثلاً: ببطء ولكن بصورة أكيدة. ولكن عبثاً. الجواب في مكان آخر. أنا مقتنع كلياً بأن هناك لحظات في الحياة نراها بطريقة سيئة أو لا نراها أبداً بسبب سرعتها في المرور. وهذه اللحظات هي التي تحدّد مصيرنا في نهاية مسيرتنا.

ومع ذلك كان يرى أن هذا هو علّة وجوده. وعدم الوصول كان مرادفاً للكارثة. وكونه جنرالاً لم يكن يعني له إلا أن يدفع بغريزة المحارب إلى أقصى مداها، وأن يقبل الذهابَ إلى قمة المغامرة والجرأة المدمِّرة.

كان مَثَله الأعلى أن يبلغ العظمة العليا.

وأن يشكل جزءاً من العرق الجديد من غير القابلين للمس يعني عدم السقوط بين يدي الرعاع الذين لا يريد أن ينتمي إليهم.

قال لنفسه:

ـ إن التطلّع إلى شعور أقصى ليس إلا التطلّع إلى القوة، وهذا ما هو أكثر حميميةً وعمقاً في حياة حالم. وصفة مخيف تشكّل جزءاً من العظمة.

فجأةً، وعندما فتح عينيه متأخراً بعض الشيء في حياته وجد كل شيء قد تحوّل إلى دخان. والحلم نفسه تهاوى وانزلق إلى حفرة لا قرار لها لئلا يعود. والشاب الهولندي الطائر المسكين لن يرى الأرض أبداً ولا سنتا.

هذا هو عَود الفراغ الأبدي.

ذات صباحٍ جميل وجد الكولونيل نفسه بلا شيء، وكأنه ولد للتو في صحراءٍ بلا تخوم. لقد جمع ثروة لا مثيل لها، أولاً من أبيه الذي كان أفضل أبناء مرشدٍ روحي يدير زاوية *للدرقاوة* وقائداً كبير لمنطقة باستوس بأكملها. وكان أحد أكبر القنّاصة الجزائريين الملقّبين الـ تركو المنتمين إلى الجيش الفرنسي. وقال بعضهم عنه إنه استطاع، بمفرده، بخمس طلقات متعاقبة أن يوقف فوجاً بروسياً. وبعد أن كُسرت ذراعه اليمنى أطلق أربع طلقات أخرى ثم هوى مغربلاً بالطلقات. وقال كثيرٌ من الناس أيضاً إن نصباً أُقيم على ذكراه في شانتو وهي قرية صغير في اللواريه، على بعد عدة كيلومترات من أورليان، في المكان الذي قُتل فيه في الخامس من تشرين الأول عام 1870. ثم كانت هناك حروب لا يحتفظ منها إلا بذكرى الرواتب التي كان يجبيها كل ثلاثة أشهر. كان يتملّكه بعضُ الفخر لأنه يشعر بأنه ابن أبيه.

هذا العالم صعب وخائن ولا يُطاق. يجب أن يمتلك الإنسان سلاح السخرية وسلاح القوة لكي يستطيع أن يحاربه حتى الموت. لقد سلبني كل شيء. إنه عالم من السرابات والتقريبات تحت كل العلاقات، هذا العالم الشائك والمغري والحاد والدقيق، من المؤكد أنه محميّ ضد الفضول غير المتكتّم للمتفرّجين الكثيفين. نحن محشورون في شبكة ضيقة، في قميص من الواجبات لا نستطيع أن

نتحلّل منه. إن قسوة قدرنا ترهقنا. وسيكون ضدنا دائماً الأغبياء والمظاهر.

افتخاره الوطني موجود دائماً في اللحظات التي يصعب تحمّلها، عندما تصبح مقاومة الإغواءات المختلفة قاسية جداً، بل مستحيلةً. قال بصوت عال وعلى الملأ: لا، أنا شخص لا يمكن شراؤه بسهولة. ولكن في المساء كان في سيارته اللاندروفر يشق الصحراء من مزرعة إلى مزرعة ويفرض نسبة مئوية على جميع زعماء العصابات المنظّمين جداً في المنطقة. إنهم يعرفونه معرفة جيدة جداً ويعقدون معه أكبر الصفقات من أجل مرور الأغذية ذات الضرورة الكبيرة وتوجيهها المحتمل نحو أفريقيا السوداء وليبيا الواقعة تحت الحظر والمغرب المعرَّضة للمجاعة والحاجة الحيوية، ولكن بنبرة وطنية لا تضر بتاريخه أبداً، إذ كانوا يقولون له:

ـ يا سيدي الكولونيل، يجب أن تلعب بلادُنا دوراً إنسانياً حقيقياً في المنطقة. لا يمكننا أن نترك الآخرين يموتون جوعاً في حين أن بلادنا تنعم بفائض يمكن أن نمرّره إليهم.

إنه سعيد جداً لأنهم يجنّبونه القلق والبحث عن أعذار، وبدوره كان يردّ عليهم بفخر:

ـ هذه المرة سوف أغمض عيني لأن الهدف النهائي إنساني، ولأن ذلك لا يسيء لكرامة بلادنا، ولكن احترسوا! فعندما يبدأ الأمر بتجاوز الحدود فلن أسامحكم أبداً.

في قرارة نفسه، إنه يقرّ بجسامة الخطأ الذي يرتكبه عندما يفتح الطريق للمهرّبين لتوجيه المنتجات إلى خارج الحدود، ولكنه يقول لنفسه دائماً: لا يهم، لأن أي إله لم يمت بسبب أخطائنا.

ما من إله مات بسبب أخطائنا، تلك هي العبارة الأسطورية القادرة على تحرير المبادرات كلها.

هكذا عمل طوال حياته في صحراء التتار هذه.

في معظم الأحيان كان يقف خلف شبكات تهريب أنواع المواد كافة، حتى تهريب أسلاك الهاتف النحاسي المنتزَع عن الأعمدة. وكان يجادل براحة ضمير عالية عندما يجد ما يقنعه:

- لحسن الحظ أن الجزائر بلاد في طور التقدم الكبير وتسلك طريق التحول الجذري نحو الاتصال بالقمر الصناعي حيث لا يعود هناك من مكان لهذه الأسلاك النحاسية القديمة التي ما تزال تحتفظ ببعض القيمة في الدول المجاورة التي ما تزال تعاني من تخلّف كبير بالنسبة إلى بلادنا من ناحية الاتصالات اللاسلكية. إن سرقة كهذه تسرّع من اختفاء منظومة الأسلاك. ولو كان وضع البلاد غير ذلك لأعدمتهم في أمكنتهم لإضرارهم بالمصلحة الوطنية.

حتى في سوق التمور، كان يأخذ الكولونيل نصيبه دائماً من كل الإنتاج الذي يمر عبر شبكات الحدود دون دفع رسوم جمركية. على أية حال لا يحكّ ظهرك مثل ظفرك.

كل الأموال التي كسبها الكولونيل أمير زوالي وضعها في تجارة في شمال البلاد. لقد أصابته حمى المصانع منذ اختفاء الاقتصاد الموجَّه الذي أوجده الرئيس الكولونيل بومدين الذي كان يغلق الطريق أمام المبادرات الخاصة. لم يستثمر شيئاً في الجنوب، وفكّر في البداية بعدة مشاريع زراعية لكنَّ ذلك لم يَرُقْ له كثيراً، بل إنه رفض الاقتراح الذي قدّمه له مهندس زراعي شاب بالعمل في الأرض واستصلاحها. مشروع كبير كان من الممكن أن يكون له مردودٌ كبيرٌ على الجنوب بأسره حيث أن كل متر مستصلح له قيمة استراتيجية لا مثيل لها. لكن الكولونيل كان يرى الأمور بصورة مختلفة. فهو يعرف معرفة حقةً أن وطنية هؤلاء أو أولئك لم تستطع منع السد الأخضر، الذي بني لإيقاف امتداد الصحراء، من أن يصبح سداً جافاً وبلا حياة، مع أشجار قزمة لا تكبر أبداً. إن حمى المصانع هي التي كانت تثير لعابه مثله مثل الآخرين الذين يراهم يصعدون صعوداً مدوّخاً في حين أنهم كانوا أقل من لاشيء.

ولكن أية مصانع؟ كيف يمكن تصور نشاط حيث قد لا يكون هناك من منافسين محتملين وتقديم خدمة للبلاد؟

بعد نصائح عديدة ركّز اختياره الذي لم يقله لأحد: ألعاب الأطفال. ما هي الألعاب الأكثر دخلاً والأقل كلفةً لأن من الواجب علينا دائماً أن نضع مصالحَ البلاد والقوة الشرائية للفقراء في حسباننا. النبّولات! كيف لم يفكّر بها منذ البداية؟ حتى الآن، الصين هي التي ترسل هذه البالونات البلاستيكية، في حين أن بلادنا منتجة لهذه المادة الأولية. خلال أقل من سنة بُني المصنع في ضاحية مدينة الجزائر، ولم يكن ينتج إلا بالونات لها ثلاثة ألوان العلم الوطني: الأبيض والأخضر والأحمر. لكن البيع لم يكن يتناسب مع ما كان يعرضه، ولم يكن الربح كما كان يشتهي لأن رقم الأعمال، بعد غبطة البدايات، بدأ يتراجع بعد أن أنشأ آخرون ثلاثة مصانع من النوع نفسه. في البداية أراد أن يقاضيهم، ولكنه ما لبث أن عدل عن عزمه بعد أن اكتشف أن مديري هذه المصانع يغطّيهم أناسٌ أقوى منه، ولكنه بقي مقتنعاً بأنهم سرقوا مشروعه. ولكنهم في النهاية أناس مثله تملّكهم مرضُ حب الوطن والرغبةُ الجامحة في أن يروا قصة اليابان تتكرّر في الجزائر.

ذات ظهيرة، وبينما كان في البانغالو المكيَّف في ثكنة تامنغو الكبرى في النقطة صفر، وهو يمسك بيده نبّولة ويتسلّى بنفخها وبتنفيسها، خطرت بباله فكرةٌ عبقرية عَبَرت رأسَه كشعاعٍ قوي جداً. إنها لحظات عظيمة لا يستطيع فيها عقلٌ مرفَّهٌ إلا أنْ يفكّر بطريقة جيدة. قفز في مكانه وهو يصرخ: هورا! أوريكا! أوريكا! ياللروعة! هذه روح وطنية لا لبس فيها. ولن يعارضني أحد. ولن يتجرّأ أحدٌ على منافستي. المشاريع الكبرى تبدأ دائماً بأفكار صغيرة. وها هي واحدة منها، يا إلهي!

اتصل بمستشاره المالي ومحاميه، وكان شخصاً من العائلة أصله من باستوس؛ وهو أحد الأشخاص النادرين الذين يثقون دائماً بالكولونيل وبردّات أفعاله، ولم يكن يكفّ عن القول على مسامعه:

ـ يا سيدي الكولونيل، أنتَ من نوع نادر. أنت الشخص الوحيد الذي يعرف كيف يشغّل طاحونةً قديمة عاجزة عن التشغيل. وقدرتك الإبداعية ليس لها مثيل.

وأعدّ الاثنان فكرة مصنع واقيات على أنقاض مصنع البالونات، مستخدمين مخزونات البلاستيك الباقية من النشاط السابق.

ـ بهذه الواقيات نحمي الأمة من الغرق البشري. وهذا ما سيبقى للتاريخ، أما الباقي فسيذهب أدراج الرياح.

تمَّ شراءُ جزءٍ من المادة الأولية من تجار قطاع خاص يعملون في الاستيراد والتصدير، قبل أن يرتبط مباشرةً بمورّد جزائري كان يُخرج من مصانع أرزرو المادة الأولية المُعَدّة للتصدير لكي يبيعها بأسعار تنافسية جداً. ولم يخلّ بعقوده قط. وسرعان ما بدأ المصنعُ الإنتاج، وإن عانى المستخدِمون الأوائل للواقيات، وهم ليسوا أكثر من شركائه، من تهيّج في أعضائهم. ولكن فيما بعد قام بتنعيم المنتَج تبعاً للمواصفات العالمية، لأنه كان ينوي التصدير هو أيضاً. كان الكولونيل مقتنعاً بأن ما يصنعه قد يصدم العقول التقليدية، ولكن ما يصنعه يخدم المصلحة الوطنية أولاً. ولم يكن يكف عن القول لأصدقائه الذين رأوا أن فكرته خطيرةٌ ومجنونة: *الواقي هو الحياة*.

ـ ما تفعله ضرب من الجنون يا أمير، وسيعاديك الناسُ جميعاً.

ـ ليس الجيل الجديد. إنه يعرف ذلك جيداً جداً لأنه يتفرّج طوال الوقت على المحطات الفضائية ويبذل كل جهده لإيجاد رمز الـ canal plus والتقاط صورها التي تجعلهم يحلمون دون أن يدفعوا شيئاً. لقد توصّلوا إلى كشف الرموز المستخدَمة كلها، وبفضل الواقيات ستكسب البلاد الملايين من القطع الأجنبي. لقد انتهى الاستيراد. وحتى المادة الأولية صارت وطنية بصورة كلية. ولقد انتهى الانفجار السكاني. وستجد كل الجمعيات التي تُعنى بمسألة تحديد النسل سلاحاً فعّالاً في واقيات أمير زوالي. وبما أن هذه

البلاد قد استهلكت حظوظها جميعا، فلنقفز قفزة شرف ولننقذ إلهَنا بشياطيننا كلها.

بل إنه أدار باسم نسائي مستعار ووهمي جمعيةً نسوية تسمى: الجمعية الوطنية لتحديد النسل (ANPLN)، والتي كان هدفها المخفي ترويج واقيات زينة *(مارِسوا الحب بلا همّ، فعند المرأة، أوجدنا لكم بيوتاً لتسكنوها. شركاؤكم ملككم، فأتوا حرثكم أنى شئتم)* مصنوعة *وفق معايير عالمية وصحية. واقيات زينة علامة مسجّلة، ناعمة، لإحساس أفضل، مع خزّان، وهي ذات سطح أملس. السماكة الوسطية نحو 0.090 مم. تشريحية، والأمان مرتبط براحة مثلى. واقي زينة مصمم فقط للعلاقات المهبلية. أما بالنسبة للعلاقات الأخرى (المحرّمة في ديننا ولكن اللواطيين كانوا يُمارَسونها منذ البداية في دولة الإسلام)، فإن واقياً آخر نزل السوق، الواقي لواط، وهو أكثر سماكة وبلا خزان، يمكن أن يُستخدم للعلاقات الجنسية المثلية. ومن أجل أمانكم فإن كلا الواقيين زينة ولواط مراقبَين إلكترونياً، ومن أجل راحتكم. إنه مزيّت بالسوبرسيتول وهو زيت من أصل سيليكوني. كل الواقيات، زينة أو لواط يبلغ طولها وسطياً حوالي 180 مم قطرها 90 مم، آخذاً بالحسبان المعيار العالمي والوطني الذي يتطلّب طولاً وسماكةً أكثر بقليل.*

كثير من الجمعيات الخيرية حصلت على طرود هدايا من واقيات ANPLN لحثّها على مضاعفة طلبياتها، الأمر الذي لم يتأخر في إيتاء ثمره.

من سوء حظ الكولونيل، لم يكفّ السكان عن التزايد بسرعة، الأمر الذي أثار حفيظته. كيف يرفض هذا الشعب جهد العلم؟ حتى لو كان البيع جيداً، فقد تبينّ أن الشبّان غير المتزوّجين هم الذين يلجؤون إلى متع واقيات زينة ولواط؛ وأنه في بلكور، حيث مصنع بالونات الأطفال ما زال يحتفظ باسمه الأول، وصف هذا الاختراع بأنه اختراع شيطاني غربي لهدم الأسرة المسلمة من الداخل. هذا حثٌّ *للشيطان على الإغواء*. ولكن المبيعات تضاعفت بالفعل بعد ذلك،

كما لو أن المسجد فتح أعين آلاف الناس الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الواقيات، هذا الدواء الإعجازي الذي يسمح بممارسة الحب دون أن يخاف أحدٌ من أن يجعل شريكته حاملاً. كان الكولونيل واثقاً من أن الناس في المسجد يلعنونه في النهار، ولكن ما إن يحل المساء حتى يُرسَل الأطفال إلى الصيدلية الأقرب لكي يشتروا نبّولات *للكبار*، كما كان يسمّيها الجميع.

بعد سنتين من العمل الدؤوب وبحد أدنى من العمال المؤهّلين، غُطّيت كل تكاليف إعادة بناء المصنع. وفي السنة الثالثة تضاعف البيع وبلغت الأرباح مستواها الأعلى.

ذات صباح، وهو يستيقظ في صحراء تافهة اكتشف مقدار الأضرار. لقد تحوّل مشروع حياته كله إلى رماد. فقد أحرق مجهولون المصنع. بل إن بعض الناس قالوا إن هذا من فعل شخص كان يعرف المصنع جيداً، مجرّماً في الوقت نفسه بعض العاملين الذي انصاعوا تحت التهديد لطلبات الرجال المسلّحين، الذين أتوا في المساء إلى اثنين منهم ليعلنوا لهما موتهما إذا لم يستجيبوا لطلبهما ولا يحرقون المادة الكيميائية المخزّنة في المصنع. ما قيل فُعل. فقد أحرق الحارس حياً، هو وطفلاه وزوجته على يد المجموعة نفسها التي نهبت المصنع. منذ ذلك الحين الشابان المهدَّدان غابا نهائياً في الطبيعة. وقال بعض الناس إنهما في الغابة الصغيرة وقد غدا من المجاهدين بعد أن فرّا بكمية كبيرة من الواقيات ليبيعاها في السوق السوداء وليستخدما المال في غاية نبيلة ستقي الأجيال الجديدة من طريق الإغواء الشيطاني.

لم يبق من المصنع الجميل إلا جدران التوتياء المتينة التي سوّدها الرماد والمادة الكيميائية التي بقيت تحترق طوال الليل دون أن يجرؤ أحدٌ على القيام بأي شيء.

كان الانهيار قوياً جداً، لذلك اتخذ قراره بأن ينهي حياته مرةً واحدة وإلى الأبد لأنها لن تكون إلا كريهةً من دون سلطة. لم يخطر

بباله إلا فكرة واحدة هي الانتحار. ولكن وجب عليه أن يفكر بأفضل انتحار ممكن. وقع نظرُه مصادفةً على بقايا أدوية كان قد صادرها منذ يومين على الحدود، وكانت مخصّصة للتهريب. قال لنفسه: هاهو أخيراً موتٌ هادئ! أفضل طريق للتخلّص من حياة لا تساوي شيئاً.

أخذ عشر علب من البنسلين، فتحها علبةً علبة بهدوء يشبه هدوء الساموراي وقرّر أن يبتلعها جميعاً. لم ينسَ أن يقرأ الشهادة ثم تناول كأساً من الماء. سقط الكأس من يده وهو متّجه نحو المطبخ. فأل سيء لن يسهّل المهمة. أمضى لحظةً من التردّد ثم اندفع نحو المطبخ من جديد. قال لنفسه: لا يهم، لو أن الله موجود لكان بوسعه أن يفعل شيئاً أفضل من أن يجعلني أسقط الكأس من يدي. تناول كأساً أخرى وفتح الصنبور. اللعنة، لا يوجد ماء. هذه أول مرة يحصل فيها هذا الأمر منذ أن أتى إلى هذه الصحراء. لم ينقطع الماء قطّ في مثل هذه الساعة، بل ينقطع عادةً منذ الصباح وحتى الساعة العاشرة وبعدها يسيل قوياً طوال النهار.

مكث طويلاً يفكّر بما ينبغي له أن يفعل، ثم قرّر أن يخيّب آمال القتلة الذين كانوا يريدون أن يروه متأرجحاً في طرف حبل لكي يتحرّروا من شبحه كما كانوا يريدون. بكل بساطة، قرّر أن يبقى على قيد الحياة.

بعد أسبوع من الحداد استعاد نشاطه بوصفه رجل أعمال وأخذ يفكر بالسكن في مدينة الجزائر لكي يقبض أموال التأمين، وربما لكي يغيّر نشاطه كلياً. الطريقة الفضلى هي أن يتصرّف بأسرع مايمكن وبطريقة فعّالة.

ومع ذلك فقد منح نفسه بعض الوقت للتفكير فيما يفعله جدياً في هذه الجدرانِ التي بقيت واقفة كبقايا حربٍ في مدينة صغيرة مشوّهة تشبه كلَّ شيء إلا المدينة.

في اليوم التالي رأى في حلمه أنه إله، إله فقد أسنانه كلها. وبين يديه حيوات المخلوقات كلها من نساء ورجال وحيوانات من

كافة الأنواع. وكان محاطاً بثلاثة رجال عظماء: ابن خلدون برأسه الكبيرة ولحيته الطويلة المغبرّة، ونيتشه بشاربه، شارب النمر، وأذنه المُنصِتة، وفاغنر وكان غير مرتاح أبداً، وله هيئة عجوز منهك ومقوّس بفعل الزمن. كان الرجال الثلاثة يتبادلون نظرات من الحب والكراهية في آن واحد. وعلى الرغم من كل شيء، كانوا يشتركون في تواطؤ معين. وهو، كان في وسطه، يطرح أسئلةً مسطّحة وأقرب إلى الغباء لا تدفعهم إلا إلى أن يُخفوا بأيديهم أفواهَهم الخالية من الأسنان لئلا ينفجروا ضاحكين، قبل أن يتخذوا هيئةً جادة ويتابعوا الاستماع إليه. في لحظةٍ معينة خطر بباله أن يمحوهم وأن يفجّر رؤوسهم المستديرة.

عندما استيقظ كان متعَباً جداً وبالغَ الانزعاج وآسفاً على أنه لم يتخذ قراره بتحويلهم إلى رماد أو غبار في الوقت الذي كان يمتلك السلطة لفعل ذلك. فهذا سيعلّمهم كيف يقدّرون كولونيلاً وهب حياته كلها للوطن بلا تردّد.

أمضى نهاراً في حفر رأسه لكي يجد معنى لحلم يقع في منطقة على مقربةٍ من الكابوس والجنون.

- أولاً، لماذا يحسب هؤلاء الرجال الثلاثة الذين أحبهم أني سخيف؟ ولماذا انضمّ ابن خلدون الذي يجري في عروقه دمي العربي نفسُه إلى عصابة الأجنبيين؟ كلما كنتُ أتكلم كان ابن خلدون هو الذي يلتفت إلى الفراغ لئلا ينفجر ضاحكاً ثم يتبعه المجنونان الآخران. من المؤكد أني كنتُ إلهاً بلا أسنان يجد بعض العناء في شيخوخته، ولكني، مع ذلك، كنتُ إلهاً، فلم كل هذه السخرية؟

فجأة أضاء عقله كما لو أنه كان يجتاز خسوفاً ثم خرج منه سليماً. أعماه نورٌ مبهر فصرخ بصوتٍ عالٍ:

- نعم، هو كذلك، لستُ أنا الإله دون أسنان، إنها قوة الموت. نعم، الموت يسحقنا جميعاً دون أن يضطر لأن يكون له أسنان. سنمرّ به جميعاً، حتى عظماء هذا الكوكب. الشيء الوحيد الذي سيوجد

دائماً سيبقى إلى الأبد هو الموت. وما الحياة إلا الجاحدة للمؤقت. إنها هي التي تغذّي خزّان الموت القديم، وما دامت هي كذلك فلن يكون هناك من انقطاع في المخزون أبداً.

ومنذ ذلك الحين، طُلي المصنع، أو ما بقي منه، باللونين الأبيض والأخضر كضريح أحد الأولياء. تماماً مثلما كانت تُنصب في الماضي إحدى الخيام في الصحراء للدلالة على أن أحد الأولياء قد توقّف هنا لكي يأكل أو لكي يطلق العنان لسحره الذي كان يدفع الناس إلى الذهاب إليه وكأنهم ممغنطون. المكان يشكّل كل زاوية شارع المعدومين مقابل المسلخ البلدي، وعلى مقربة من مسجد كابول. سُوّيت حديقة صغيرة عند المدخل، حول تينةٍ ونخلة غريبة، مع نافورة صغيرة لماءٍ مقطوع من المدينة كلها، وهو الآن يسيل بغزارة، مع عبارة كبيرة كُتبت في أعلى البوابة الحديدية: الرغبة الجنائزية - خدمات جنائزية ورخاميات (لكافة الأعمار ولكافة الطبقات) وبخط عربي كوفي جميل: *ويبقى وجه ربكَ ذو الجلال والإكرام*. وخلف الزجاج لوحة إعلانية تشير إلى الخدمات التي يقدّمها البيت:

منشأتنا *الرغبة الجنائزية* تتكفّل بالخدمة الجنائزية الكاملة. نحن هنا من أجلكم. إننا نسهّل رحلتكم الأخيرة نحو خالق هذا العالم ونجعلها أكثر راحةً بحضورنا طوال أربع وعشرين ساعة على أربع وعشرين.

- إنجاز كافة أنواع القبور مع كافة أنواع الرخامات والشواهد والخطوط العربية والأجنبية، بحسب اختيار الزبون. الزبون عندنا سيّد، ونحن نبقى طوع رغباته وخياراته.
- نتكفّل حتى برغبات الزبائن الأحياء الذين يريدون، في أثناء حياتهم، أن يتأكّدوا من اختيار الرخام ونوع خشب التابوت، ونوع التابوت وماركته، ونقدّم له هذه الفرصة بكل محبة.
- نقدّم جميع الضمانات المتعلِّقة بالخشب المستخدم في التابوت

وقماش الكفن. ونحن لا نشتغل إلا بالحرير الهندي والخشب الإيطالي المستورد من جنوا وفلين القل. ولمن يرغب لدينا مخزون من الخشب والقماش من نوعية قيّمة، وهو مُتاح لكل الميزانيات. وطاقاتكم المالية هي شغلنا الشاغل.

- بناء شواهد القبور من الرخام أو من الجبس المقاوم جداً والممزوج بالإسمنت الأبيض مع الاسم والشهرة محفورين، وكذلك تاريخ الولادة والوفاة خلال 48 ساعة، وفي حال التأخير تعوّض المؤسسة كل شيء.
- صيانة القبور وغسلها بطلب من الزبون. وتُطلب سلفة على شكل زيادة مفوترة على أساس التعليمات السارية داخل المؤسسة.
- دفن ونبش، بل وحرق، لمن يرغبون، في أفران إلكترونية جديدة ذات توتّر عالٍ مصنوعة على النموذج الألماني، تحافظ على رماد المحروق غير ممسوس.
- نعرض القيامَ بجميع الخطوات الإدارية بدلاً من الأسرة. وتتكفّل المؤسسة المرتبطة بعقود مع جميع البلديات بإعلان الوفيات في مُهَل معقولة جداً وبالاستحصال على شهادة الوفاة.
- نعوات ومعالجات حفظ الأموات الذين يتطلّبون شهادة خبرة أو تشريح أو تحقيق يتطلّب وقتاً، وتأمين الغسل النهائي للمرحوم قبل الدفن.
- نقل الجثمان من المشفى إلى المؤسسة ومن المؤسسة إلى بيت المتوفى ومنه إلى المقبرة. وجزء من التنقلات على نفقتنا.
- أينما كنتم، نحن بجانبكم، يكفيكم اتصالٌ هاتفي، ونسمع نداءكم. ملحقاتنا في جميع المدن الكبرى في خدمتكم، وهي مفتوحة 24 ساعة على 24. ولن نزعكم، إذ يكفيكم رقم هاتف واحد وهو سهل الحفظ: 02/161616، أما الباقي فإن وكالاتنا هي التي تتكفّل به.

- بوسعنا أن نؤمّن صلاة الجنازة من قبل أئمة مؤهَّلين: من الإمام المتخرّج من جامع الزيتونة والأزهر وفاس وتلمسان حتى الإمام الآتي من باب الواد أو برّاقي أو مفتاح. بحسب اختيار الزبون وبحسب إمكانياته المادية. وإذا رغبتم نستطيع أن نتكفّل بكامل الدفن.
- كما نستطيع أن نؤمّن السهرة الجنائزية في اليوم السابع أو في اليوم الأربعين بطلبٍ من الزبون، على أيدي فقهاء من نوعية ممتازة وذوي معرفةٍ واسعة، مع إمكانية السلكة وتلاوة القراءة على روح المتوفّى.
- الاتصال الهاتفي بجميع الأقارب والأصدقاء والإدارات ممكن بطلب بسيط من الزبون.

كان الكولونيل قد تجاوز عتبة الممكن بتوسيع زاوية مناورته. وكانت منشأته، بجميع مشاريعها، هي الأولى التي بدأت بالعمل منذ اليوم الأول.

منذ ذلك الحين، اتّصل مع وكالات الصحافة كلها وأقنية التلفزيون الممكنة كلها لإنشاء قوائم أسماء يومية بالمتوفّين.

عندما يختار المرء حقل الموت فإنه لا يعرف البطالة أبداً.

5

الصدر مليء بالهواء الحار.

في ظروف كهذه، لا يعرف ما إذا كان الحب هو الذي فعل ذلك له، أم أن المصائب التي تتراكم وتتبارى في اندفاعها لا تتوقّف أبداً. الأمر كذلك، هناك صباحات لا يستطيع فيها التحكّم بقلقه، ولا حتى أن يتحاشى وجهَ سارة بريكسي الوضّاء دائماً.

أنا وسارة بريكسي، نشبه نيتشه وخصمه فاغنر شبهاً تاماً. فهذه الأرض أضيق من أن تحوي أنانيتين بالحجم نفسه، وقلقَين بالتوتر نفسه. كانت تريد أن تركبني وتفرض عليّ إيقاع حياتها الذي لم أكن لأستطيع تحمّله. معلّمي، الشيطان ذو الشارب المتدلّي عرف كيف يصفها. كانت تشبه تلك النباتات المتسلّقة والمتعطّشة للشمس التي نجدها في جاوة والتي تسمى سيبو ماتادور. إنها تطوّق بأذرعها شجرة سنديان مرات ومرات بحيث أنها تتمكّن أخيراً، محمولةً من هذه الشجرة ولكنها ترتفع فوقها، من تفتيح رؤوسها في الضوء الساطع ونشر سعادتها بكبرياء.

كانت حسابات سارة خاطئة منذ البداية، فأنا لست السنديانة التي تدع الآخرين يصعدون عليها.

لكنه لم يستطع أن يكتم زفرةً أطلقها وهو ينظر بعمق إلى الإطار الزهري لصورة سارة بريكسي التي كانت تشغل الجزء الأعلى كله من الجدار اليساري الذي يؤدي مباشرة إلى النافذة التي يرى

منها الكولونيل العالمَ الخارجي كل صباح. كانت هنا بنظرتها الخبيثة والمتّهِمة وبابتساماتها المليئة بالمسكوت عنه وهي تقوم بضفر شعرها الذي كانت تحبه كثيراً، كطفل صغير يكتشف عجائب جسده فجأةً وهي تسند ظهرها على الجزء الأسفل من تمثال لالا سيتي. خلفها، وفي الأسفل تماماً، كانت مدينة تلمسان تغوص رويداً رويداً في الفراغ والنسيان، ووحدها قمم بعض الأشجار والأبنية تظهر بصعوبة في أسفل الصورة. بقيت سارة بريكسي قرويةً بشعرها الطويل، حتى ولو أنها خرجت من مدينة كبيرة. كانت لها هيئة امرأة كبرت بسرعة، امرأة واثقة من نفسها.

نهض مرةً جديدة بصعوبة عن كرسيه المصنوع من البامبو والذي تهاوى في وسطه وتسطّح مع الزمن، يوماً بعد يوم، من تأثير ثقل مؤخرته.

ملأ رئتيه بالهواء كما لو أنه كان خارجاً من حفرة ثم نظر بإمعانٍ إلى الفراغ الذي لم يكن له إلا لون ليلة صيفية.

سوادٌ خفيف مطعَّم بزرقة المحيط وبموجة فاغنرية.

نظراً لأنه كان طفلاً من باستوس، لم يكن لديه خيارات أخرى؛ إما أن يكون مقاتلاً أو لصّاً يفرض قانونه في الجبال. سكان باستوس الأوائل ماتوا في حروب مختلفة، أما الذين أتوا بعدهم فإنهم يحاولون أن يعيشوا بالطريقة الأكثر شيوعاً: الذهاب إلى المدينة والعمل في وزارة الدفاع أو في جوارها، لأن معظم سكان باستوس هناك، في الجزائر، ويستطيعون أن يتدخّلوا دائماً لإسداء خدمة لأبناء بلدهم.

ومع ذلك، فإن باستوس ليست إلا قرية صغيرة لئلا نقول مزرعة لها حدود طبيعية محدّدة جيداً. قرية استعمارية تصعد بصعوبة على هضبة حيث لا ينمو شيءٌ هناك إلا الحجارة السوداء وزواحف من كل نوع مع غابة عذراء في أعلى الهضبة، ولكن من يُرِد أن يبلغ قمة الهضبة يبصق دمه وأحشاءه. غادر الكولونيل باستوس

منذ طفولته بزائدته اللحمية الصغيرة المأساوية التي لم يستطع أن يتخلَص منها لظروف معينة ولم يُختَن. أول مرة يترك كل شيء وراءه كان في نهاية الثلاثينيات ملبياً نداءً كان يتجاوزه كلياً ليقوم بالخدمة الإلزامية بوصفه محتلاً في تلك الآونة، ولكن في الواقع، لكي يحارب إلى جانب الحلفاء. على أية حالة، هو من كان يتمنى ذلك كثيراً، ولم يكن يدري لماذا كان الناس يتذمّرون وكأنهم تركوا وراءهم الفردوس المفقود. بالنسبة إليه كان الأمر واضحاً جداً: لم تكن باستوس إلا فراغاً، ولكن الأمر الجيد في هذا الفراغ هو أنه جامع. فلدى هؤلاء الناس ثمة خيط، حبل سري لا يستطيع أحدٌ أن يفكّه أو يقطعه. يكفي المرء أن يولد على هذه الأرض حتى ينمو لديه هذا الشعور الغامض بالحب لأهله. لو كانت باستوس بلاداً لولّدت حباً مثالياً. لم يهجر باستوس ولكنه كان مضطراً للرحيل. لقد تبع تقليد أولئك الذين سبقوه: والدٌ ترك أثراً جلياً في تاريخ الحرب العالمية الأولى، وأشقى أكثر من شخص في القرية، وجدٌ تذكّر البروسيون طويلاً جرأتَه المجنونة.

لم تكن باستوس شيئاً سوى بضعة بيوت بلا روح وعائلة أو عائلتين تتمدّدان في صمتِ جبلٍ قاسٍ وسماءٍ عديمة الألوان لكي تلتقيان بعائلات أخرى في الطرف الآخر من الجبل. إنه لا يذكر الكثير ما خلا بيتهم الذي كان الوحيد المبني من الحجارة والصلصال والذي حاول الآخرون أن ينسخوه ولكن دون أن يتمكّنوا من القيام بذلك بشكل صحيح. إن جدّه هو الذي ابتناه كما كان يريد بجهده وبالمال الذي كان يرسله من أماكن عديدة. لا يعرف أشياء كثيرةً عن باستوس إلا هذه العائلات الغريبة التي دفعها البرد والفقر وبصورة خاصة الوحدة للقدوم إلى هذا المكان لتجد المأوى والحب ولمقارعة شظف العيش الموجود في كل مكان، حتى بعيداً عن باستوس. وبينهم كانت أسرة بريكسي التي مرت من هنا قبل أن تقيم في مسقط رأسها تلمسان التي حافظت معها على حبل سري قوي جداً. وعندما أراد والده أن يزوّجه لم يفكر إلا بتلك الأسرة، حتى لو

كان التلمسانيون، مثلهم مثل أهل باستوس، لا يزوّجون أبناءهم إلا لأبناء أسرتهم.

غريبةٌ هي تلك اللحظات التي تغزوه وتأخذه إلى زوجته. فهو لم يتمكّن قط من تذكّر وجهها ولا حتى جسمها كثير البياض، بل كان يتذكّر شجاراتهما، فقد كانت تتدخّل في كل شيء، ولاسيما بقطعة اللحم اللعينة التي تغطي قضيبه، والتي كان يجب عليه أن يتخلّص منها في سن الثالثة، ولكن الأمور سارت في اتجاهٍ مختلف. كان ينظر إليها، فتمعن النظر إليه بعينيها الثاقبتين دون أن تنبس بكلمة. لم يكن ليحتمل فيصرخ كذئب جريح متروك لقدَره:

- لا تتظاهري بالبراءة. أنتِ تعرفين هذه الحقيقة، ففي تلك الباستوس اللعينة، لا شيء يفرّ من النظر حتى الأشياء الحميمة. لستُ أنا من أراد ذلك بل الظروف، ولكن لا شيء يمنعني من أن أكون رجلاً كامل الرجولة.

كان يفرغ كل ما في قلبه دون أن يتمكّن من معرفة ما إذا كانت تعرف الحقيقة المرة. وكلما أراد أن يدنو منها كانت تلاقيه بلازمتها شبه الموقّعة:

- أنا لا أستطيع أن أنام مع رومي. فالله يمنعني من ذلك وأولادي سيخرجون من بطني عمياناً.

منذ ذلك الحين، كلما أراد أن ينام معها، وَجَب عليه أن يقسرها أو أن يغتصبها، فتنساق إلى شهوتها وهي تطلب من الله الرحمة العميقة من الإثم الذي يُفرض عليها. فكانت تمارس الحب وعيناها مفتوحتان، وشفتاها لا تكفّان عن التمتمة.

لا يذكر شيئاً إلا هذه اللحمة اللعينة، ولا حتى ليلة العرس التي عاشها سريعاً قبل أن يلتحق بكتيبته في الجيش الفرنسي التي تركها فيما بعد لكي يعيش بين شجيرات الثورة.

بل إنه لم يشهد موتها لأنها توفّيت أثناء غيابه بعد أن قضى

عليها مرض ذلك العصر: السل. بل إن بعضهم تجرّأ وقال إنها احتست السم المسحوق الذي يستخدم للفئران بسبب تأنيب ضمير عميق جداً لم تتمكّن قطّ من البوح به. في البداية أخفت عنه أسرته نبأ وفاتها، ولكن عندما بلغه الخبر انتابه شعور غريب بالفرح والخفة.

ولكنه لم يقطع علاقته بأهل زوجته خلال المعارك كلها. وكان يقصد تلمسانٍ كلما سنحت الفرصة لكي يزور الأهل ويغيظَ سارة بريكسي قليلاً، وهي التي كانت متعلّقة بدراستها وبأحلامها كطفلة بالغة.

- إذن ماذا تنوين أن تفعلي يا حلوتي؟

- *عالمة أنتروبولوجيا، أريد أن أتبع أثر أجدادي.*

- هذا العمل شبه مستحيل بالنسبة إلى امرأة.

- *من قال لك هذا؟ إنكَ تُبدي عقلية بالية، ومع ذلك لديك كل مواصفات رجل رومي.*

رومي! يا لها من كلمة بغيضة! ربما أتتها عفو الخاطر، فلماذا أصنع منها مأساة؟

- ليس هذا ما أقصد قوله، أنتِ جميلة ولن يدَعوكِ بحالك، الفارس على حصانه الأبيض غيور جداً، ولن يدعكِ تذهبين بعيداً في دراساتك مخافة أن يفقدك. ستصبحين نجمته يا بنيّتي.

- *إني أسخر من هذا الفارس.*

- يا للجرأة!

- *لن أفعل أبداً ما تفعله أخواتي: أن أقبل كل ما يُفرض عليهن.*

في نهاية الزيارة، عانقها وضمها إلى صدره وهو يتمنى لها مستقبلاً باهراً. وعندما رأت الأم هذا المشهد الحار التفتت إلى زوجها ووشوشته:

- المسكين! لم ينسها أبداً. إن سارة تذكّره بالمرحومة.

عندما يمر بهم ولا يكلّمها تشعر بحزن عميق وبأنها مهملة. فتقوم هي بإغاظته لكي تدفعه إلى الكلام، متناسيةً كل الملاحظات والأوامر التي أعطتها إياها أمها في الليلة السابقة.

نظر الكولونيل إلى كلبه الذي كان ما يزال بجانبه يلعق الحليب الصباحي بصعوبة وهو يمشي على السجادة التلمسانية القديمة التي صنعتها له حماته. كان يحملها معه دائماً في تنقّلاته العديدة، وها هو يحتفظ بها كذكرى لهذا الحب الضائع في مكانٍ ما من طبيعةٍ بلا أصداء وبلا حياة.

نظر إلى غزال طويلاً قبل أن يوجّه إليه كلامه التَّعِب: *أنتَ تعرف يا صديقي، وربما كنتَ الصديق الوحيد الذي بقي لي مع هذه السلحفاة الصامتة جداً أو هذا الهر العجوز الذي ألتقيه كل صباح أمام الشاليه وهو يتسافد مع القطط الصغيرة التي كانت تنتظره باستمرار على العشب على الرغم من عدوانيته رافضةً كل إغراءات القطط الشابة. أحياناً عندما لا يكون هناك من قطط صغيرة، يصطاد بذكاء. يذرع المنطقة كلها أمام الباب الخارجي للشاليه؛ وعندما يرى قطة قادمةً من بعيد يتمطّى ويُطيل جسمه ثم يتقدّم ببطء على رؤوس قوائمه ورأسه بين كتفيه ثم ينقضّ على الهرة قبل أن تنبطح دلالةً على رفضها لأي سفاد قسري. هو لديه هذه الحرية على الأقل! يا غزالي الصغير، وأنتَ أيضاً شختَ عندي ككل هذه الحيوانات التي تحيط بي. كانت أجمل من أن تعيش حياةً عادية. على أية حال، لقد بدأ كل شيء في هذه الصحراء، عند النقطة صفر التي هي بلا عمر والتي نسيها البشر والملائكة. أتت إليّ لتخبرني بأنها تعمل مع فريق من علماء الأنتروبولوجيا الأمريكيين الذي يُجرون تنقيبات في تاسيلي. وإذا أعجبها العمل فستطلب نقلها إلى هذه المنطقة بشرط أن أتوسّط لها في الجزائر. فصرتُ أسعد رجل في العالم. ثم ذهبت وعادت بعد خمسة أشهر لكي تطلب مني هذه الوساطة. لم أتردّد. وهكذا بدأت قصة سارة بريكسي.*

حرّك غزال أذنيه بهدوء ثم هزّ رأسه كما لو أنه يريد أن يُعبّر

بأنه فهم. اعتاد الكلب أن يصغي إلى الكولونيل. وكلما ثارت أعصابه أو رفع صوته، يرفع أذنيه ويجلس مقابله. منذ أسبوع والكلب ليس في حالته الطبيعية. فهو يسعل. وينبح من الألم أحياناً. بل بدأ يخاف من كل ما يحيط به، ويجد صعوبة في اصطحابه إلى البحر. حتى الطبيب البيطري لم يستطع أن يفعل الكثير سوى أنه طمأن الكولونيل بكلمات معسولة:

ـ إنها السن يا سيدي الكولونيل، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً معها. سوف يُصاب بالصمم وربما بالعمى. وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تؤمّن له موتاً هادئاً. ما عدا ذلك لا نستطيع أن نفعل شيئاً، لا أنا ولا أنت.

حرّك أذنيه وهزّ رأسه من جديد.

آه يا غزال! تريد أن أنهي قصّتي... ولكن قصة سارة بريكسي طويلة ومعقّدة. أنتَ ونجاة على الأقل تُبديان انتباهاً.

ذات مساء، وكان الطقس بارداً، دعتني إلى بيتها بمناسبة عودة مجموعة الأنتروبولوجيين الأمريكان إلى بلادهم. لم أكن أملك ماأقدّمه لهم سوى زجاجة ويسكي، كان أحدهم قد قدّمها لي وكان يريد أن يمرّر حليب لحظة إلى المغرب. كانت في قمة سعادتها. لأول مرة أكتشف أنها تشرب. وقدّمتني إلى زملائها بوصفي ضابطاً. وكانت محلّقةً في تلك السهرة. وبعد أن ذهب الأمريكان وتأهّبتُ للعودة وقفت أمام السيارة وقالت:

ـ أنتَ لا تستطيع أن تذهب في عزّ الليل، فالنقطة صفر ليست قريبة من هنا.

ـ بعيدة، ولكن لا بد لي من أن أذهب.

ـ تذهب صباح الغد. وأنا أرغب في أن تبقى. ستوصلني إلى المطار لوداع الأمريكيين، ومن هناك ستذهب. موافق؟

في الليل، تكلّمنا عن كل شيء وعن لا شيء. بل إنها تكلّمت

للحظةٍ عن أختها قائلةً لي إنها لا تتذكّر وجهها، وكأننا نتقاسم الشعور نفسه بالمصادفة. ثمة وجوه تمّحي بسرعة كضوء منارةٍ فارّ. في الليل، لم نفعل شيئاً سوى الاستماع إلى فاغنر الذي اكتشفتُه في الأكاديمية العسكرية حيث أقمنا أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها. كان هناك عسكري ألزاسي مجنون مثلي فقَدَ كل شيء في الحياة وكان يتصوّر نفسه زرادشت، ويتكلّم مثله تماماً معيداً التباينات الكلامية نفسها، فلم يكن في وسعنا منع وجوده بيننا.

كنا ننظر إلى بعضنا، أنا وسارة، بين وقتٍ وآخر، في صمتٍ لم يكن صمتاً. كان التواطؤ قوياً إلى درجة أنه كان يرتسم بين وجهينا المتعبَين، والمجرَّدَين من أية مقاومة.

في الصباح، وقبل أن أوصلها إلى المطار وأستأنف رحلتي في الصحراء ناولتني أسطوانة لفاغنر: العربة الشبح وغسق الآلهة التي أعطاها منها الأمريكان نسخةً مضاعفةً. منذ ذلك الحين تَشكّلَ مثلث الحب من حولي: سارة ونيتشه وأخيراً فاغنر.

واصل الكلب هزّ رأسه وتحريك أذنيه في جميع الاتجاهات. لم يتنبّه إليه الكولونيل بل استأنف مسيرة صمته:

في الطريق لم يكن إلاها في رأسي. أحسستُ بحرارة أنفاسها الممزقة عندما وضعت رأسها على صدري. كانت تريد جسدي، لكن جسدي كان هامداً. لم أستطع أن أحرّك يدي حتى استيقظت في الصباح. أنا أيضاً كنتُ أرغبها، ثمرةَ الجنة المحرَّمة. لكنّ شيئاً ما كان يمنعني في كل مرة كنتُ أحرّك يدي لمداعبتها. ربما كان ذلك خوفاً، خوفاً من أن تكتشف، مثل أختها، أني لم أكن مختوناً، وأني أحمل قطعة لحم زائدة ملعونة.

لم أستطع إبعاد الزوبعة التي تشكّلت في داخلي الموّار. أنا لم أخطئ فيها قطّ. منذ تلك الليلة، كل شيء انقلب في داخلي.

صرتُ منقاداً لشيطان سحرها. وبات حضورها يسحرني حتى لو كانت غائبة. صرتُ أراها في كل مكان حتى في جميع أفلام

التلفزيون تقريباً. في أحد الأفلام سمعتُ سارة فكانت هي، وبصعوبةٍ بالغة تحمّلتُ ذهابها مع شخصٍ آخر. تركت وراءها زوجها اللطيف وأولادها وبيتها من أجل رجل أحبّته بجنون. احتجتُ لليلةٍ كاملة لئلا أموت من الغيرة والحقد على هذا الرجل الذي لم يفعل شيئاً لينال هذا الحظ.

ذات مساء، اتصلت بي هاتفياً إلى الثكنة. كانت عائدة من البلد بعد وفاة أبيها، وكان رجلاً مسناً بالغ الحكمة. بَدَتْ مجروحة، لستُ أدري ما الذي قادني نحو الانحراف الذي أحسستُ أني أغوص فيه عميقاً. ركبتُ سيارتي اللاندروفر القديمة وانطلقتُ نحوها كالسهم. ولم تكن تتوقّع ذلك. تعلّقت بي: لقد مات، لقد مات. وبقيتُ وحيدةً تماماً. وفي الليل سألتني إن كنتُ أرغب في الشرب. قدمت لي بعض الويسكي وهي تحاول أن تعتذر:

منذ أن ذهب الأمريكان، وأنا لا أشرب إلا نادراً، فأنا لا أحب أن أشرب وحيدةً.

- اليوم أنتِ لستِ وحيدة، أنتِ مع أخ كبير.

- لا، لا أريد أن أكون مع أخٍ كبير. أريد أن أكون يتيمة. أريد أن أكون مع شخص آخر، مع رجل.

- نعم، إذا أردتِ.

في الواقع، لقد سخرت مني. شعرتُ أني صغير. أي نذلٍ كنتُ! ومع ذلك... من يريد أن يكون كبيراً في الخير أو في الشر، عليه أن يكون مدمِّراً وكاسراً للقيم بأي ثمن، وهذه واحدة بين يدي، إنها سارة. يجب الانقياد لحركات الأمواج الطقسية وطاعتها.

أمسكت بيدي ووضعتها داخل صدرها. كانت حرارة جسدها مثيرة وهي تضغط يدي عليه. لم أتحرّك إلا لكي أسكب لها كأساً. في لحظةٍ ما شعرتُ أن من واجبي أن أوقفها.

- كفّي يا سارة من فضلك، لقد بدأتِ تفقدين عقلك.

ـ أي عقل؟ لماذا تصرّ على أن تكون مضحكاً؟ لماذا تتصرّف كعسكري يريد دائماً أن يكون المقرّر الأول في كل شيء؛ حتى في المشاعر؟ تباً لك! أنتَ معي، ألا أعجبك؟ أنا بحاجة إلى كائن حر وليس إلى آلة محشوّة بالأوامر والممنوعات.

أنا نفسي لا أعرف كيف جرى ذلك؟ تمكّنتُ من سماع صوتها بصعوبة تحت جسدي.

ـ أغمض عينيك وانسَ أنك صهري. انسَ تلكَ القيم الخرائية التي لا تهمّ إلا أولئك الذين لهم مصلحة في فرضها. افعل ذلك من أجلي. لطالما حلمتُ بأن تضمّني بذراعيك كثمرةٍ ناضجة تقاوم الزمن مقاومةً سيئة. لا تجعلني أحمرّ خجلاً، فأنا لا أحب كثيراً من يعطون الدروس.

كان طعم حلمة نهدها كطعم السكر الخام والملح، كطعم قصب السكر الممضوغ والمغطّس في ماء البحر.

لستُ أدري ما إذا كنتُ قد فعلتُ ذلك من أجلها أم من أجلي أنا، لكني فعلته. وكانت في قمة سعادتها. وسُررتُ لأنها لم تحدّثني عن تلك اللحمة اللعينة التي أشعر أحياناً بحاجة كحاجة الأطفال إلى قطعها ووضعها في قدر من الماء المغلي والنظر إليها كجندي يرقص فرحاً وهو يرى عدوّه يُشوى على نار هادئة.

قام بيننا إيقاع حياة جهنمي. فقد كانت مجنونة. وكنتُ بلا عقل ولكني لم أتمكّن قطّ من أن أنسى أن لدي عملاً أمامي وخلفي. ومع ذلك فقد ذهبتُ إلى نهاية استيهاماتي معها بلا ندم. إن سارة هي التي جعلتني أكتشف الذي ما كنتُ لأكتشفه أبداً بمفردي. ملذات الجسد. لقد كان رأسها خلواً من الممنوع ومليئاً بالنور.

إنها لا تشبه أختها في شيء، أختها التي أنسى اسمها كلما كنتُ مع سارة أو رازحاً تحت وطأة حبها.

حرّك غزال ذيله بتثاقل وأخذ يفتح فمه، فمَ ذئب غابة هرِم لكي

يتثاءب. هزّ رأسه ونظر بإمعان إلى الكولونيل وكأنه يريد بقية القصة، وهو يعاني كثيراً من إخفاء مرض شيخوخته.

هرِم ولكن ليس إلى درجة أنه سيموت قريباً.

لم يكن الكولونيل يكفّ عن ترداد هذه العبارة لكل الأطباء البيطريين الذين كانوا ينصحونه بقتله.

ـ غزال يفتح فمه بهذه الطريقة لكي يعبّر عن رغبته في الخروج لكي يقضي حاجاته الحيوية. وتلك عادة من عاداته القديمة.

فتح له الباب لكي يخرج بسرعة لكن الكلب مشى كسكران وارتطم رأسه الكبير بالعمود الأوسط في البيت قبل أن يجد طريقه. كانت له هيئة شيخ هرِم يذهب إلى نهايته بمرارة. كان منتهياً. ولم يسمع الكولونيل من الخارج إلا أصواتاً جافة لتقيؤ ممزوجة بمواء هرّ مستدير الرأس يبحث بيأس عن هرةٍ لكي يسافدها.

عندما عاد غزال إلى الصالون كانت حاله أفضل.

عندها شعر الكولونيل بالهدوء الذي شعر به كلبُه بعد أن قضى حاجاته الحيوية، توجّه بدوره إلى المرحاض لكي يقضي حاجاته، هو أيضاً. على أية حال، إنه يتمنّى ألا يذهب أبداً إلى ذلك العذاب بسبب مصاعب البواسير التي يجرّها خلفه منذ أكثر من عشر سنوات، ولكن...

نقصُ إلهٍ أعجزّ من أن يفكّر بخلق مخلوق كامل.

لم تكن تُسمع إلا حشرجاته في المرحاض ولعناته للأولياء وللإله الذي لا يظهر أبداً في وقتٍ كهذا لكي يخفّف من آلامه، والذي أعطى الإنسان ثقبَ الخراء هذا الذي لا يخرج منه إلا الألم ومآسي البواسير.

ـ إذن، ألم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً مختلفاً، لأن جميع النصوص المقدسة تتفق على القول بأن الإنسان هو أفضل المخلوقات؟ ألم يكن في وسعه إخراج الفضلات بطريقة أخرى

دون المرور في هذا الثقب اللعين، كأن يخرجها مع العرق مثلا كما يفعل ذلك مع أهل الجنة؟

اللعنة! حتى الحروب ليست هكذا.

ثم لم يعد يُسمع إلا حفيف مناديل التواليت الذي دام طويلاً، قبل أن يُسمع صوت جريان الماء، ثم خرج الكولونيل أخيراً محنيَّ الظهر تماماً من معركة متعِبة غير مظفّرة.

كان الصباح قد أتى وأخذ ينتظر في الخارج.

لماذا يجري الوقت بهذه السرعة؟ إن أجمل المشاريع هو الشعور الذي ينتاب الإنسان عندما يلمس الخيط الرفيع جداً لحياةٍ معلّقةٍ هي الأخرى، بنهاية الموت.

6

ـ هذه المرأة أثارت حلمَ أكثر من شخص.

سيدة مسكينة لكل الأزمنة التي ليس لها أسماء ولا هويات ظاهرة. لقد كان تأثيرها رائعاً. من الأفضل نسيانها الآن والتعلّق بما هو جوهري في هذه الصحراء.

عاد بسرعة إلى برنامجه اليومي ونظر إليه بانتباه. منذ أن صار هنا، وهو يرسم كل صباح على ورقةٍ بيضاء كبيرة خطاً عمودياً صغيراً، وعند الخط الخامس يرسم خطاً أفقياً ليجعل وحدةً من كل خمس عصيات كما كان يفعل لاعبو الروندا في السابق.

تباً! ها قد مرت سنتان، أربعةٌ وعشرون شهراً، مئة وأربعة أسابيع، سبعمائة وواحد وثلاثون يوماً، سبعة عشر ألفاً وخمسمائة وأربع وأربعون ساعة، مليون واثنان وخمسون ألفاً وستمائة وأربعون دقيقة، ثلاث وستون مليوناً ومئة وثمانية وخمسون ألفاً وأربعمائة ثانية. يا للخسارة! بوف! المهم أني ما أزال على قيد الحياة. هل يجب أن أنهي الأمر مع هذه النوارس التعيسة مرةً واحدة وإلى الأبد؟ بشجاعةٍ وتفانٍ وبلا هوادة، سوف أتمكّن من ذلك. إنها قصة طالت، وغدت هوى. قتل اثني عشر نورسة بيضاء وسطياً كل يوم، ثمانية آلاف وسبعمائة واثنان وسبعون نورسة منذ أن وطئت قدماي هذا البحر ليس بالمهمة السهلة. يجب أن أصل إلى العشرة آلاف خلال السنوات العشر القادمة، إذا ما تُركتُ هنا، في هذه المنطقة مشدّدة الحراسة التي تؤمّن لي الأمان على الأقل.

لقد استحقّ ذلك، وهو الذي خاض حروب القرن كافة.

بوف!... أي استحقاق؟ لو لم أكن صديق عائلة الثوار الدائمين لكنتُ قد قُتلتُ على يد أحد هذه الظلال التي تغزو المدينة بوطأة إرهابها وخوفها، ليس من الموت، بل من مرارة هذا الموت التي نتخيّلها والتي نحاول عبثاً نسيانها. أعتقد أن خطأ القتلة يكمن في هذه النقطة. لقدّ تفهّوا الموت، وحتى الإرهاب، إذاً الخوف.

في الواقع، هو نفسه لا يعرف متى بدأت هذه القصة. ومن الصعب أن يعرف ذلك. ولكن هناك لحظتان تبقيان معبّرتين في حياته. الأولى: كل ما هو أبيض لا يمكنه إلا أن يذكّره بالموت. عندما كان فتياً، كان يصطادها على شاطئ البحيرة ويأكلها، حتى لو لم يكن فيها ما يؤكل. إذ لا تحوي أجسامها إلا العظام، تماماً كجسد تلك العجوز التي سقطت من أعلى شرفتها أثناء أحداث الستينيات. وعندما رآها الكولونيل تهوي من علٍ، لم يرَ جسد حاجة عجوز بل رأى جسم نورسة هرِمة تجد كل العناء في الطيران.

- الحياة هكذا صُنعت. الشعور الذي ينتابني يهزّني هزّاً. في الإجمال، أنا أعيش حياةً خطرة، لأني كتلك الآلات التي يمكنها أن تنفجر في أية لحظة بعيداً عن كل سيطرة.

منذ ذلك الحين، نسي كل شيء. وحاول أن يصنع لنفسه حياةً مختلفة تماماً في الصحراء. لقد امتدّت أكثر من خمسين عاماً، شَغَلَه فيها عملُه وتجارتُه ازدهرت بسرعة، أكثر من أي شيء آخر. صحيح أن سارة افتُتنت بهذه الصحراء، ولكن أثناء الصيف كانت تحبّ أن تصعد نحو الشمال لكي تمضي عدة أيامٍ مع الكولونيل على الشاطئ. كانت تحب النوارس وهي تغوص فيٍ الماء ثم تصعد حاملةً في مناقيرها أسماكاً تقطّعها في كبد السماء. ولم تكن سارة تكفّ عن ترداد:

- إن لها بصراً ثاقباً جداً يا أمير! وهي ترى ما يحدث تحت الماء.

ولكنها كانت تميل إلى الصحراء أكثر من مدّ الأمواج.

وعندما وطئت قدماه أولَ مرة هذا الماءَ المحروس ليبقى فيه طويلاً لم يفكّر بأن جراحه القديمة سوف تستيقظ.

بدأ كل شيء عندما كان يمشي على طول الشاطئ بالبدلة العسكرية وهو فريسة للحنين برفقة كلبه، زَرَقت نورسةٌ بيضاء على كتفيه المزيَّنين بالنجوم والنياشين زرقةً سائلة وسّخته. تذكّر أنه لطالما كرِه هذه الطيور المشؤومة التي هي ليست في هذا المكان إلا لكي تذكّره بكفن الموت الأبيض وبطفولته التي يريد أن يمحوها من ذاكرته. وفي قرارة نفسه، كان مستعدّاً لتحمّل الجراد والأفاعي ذات الأجراس أكثر من تحمّله لهذه المخلوقات التي ليس لها أي حق في الوجود على هذه الأرض، وذلك بسبب لونها، لون الموت.

في البداية كان يعاني كثيراً في إخفاء كرهه للسلطة لأن هذه لم تجد أفضل من أن تجرّده، بوصفه مواطناً مجهولاً، من جميع الأسلحة التي كان يمتلكها: سيمينوف، PA، بندقية كلاشنكوف من النموذج السوفييتي وثلاث قنابل يدوية صناعة فرنسية وكثير من الذخائر، قبل أن ينسحق مع الزمن، وأن يشكرهم، سلطةً *وعائلة ثوار دائمين*، كما يجب، لأنهم وجدوا له مكاناً صغيراً لم يكن إلا مكرمةً. لقد نفّذوا له ثلاث أمنيات هامة: الأولى هي أنهم وجدوا له مكاناً في الموقع المحروس، والثانية هي الإقرار بأهميته الأكيدة بالقبول بتخصيص حرس شخصي من حوله، حتى وإن كان ذلك شكلياً، لأن الشخص الذي عيّنوه كان يزن مئتي كليوغرام، وكان يجد مصاعب في الوقوف وفي قضاء حاجاته، والثالثة هي الفضل الذي تكرّموا عليه به وهو أنهم تركوا له بندقية الصيد التي تعود إلى أيام الثورة.

كانت هذه البندقية حياته الماضية تقريباً. ولقد صانها الكولونيل بعناية مستمرّة، وتلك حركة كبيرة أدّوها له لأن جميع سكان الضاحية الجزائرية سلّموا بنادقهم بأمر من وزير الداخلية. في ذلك اليوم، عندما قصد مفوضية الشرطة بوصفه مواطناً شريفاً، استقبله المفوَّض شخصياً وقال له:

ـ ولكنكَ لستَ مشمولاً بهذا الأمر يا سيدي الكولونيل. فهو لا يخصّ إلا المواطنين العاديين، وأنتَ شيء مختلف يا سيدي الكولونيل. وإذا كانت البلاد تقف على قدميها فإن ذلك بفضل أمثالك من الرجال.

شعر بشيء من الغرور ينتابه، واجتهد في ألا يُبديه، فقد كان مقتنعاً بأنه يتمتّع بشهرةٍ معينة داخل مؤسسات الدولة التي تحترم ماضيه المجيد وتقدّر قيمته رغم الإهمال الذي ووجه به.

ولدى خروجه تصاغر المفوّض وطلب من الكولونيل بطاقة زيارته قائلاً:

ـ من يدري يا سيدي الكولونيل، الحياة قاسية، ولا يحظى المرء كل يوم بزيارة سيد عظيم مثلكم.

ـ طبعاً يا بني، أنا من رأيك، ويجب توقّع غير المتوقّع دائماً. وهنا يكمن الذكاء الحقيقي.

غادره بعد أن ترك له بطاقة زيارته التي ما زال يحتفظ عليها بعنوانه في وزارة الدفاع وبلقبه كمسؤول عسكري في المنطقة الجنوبية اللذين لم يعد لهما قيمة منذ أن أحيل على التقاعد.

بوف... إنها قصة قديمة الآن.

نظر إلى الساعة الجدارية للمرة الألف.

ـ اللعنة! الوقت يمر بسرعة لا تُطاق.

تنكّب بندقية صيده وتمنطق بصفّين من الطلقات وبقربتين، واحدة مليئة بالماء والثانية بالكحول لكي يستخدمه في حرق جثث النوارس في نهاية النهار، وبحربة عسكرية ومنظار نسي أن يبلغ عنهما السلطات المختصة. غادر المكان دون أن ينسى دفتر ملاحظاته لكي يدوّن عليه عدد النوارس التي سيقتلها.

في هذه الساعة، كان عليه أن يكون على البحر. ثمة تأخّر طفيف جداً وهو لا يعرف ما الذي أخّره سوى تلك اللحظات من

الضيق التي يرى نفسه فيها لا شيء على الإطلاق. وهذا يُعميه ويصدمه بعنف.

هذا الصباح، لم يرَ الخرساء، الفنانة عائشة البكّوشة، وهي تمرّ كعادتها من أمام الشاليه، لكنه سمع وقع خطواتها تضرب إسفلت الشارع الذي يؤدّي إلى الشاطئ مباشرةً، والذي يكون خالياً في هذه الأوقات الباردة، وشم رائحتها، رائحة موجة قديمة تتهيّأ ثم تتلاشى باستمرار أمام قدميها قبل أن تضيع في الفراغ، وتخيّل ابتسامتها غير الموجّهة لأحد وللناس جميعاً.

من الصعب اقتسام ابتسامة امرأة مع آخرين، ولكن من الفنان، يجب قبول هذه الابتسامة كما تأتي. وهذا ما يصنع سحرها.

7

الطقس بارد دائماً.

الموجة الأولى التي لامست أصابع قدميه أنسته استيقاظه السيئ وهذا الغياب الذي يبتلعه بين وقتٍ وآخر. لقد كان الماء مايزال دافئاً.

ـ هكذا، عندما يشتد البرد يُخرج الماء حرارته الداخلية.

ما تزال فلوكا بوشلاغم القديمة المصنوعة من السنديان هنا. لم يحرّكها أحد من مكانها، لا المصطافون ولا هو. قال بعضهم إن الفلوكا تعود إلى صياد من جزر الأنتيل ضاع في البحر. وقد وصلت نقيرته إلى هنا فشغلها بوشلاغم الذي أمضى شهراً، يوماً بعد يوم، في البحث عن البحّار الصياد، ولكن عبثاً.

قلّما تطأ قدم بوشلاغم هذا الموقع منذ أن صار منطقة مشدّدة الحراسة.

استأنف الكولونيل مشيه المعتاد وهو ينظر إلى خيال الفنانة التي كانت تتأهّب لمغادرة المكان لأن الشمس كانت قد ارتفعت. حيّاها بعينيه وبحركات جسده كما يفعل البوذيون، ولكن كان بصرها مثبّتاً على الكلب الذي يجرّه الكولونيل خلفه بصعوبة، والذي يبذل جهداً واضحاً في المشي. وعندما وصل الكولونيل بجانبها سحب كلبه إليه أكثر.

ـ هيا يا صديقي، حرّك مؤخّرتك. بهذه المشية لن نتمكّن من

اصطياد أعدائنا الألدّاء وأعداء البحر. فالبحر سيحسن إليك. هيا تحرّك، هل سأعلّمكَ اليومَ ما يجب أن تفعله؟

ولكن لم يبدُ على الكلب أنه يفهم أو يسمع أبداً.

وعندما التفت كانت الفنانة قد ابتعدت وهي تمشي بتؤدة متتبّعةً انحناءات الشاطئ المحروس.

اهتمّ الكولونيل أمير زوالي بعمله الصباحي، وهو يعلم جيداً أن الفنانة لن تغادر هذا الشاطئ إلا في ساعة متأخّرة من المساء، وأنها تُمضي هنا هزيعاً من الليل أحياناً. شروق الشمس وغروبها مقدّسان في نظرها. وعملها النحتي يتم أثناء النهار أو الليل في كوخ الصيادين القديم.

بدأ صيد الموت عندما كسر بندقيته ووضع خرطوشتين في السبطانتين.

مسح السماء الرمادية بعينيه، عيني ثعلب هرِم، وبمنظاره المتطوّر. لم يرَ إلا طيوراً صغيرةً مهاجرة متّجهةً إلى مكان لا أحد يعرفه. كلما لفت رأسه إلى اليمين ونظر إلى اليسار لا يرى إلا منارة سيدي فرج وساحة المرفأ. من كل الطيور التي تمرّ فوق رأسه طوال السنة، وحدَها طيور النورس والسنونو وجهتُها معروفة. النوارس تتّجه إلى منارة سيدي فرج أو نحو خليجها الضيق؛ والسنونو يذهب إلى مكة ليصنع مجموعات هناك. بعض الحجّاج يُقسمون برأس النبي أنهم رأوا آلاف السنونوات على شكل أكوام على مقربة من مكة، ولكنهم لا يرون شيئاً أثناء عودتهم لأن هذه الطيور تتبخّر نحو الجنة لكي تغدو طيور العالم الآخر.

- السنونو هو الطائر الوحيد المقدّس الذي لا يجرؤ أحدٌ على قتله. على أية حال لا مصلحة لي في فعل ذلك.

دائماً يجد الكولونيل الفرصة لشكر الله لأنه لم يمنح الصفة المقدسة لطائر مخرِّب وذي حقدٍ نادر مثل النورس الذي هو من فئة

السنونو نفسها لكن هذا الأخير أسود اللون وأصغر حجماً وأقل عدوانية على حميمية الإنسان.

فجأةً سمع صوتاً قادماً من بعيد يشبه صوت رياح العاصفة التي تتأهب للهبوب. صوّب منظاره نحو الأفق حيث لا يُرى شيءٌ جيداً بالعين المجرّدة. هزّ كلبه غزال برأس حذائه وقال:

- هيا يا صديقي، استعد للصيد الجميل. لن ننتظر اليومَ طويلاً، ها هي الطيور تظهر.

نهض غزال بصعوبة وحرّك ذيله بتثاقل واضح. لم يبدُ عليه أنه سمع سيده. حرّك رأسه ثم هزّ جسده عدة مرات ليتخلّص من حبات الرمل العالقة، توجّه نحو الأفق ثم أخذ يحرّك رأسه بسرعة.

- نعم، هكذا يا صديقي، يجب ألا تستسلم لآفات الشيخوخة والزمن. هيا اجرِ بسرعة!

وبدأ الاثنان يركضان على الشاطئ كما في الزمن الماضي السعيد. أخذ غزال يرفع رأسه وهو يجري. كان الشاطئ خالياً تماماً، من الصخر وحتى الحاجز المعدني، الحد الفاصل بين هذه المنطقة المؤمّنة جداً عن التجمّعات المدنية. وجّه الكولونيل سلاحه نحو السماء، ترك خيال الطائر يمر، التفت نصف التفاتة، ففعل غزال مثله، ثم ضغط على الزناد... واحد... اثنان.

وانطلقت الطلقتان بسرعة هائلة.

جرى غزال في الاتجاهات كلها، والتقط أربعة نوارس كانت قد رقدت مغربلةً بشظايا الحديد والزجاج التي كان الكولونيل يملأ بها طلقاته بنفسه. ثم وجّه الكلب نظره وخطمه نحو البحر. نظر ملياً إلى النورس الذي كان يتخبّط داخل الماء محاولاً الطيران عبثاً. ركب الأمواج حتى الطريدة ومدّ خطمه ليلتقطه من أحد جناحيها. بذل الطائر جهداً كبيراً في مقارعة الموت محاولاً من جديد الفرار من أنياب غزال الحادّة. وبحركة شجاعة أخيرة قفز النورس قفزةً

واحدة قبل أن يسقط قرب خطم غزال الذي ضربه ضربةً معلّم فكسر عنقه وأخرجه من البحر.

على الشاطئ أحسّ غزال بالإنهاك نتيجة الجهد الهائل الذي بذله فارتمى على حذاء الكولونيل الذي أمسكه بذراعيه وقبّله على خطمه.

ـ لقد أقلقتني منذ بعض الوقت يا صديقي غزال. والآن تُبرهن عن عظمتك. نحن في زمن لا قيمة فيه للشيخوخة عندما تصبح إعاقة. انتبه لئلا تقع في فضائها يا صديقي، وإلا فإن الموت هو الذي سيفرض نفسه كحلٍ نهائي. وستصبح من حق البياطرة المقيتين.

خلسةً، امتدت يد الفنانة عايشة البكّوشة التي يسمّيها الكولونيل الخرساء من الخلف وداعبت غزال. طمأنه ذلك، فنظر إليها وأحسّ بأصابع الفنانة الصغيرة وهي تداعبه، تلك المخلوقة التي خرجت من اللامكان، وكأنها هبطت من السماء، كما أحسّ بسحر هذه الأمواج الصغيرة التي تسقط واحدةً تلو أخرى عند قائمتيه المبلّلتين. بين الظل وحفيف أجنحة النوارس الطائرة فوق البحر وصوت الطلقتين المنطلقتين من بندقية الكولونيل كان هناك جزءٌ من ثانية. لكنّ غزالاً كان دائماً هنا بين يدي الفنانة التي لا تتكلّم ولكنها تداعب الكلب على كامل جسده. حتى الكولونيل لم يصرّ لأنه هو الذي تناول بقية الطريدة. وعندما عاد مكوّماً الأجساد الصغيرة المبللة للنوارس الخمسة الجديدة، كانت الفنانة قد صارت فوق المرتفع متّجهة نحو مشغلها، يتبعها نظر غزال الذي ما يزال مزهواً بإنجازه. فهذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها بكل هذا، والمرة الأولى التي يهبه فيها الكولونيل حالتي النعمة والراحة هاتين.

في نهاية النهار، شعر الكولونيل بالسرور، فقد كان الصيد مثمراً: نحو عشرين نورساً.

عندما بدأت الشمس الحمراء تنزلق على الأمواج الصغيرة في الأفق البعيد، سكب الكحول من مطرته على أجساد النوارس المثقّبة

بالطلقات أو الممزَّقة، وأشعل النار ثم ذهب إلى شاليهه الذي يتلذّذ بتسميته البونكر.

عندما نظر من خلال درفات النافذة، كانت كومة الأجساد الصغيرة البيضاء ما تزال تحترق بجانب الفلوكا الأنتيلية القديمة على شاطئ خاوٍ وصامت.

الفصل الثاني

إرادة القوة

1

ذات يوم جمعة قطبي.

فاغنر، موسيقا القوة والعظمة.

كم من الأنساغ ومن القوى، كم من العصور ومن المناخات تمتزج في هذه الموسيقا! تارةً تبدو لنا بالية وغريبة، وتارةً أخرى قاسيةً وفتيّة متطرّفة؛ متنزّية بقدر ما هي غارقة في التقليدية، ناعمة حيناً وجافة فظّة في معظم الأحيان. فيها من نار الإقدام، وتُظهر في الوقت نفسه المخمل الرخو والمصفرّ للثمار التي نضجت بعد فوات الأوان. تندفع في مدّ واسع ومليء، وفجأةً تأتي لحظة من التردّد المحيّر، اتّحادٌ مباغت بين السبب والنتيجة، ثقلٌ يضغط علينا بحلم، مؤمّناً لذة الشعور بأننا ملك هذه الثروات وهذه القوى الخبيثة كلّها.

ـ حقاً ثمة حاجة لفاغنر لتبديد ثقل هذا اليوم من الانحدار إلى الجحيم، اليوم المليء بالعمل والتعب ومختلف الأزمات الداخلية.

في النهار، هو مضطر للظهور في الخارج مثل الجميع ورؤية الناس، والناس يرونه أيضاً في طبيعته البشرية العادية إلى أقصى ما يمكن. رجل بلا بندقية صيد وبلا صف طلقات. رجل كما في الماضي، يحلم بالعظمات كلها. مميَّز بالصحراء وبـ *الناس الذين ينظرون* الذين نُسجت حولهم قصصٌ ليس لها نهاية. تقول أحدى هذه القصص أن العالم لن يرى يومَه الحقيقي إلا بعد أن يعودوا إلى أراضيهم ويسمعوا من جديد صوتَ الأميرة ضيا التي عاشت سبعة

قرون وستعيش سبعة أخرى قبل أن تنطفئ نهائياً لأن دورة حياتها قد انقطعت بسبب الهدير الأصمّ للطائرات والدبابات التي محت صوتَها ذا الأربعة عشر نغماً.

آخر رائعةٍ من روائع الكولونيل حدثت منذ عهد قريبٍ جداً، بالضبط مع الانتخابات الرئاسية، عندما ترشّح بضغطٍ من أصدقائه. كان يريد ذلك في قرارة نفسه، ولكنه كان ينتظر أن يُقال له. وصديقه، أهمّ شخص في *عائلة الثوار الدائمين*، هو من أخذ زمام المبادرة في مفاتحته بالأمر:

ـ يجب أن تفعل ذلك. ليس من أجلكَ أنتَ بل من أجل البلاد التي هي في حاجة ماسّة إلى رجال شرفاء ومجرّبين.

ـ ولكنه عبء ثقيل جداً عليّ!

ـ والمقيتون في الـ CNT(*)، هل هم أفضل منك؟ جميع المجانين اقتُرحوا للسلطة، وهم لا يحلمون إلا بها. لقد زالت عظمة السلطة. وعندما كان لها قيمة لم يكونوا يجرؤون على الاقتراب منها، ولا شمّ رائحتها حتى من بعيد. هيكل! الآن كل الفلاحين يحلمون بها. وكثيرٌ منهم يرى نفسه رئيساً. رئيسَ ماذا؟ رئيس قضيبي. يجب إغلاق الطرق أمام جميع المغامرين وغير المسؤولين. لا أحد يستطيع أن يشغل منصب الفتنة هذا إلا أنت، فلا تخيّب أملنا.

أدهشته فظاظة المدير، ولكن دون أن تصدمه لأنه فَقَد تقريباً استخدام الكلمات المهذّبة عندما كان في الخدمة. كان ينظر إلى التلفزيون، ولم يخطر بباله قطّ أن يوماً سيأتي يخاطب فيه الشعبَ بوصفه المسؤول الأول عنه ليعطي أوامره، وهو الذي أمضى جلّ حياته في تنفيذ الأوامر المتناقضة التي كانت تنهال عليه من كل حدبٍ وصوب، وبخاصة خلال السنوات الخمس التي سبقت تقاعده.

ـ حقاً أنا لا أعرف. هذا كثير عليّ.

(*) المجلس الوطني الانتقالي، وهو بنية مؤقتة معيّنة لتحلّ مؤقتاً محل البرلمان المنحل.

على الأقل يجب أن يتظاهر بالزهد، دون أن يغلق الأبواب.

ـ أيها الكولونيل العزيز، أيها العزيز أمير زوالي! إن *عائلة الثوار الدائمين* تريد أن تكون جنديّها المرشّح. قرار اتّخذ بالإجماع، والجميع موافق فلا تخيّب آمالنا.

فكّر ملياً قبل أن يردّ، دون أن يعرف إلى أية درجة ستكون ردّة فعله غير مستحبة لدى المسؤول. أو ربما لكي يجسّ نبضه، فهو يجري خلفه منذ أكثر من سنة لكي يورّث ثروته لـ *عائلة الثوار الدائمين*، لاسيّما أنه بلا ولد ولا تلد.

ـ وأنتَ، لماذا لا تترشّح؟ فلديك جميع الأوراق الرابحة، كما لديك مجموعة من التنظيمات التي تديرها بصورة جيدة.

ـ أنتَ تذهب بعيداً يا صديقي، بعيداً جداً. أنا الذي تعهّدتُ أمام أصدقائي في *عائلة الثوار الدائمين*، وها أنا من جديد أمام مسائل بلا معنى. اعذرني، ولكنك خيّبتَ أملي.

ـ لا، أنت من يجب أن يعذرني، فقد أسأتُ إليكَ دون أن أقصد. أراكَ أفضل مركزاً مني. وأنتَ معروف جداً، وفي نشاط ثوري دؤوب.

ـ أنتَ تعرف أكثر مني أن ليس لدي تاريخك. من المؤكد أن لي أعباء كبرى في الولاية الأولى، ولكني أبقى صغيراً أمام تجربتك الإنسانية الكبيرة. أنتَ رجل الظروف الكبرى. ورجل الحروب الكبرى وسلامات الشجعان الكبرى. أنتَ النسر الذي هجر أكبر جيش في العالم ليلتحق بشعبه. لا مثيل لكَ في البلاد، والجميع بحاجة إليك. أنتَ تعرف أننا في خدمة القاعدة من أجل الإبقاء عليها ملتهبةً وحيّةً على الدوام. يجب ألا تنطفئ الجذوة، ومعك تبقى ملتهبة. وكما قلتُ لكَ في مناسبات عديدة، إن ثروتك كلها سوف تستخدَم كما ترغب، أي في خدمة البلاد والثوار الدائمين.

شعر الكولونيل بالزهو الكبير بل بالانتفاخ، فقَبِل العرض الذي

قُدّم إليه. وكان المسؤول يحمل في حقيبته العتيقة مجموعة الأوراق كلها، فملأ بنفسه الأوراق اللازمة.

لم يفكّر أمير زوالي في ذلك قطّ. أن يُدغدَغ قليلاً من أجل ثروته، بالتأكيد ولكن فيما يخص شخصيته التاريخية الحكيمة والمثقّفة لأنه الوحيد في دفعته الذي يمتلك مستوى فكرياً.

لم تتأخّر توقعاته في الوضوح. وسرعان ما أدرك أنه يضع العربة أمام الأحصنة.

ـ وكيف سأفعل بالـ 7000 توقيع في كل ولاية من أجل قبول ترشيحي؟ وأنتَ تعرف أني لا أستطيع أن أتحرّك، فالمجرمون الذين يريدون رأسي كثيرون. والرسائل التي يحملها إليّ نائبي تتجاوز العشرة كل يوم.

ـ رسائل تهديد؟ ولكن من يعرف أنكَ هنا؟

ـ أنتَ تعرف أن للحيطان آذاناً وأرجلاً.

ـ هذا شأن أسرتنا. قم بعملك في الجنوب، فلا بدّ أنك ما تزال تحتفظ ببعض الأصدقاء هناك. هذا هو الوقت المناسب لتظهر هذه الصداقات. وإلا فأرسل نائبك إلى هناك مع بعض المال. أنتً تعرف أن من الواجب تغطية هذه الأمور بالزيت لكي تعمل ولئلا تصدأ. ثم إن هناك كثيراً من الشيوخ الذين مرّروا آلاف رؤوس الأغنام عبر الحدود، وهم مدينون بثروتهم لتفهّمك، عندما كنتَ مسؤولاً في تلك المنطقة. يجب أن نتساعد، وسنهتم بمالك وفيلّلاتك وأملاكك. وإذا لم ندِرها نحن فسيديرها غيرنا. إن *عائلة الثوار الدائمين* هي سند لك في الظروف الصعبة، ويدٌ واحدة لا تصفّق.

الجملة الأخيرة قذفته بعيداً، بعيداً حتى سارة، إذ تذكّر عبارتها الجميلة:

ـ إن يداً واحدة لا تصفّق ولكنها تصفع إذا لزم الأمر.

ـ آه، يا سيدي الكولونيل، إن جوابك جاهز دائماً.

عندما ذهب النائب إلى الجنوب، شعر الكولونيل بكثير من العناء لعدم تمكّنه من الذهاب بنفسه، هو الذي طالما حلم برؤية تحقّق هذا القطار العابر للصحراء الكبرى وهو يعبر الجنوب بأكمله، المشروع الأجمل الذي لا مثيل له، والذي للأسف أحالته قلة كفاءة المسؤولين إلى الصفر. بقي النائب أكثر من عشرة أيام. وعندما عاد كان في جعبته ما يقارب المئة صوت معظمها مشترى بأثمان غالية، ولم يكن في فمه إلا كلمات الأسف:

- الشيوخ الذين يعرفونك يا سيدي الكولونيل ماتوا، والجيل الجديد لا يفضّل إلا مصالحه، مصالحه المباشرة، وردّات فعله الحيوانية. أما *الناس الذين ينظرون* فقد أقاموا في أماكنهم وتكاثروا بالآلاف، والبعض يسمّيهم الجراد. عددهم يتزايد بسرعة. وما يزالون مصرّين على تلك الأسطورة عن المرأة التي يسمّيها الجميع الأميرة ضيا. وهناك أكثر من مئة جندي يختفون كل عام، يوجدون مجرّدين من أسلحتهم ومخنوقين أو مذبوحين. وأعداد المفقودين تزداد شهرياً بصورة مفزعة. *الناس الذين ينظرون* حفروا حُفَراً كثيرة دون أن يتمكّن أحدٌ من لمسها أو منعهم من الحج خشية أن يُفسّر الآخرون ذلك على أنه انتهاك لحقوق الإنسان.

- ومع ذلك، عندما كنتُ هناك، أدرتُ هذا الموقف بحكمة بالغة.

- لسوء الحظ أنكَ لم تعد هناك يا سيدي الكولونيل. فلا يوجد إلا أمير زوالي واحد على الأرض كلها. وكان يجب إيجاده وإقناعه بالعودة إلى تلك الأرض الصامتة التي وهبها نفسه وجسده. بل إن هناك فكرة تجد كثيراً من الأصداء داخل تلك الصحراء الصامتة: يقال إن الدولة ستمحو ثكنة النقطة صفر من الخارطة لأنها وجدت أن تلك الأماكن ما تزال مصابة بالإشعاع. ولقد باءت بالفشل محاولات *الناس الذين ينظرون* في أن يتم التنازل لهم عن أماكن وجود أميرتهم. وحتى وساطة السلطان أخا، حفيد الأميرة، لم تؤدِّ إلى شيء، وما يزال *الناس الذين ينظرون* يطالبون.

ـ هذا مقلق لأن الشر الكبير الذي يهدّد البلاد بأسرها قادم من هناك. وإذا هدموا ذلك المكان، فسيهدمون كل إمكانية للحياة هناك.

ـ ولكنهم يقولون إن المنطقة مصابة.

ـ أنتَ تعرف أكثر مني أن هذا الأمر ليس جديداً. وعلى الرغم من الإصابة فإن الناس ما يزالون يعيشون هناك.

كان الكولونيل أمير زوالي متأكّداً من أنه إذا ظهر على التلفزيون فإن كثيراً من أولئك الذين نسوه سيذكرونه مباشرةً وسيأتونه مُبدين تأييدهم ومقدّمين ولاءهم. والوقت هو الذي يفعل كل شيء.

وبعد ظهوره على التلفزيون الذي لم يدم أكثر من أربع دقائق كما يقضي بذلك قانون التقسيم الانتخابي، كان مسروراً جداً. قال ماكان يجب أن يقوله. فهو أول رئيس محتمل يتحدّث عن نيتشه وفاغنر والشيخة ريميتي، خارج الظروف الانتخابية كلها! لقد تذكّر كل الكلمات والحركات التي علّموه إياها عن ظهر قلب كحيوان سيركٍ صغير.

ـ أنا مرشّح الأمة بأكملها. وسأكون رئيس الجزائريين جميعاً. وليس لي حزب. وأستطيع أن أتصرّف إذا كان الشعب معي. الشعب هو حزبي. وليس أي شعب، إنه شعب العظمة والفخار الوطني. أريد جزائر التحديات الكبرى التي تُقدِم ولا تخاف. فالمصائر تؤخذ بالقوة. أريد جزائراً تصنع تاريخها بجهدها، جزائراً هي خليطة من الشيخة ريميتي وفاغنر. عندما نعطي الكلام للفن فإننا نعطيه للحياة، كما قال نيتشه بحق... يا شعب المواعيد الكبرى العزيز! الصمت لا يقيم المجتمعات الكبرى، فهذه المجتمعات تُصنع في الغضب والصخب. إن معلّمي الأكبر يقول لي ذلك.

أمضى الليلةَ التالية مفتوحَ العينين منتظراً الصباح بنشوة.

وكانت خيبة الأمل هائلةً في اليوم التالي. فالصحيفة الوحيدة

التي علّقت على مداخلته كانت صحيفة ساخرة ناطقة باللغة العربية. بل إنه فكّر في مقاضاتها بسبب التشهير. فقد كان المقال شاتماً جداً. جزائر المستحيلات كلها. *لقد طالعونا بمتقاعد لا يعرف حتى ما* يقول. يتكلّم عن ريميتي كما يتكلّم عن *فاغنر*. ويتكلم عن سيدي عبد الرحمن المجدوب كما يتكلّم عن نيتشه. يا له من جنون مطبق!

منذ تلك الواقعة قرّر ألا يقرأ الصحف الوطنية الآن. ولم يعد يشتريها إلا لقراءة صفحة الوفيات والصفحة الوطنية التي سوّدتها أخبار اغتيالات المواطنين المذبوحين أو المقتولين بالسيارات المفخّخة. أمسك بيده قلم رصاص ليحصي عدد القتلى والأماكن وليبلغ نائبه. لقد اعتاد على هذه القراءات، وصار يشمّ رائحة الموت كلما قرأ هذه الأخبار. رائحة أوراق الطباعة لا تذكّره بشيء. وعندما لا يكون في الصحيفة أخبار مذابح يبقى جائعاً ويشعر أن قراءته لم تُفضِ إلى شيء.

بعد يومين من ظهور المقال الحاد مرّ به مسؤول *عائلة الثوار الدائمين* لكي يبلغه بأن العائلة وجدت مرشّحها. ويجب أن ينسحب لأن له كثيراً من الأعداء المتربّصين. ثم إن هناك كثيراً ممن قدموا ترشيحاتهم. قال لنفسه: في هذه البلاد الكل يريدون أن يحكموا. وأول شخص تكلّمه عن وضع البلاد، من المثقّف إلى الزبّال، يجيبك بالطريقة نفسها:

ـ إذا ما حكمتُ يوماً، يوماً واحداً، فسأردّ هذه البلاد إلى الصراط المستقيم.

لا أحد يفكّر بشيء آخر. إنهم جميعاً مصابون بداء التطلّع إلى السلطة.

في زيارة المسؤول الأخيرة له، وقبل أن يغادره، لم ينسَ أن يضع بين يديه بطريقة خفية جداً مطبوعات التنازل عن الحقوق لصالح *عائلة الثوّار الدائمين* لكي يملأها ويعيدها إليه.

سرعان ما أبدى الكولونيل ردّة فعل سلبية على هذا الاستفزاز:

ـ ولكن ليس هذا هو الوقت المناسب. أنتَ ترى جيداً أني غير مرتاح، وأني منشغل بأشياء أهم.

ـ كل الأوقات مناسبة لخدمة البلاد. ويجب ألا تعير كثيراً من الانتباه لذلك. أنتَ أكبر من أية رغبةٍ في السلطة.

ـ هل ترى أني وفيت ديوني كلها حقاً للوطن؟

ـ أنا لا أتكلّم عن هذا، فـ *عائلة الثوار الدائمين* في غليان دائم. لقد وجدت مرشّحها، وقد قبِل أخيراً أن يستجيب لضغوطها. هو ليس مهماً ولكنه مطّلع جداً على دوائر السلطة، وأعداؤه أقل من أعدائك. وفي النهاية هو من تبحث عنه *عائلة الثوار الدائمين*.

ـ ومشروعنا؟

ـ سنجد إمكانية أخرى معاً. ربما مع مالك المورَّث للأسرة قد نصل إلى تركيب شيء مهم سيحمل اسمك، وستخدم الوطن من بعيد.

ـ ولكني تورّطتُ في هذه الانتخابات.

ـ الرئاسة انتهت، لأني قلتُ لك أن المرشّح قد عُيِّن. إضافةً إلى ذلك، لن تستطيع أبداً أن تحصل على الـ 7000 صوتٍ المطلوبة في كل ولاية.

ـ أعتقد أن من الأفضل أن تأخذ مطبوعاتك وتنسحب بسرعة.

ـ ولكنكَ لم توقّعها.

ـ أما تزال لديكَ الجرأة في أن تطلب مني توقيعها؟

ـ بلى يا صديقي. وسأعطيكَ الوقت الكافي لذلك، فأنا لست مستعجلاً. أنتَ تعرف أن قصة سارة بريكسي ما تزال حيةً في النفوس. نحن نغمض أعيننا وأنتَ تفعل ما نقوله لك. الأمر بسيط جداً، ويد واحدة لا تصفّق.

اللعنة! ولكنها تستطيع أن تصفع.

ـ جميع الأقارب يعلمون أنها ماتت في أزمة قلبية.

ـ وبعد أن ماتت بأزمة قلبية نهضت وذهبت لتحترق في قلب الصحراء مع كبّول(*) أمريكي في بطنها. تعقّل يا صديقي أمير زوالي، فدوائرنا تعلم تماماً أنكَ قتلتَها. وكنتَ محقّاً تماماً لأنكَ كنتَ تدافع عن حقّك كمواطن، وبخاصة عن حقكَ كعسكري. سأعود لزيارتك من أجل التنازل عن أملاكك لـ *عائلة الثوار الدائمين*، منظّمتكَ ومنظّمة جيلكَ بأكمله. لذا لا تكن مخيِّباً للأمل ومضحِكاً. وكل ما سنبنيه في المستقبل سيحمل اسمك.

ـ ولكن...

ـ أوه يا أخي أمير، أنتَ تعرف أننا أصدقاء منذ عهد بعيد. ولن أفعل فعلاً مشابهاً. لن أدفع مدير الـ م م ح (المنطقة مشدّدة الحراسة) إلى طردكَ من الموقع. ومع ذلك يجب أن أنعش ذاكرتك.

ترك أمير زوالي كراهيته تسيل من عينيه.

يا ابن الكلب، أية وقاحة! وأية غطرسة!

لم ينبس بكلمة واحد، بل بقي فاغراً فاه كمن نسي استخدام لسانه فجأة، أو أدرك فجأة سماكة الحبل الذي يطوّق عنقه. ثم تمتم بمشقّة:

ـ ابن القحبة! إنه يعرف القصة المُربكة كلها. كيف عمل لكي يعرف هذا؟ أنا واثق من أنه يعرف المزيد ولكنه لم يقله. إنه يبيّت الأخبار، وعندما يأتي الوقت المناسب سيُظهر كل أوساخه. في هذه البلاد لا أحد يهاجم مباشرةً، ولقد جرت الأمور هكذا دائماً إلى درجة أنه لا يوجد منطق للحق أبداً.

كل هذا كان قابلاً للاحتمال، ولكن ما لا يستطيع هضمه أبداً هو نظرات الفرح والشفقة التي كانت تشعّ من عيني المسؤول، ومن عيني

(*) طفل لم يعترف به ابواه.

كل من يشبهونه في كل مرةٍ يسجّلون نقطة ضده. لم يقل شيئاً، ولكن في الخفاء يثور ويُخرِج كل الاحتقار المكنون بداخله:

ـ معلمي لا يخطئ أبداً. أنا أتمنى للناس الذين ينظرون إليّ الألم والهجران والمرض وسوء المعاملة والانحطاط والاحتقار الشديد للنفس وتعذيب الشك بالنفس وجميع مصائب الهزيمة. لن أشفق عليهم لأني أتمنى لهم الشيء الوحيد الذي يمكن أن يثبت اليوم ما إذا كان لأحدهم قيمة.

بعد أن ذهب المسؤول أطلق بصره الذي ذاب في الصمت والوحدة. سيقوم بما كان يقوم به دائماً في لحظات الضيق الأكثر صعوبةً في التحمّل: يأخذ نجاة في راحة يده، ويمعن النظر إلى رأسها الصغير المليء بالقلق والمنفى الداخلي، ويلتفت نحو الصحراء الزرقاء محاولاً الاستماع إلى فاغنر.

لقد كان فاغنر الدواء والداء.

فاغنر الذي يشبه الزمن.

* * *

عاد إلى نفسه بصعوبة.

كل هذه القذارات قصة قديمة حتى لو لم يوقف المسؤول استفزازاته التي تحرمني من النوم.

تمالك نفسه وحسب الموقف لكي يتحقّق من عمل سوق الموت، وتفاصيل الأموات، وأن يحدّد قدر الإمكان عددهم وأماكنهم، ومعرفة ما إذا كان يمكن الوصول إليهم مباشرةً، أم إذا كان من الواجب استخدام طرق أخرى وأناس آخرين لذلك. عندما كانت الظروف أقلّ خطراً كان ينزل بنفسه ويقوم بكل هذا في مكتبه، برفقة نائبه، في شارع المعدومين. هذا المقر الذي تخلّص من مكاتبه وتحوّل بسرعة إلى قاعات للصلاة عندما تستدعي الحاجة، وعندما تتكفّل الشركةُ شؤونَ الميت كلها. بل إن الكولونيل تعاقد مع أحد

الأئمة ليقوم بجميع التحضيرات الخاصة بالميت من غسيل وتكفين حتى وضعه في التابوت والصلاة عليه علامةَ الوداع الأخير. لقد تمّ كل شيء على أكمل وجه وبطريقة نظيفة. فالكولونيل لا يترك شيئاً للمصادفة، ويعرف أن كسب الزبون في إرضائه. ولكي يصل إلى ذلك لم يكفَّ عن قراءة كتب التسويق والاقتصاد عندما كان قادراً على ذلك. ويجب على المرء أن يتأهّب لهذه الأزمنة الصعبة. وكانت الطلبيات تأتيه من كل حدب، حتى من المشافي الأكثر عوزاً. كل شيء يتعلّق بالطلب وبما تريده أسرة المرحوم: جنازة بسيطة، أم دفن مع ترخيم للقبر، أي عمل محترفين يبدأ من خروج الميت من بيته، مروراً بالغسل والتكفين. وكل شيء يتعلّق بالنوعية، لأن هناك عدة أنواع من القماش: من المرزايا والشاش البسيط إلى الحرير الصيني؛ والشيء نفسه بالنسبة إلى الرخام، فهنا أيضاً يجب الاختيار بين الشاهدة البسيطة المصنوعة من الجبس التي لا تصمد طويلاً أمام العواصف، وقد كُتب عليها اسم الميت ونسبه وتاريخ وفاته وآية من القرآن تختارها عادةً أسرة المتوفّى، أو رخام لايبلى حيث إن الكتابة والتفاصيل الأخرى تستدعي تدخّل خطّاط عراقي، قَدِمَ بعد حرب الخليج، وكان قد أنشأ مدرسة كبرى لتعليم الخط في البصرة. على أية حال إن النائب يعتمد كثيراً على ذكائه.

ـ اسمع يا جاسم، تصرّف بسرعة، لأن الطريدة دسمة جداً هذه المرة، وأنا أعتمد عليك حقاً.

ثم يُملي عليه، على الهاتف، اسمَ الميت وشهرته وربما النص الذي اختارته أسرته.

كل شيء ممكن في سوق الموت هذه. وكل شيء يتعلّق بالموارد، حتى صلاة الجنازة. وليس الأمر سهلاً، فهناك صلوات سهلة، وصلوات أشدّ. صلوات لا تتيح للشيطان أي مجال ليأتي ويذرّ قرنه، وصلوات ضعيفة. هنا أيضاً، تحدد الموارد كل شيء.

خلال الأسابيع الأخيرة صارت الأمور صعبة جداً بسبب قلة

الخشب. وهذا يتطلّب كثيراً من الذكاء. واضطرّ الكولونيل إلى التدخّل شخصياً عبر هاتفه من الشاليه مع معارفه القدامى من أصحاب المهنة. وهذا يكلّفه أكثر ولكن ليس لديه من خيار. وهو على اطّلاع دائم بوصول الأخشاب إلى المرفأ. وكان أصدقاؤه القدامى يؤدّون له هذه الخدمات وإن بأجور باهظة. وكان النقص يسبّب مشكلات كبيرة لا سيما إذا كان الزبون مهمّاً. ثمة احتياطي دائم للأسر الهامة. والاحتياطي يكلّف غالياً، ولكنه يدرّ كثيراً. فالميت الأخير كلّف أسرته مئة ألف دينار بما فيها الرسوم. ولكن كان العمل جيداً، مثلما حاول الكولونيل أن يردّد على مسامع أفراد أسرة المتوفّى.

ـ إنه عمل محترفين، دفن كامل مع كل التفاصيل، حتى صلاة الجنازة. الأسرة راضية، ونحن راضون أمام الله.

واليوم، الناس يعرفون جيداً شركة *الرغبة الجنائزية*.

اشتاق الكولونيل إلى حركة الأعمال هذه كلها. ولكنه كان يحاول أن يعوّض ذلك باستقبال نائبه كل يوم جمعة، لكي يقوما معاً بحساب التفاصيل كلها، فهو لا يريد أن يترك شيئاً للمصادفة.

ـ أسوأ الأشياء هو ما يُترك للمصادفة.

لقد تمكّن بمفرده، بالاعتماد على التلفزيون وصفحات الوفيات في الصحف اليومية، من كتابة قائمة طويلة تتجاوز المئة وفاة في الأسبوع، وكلّهم ضحايا أمراض خطيرة لم تُسمَّ، وبصورة خاصة ضحايا الأعمال الإرهابية التي تضاعفت. لقد اعتاد أن يسجّل كل شيء في دفتر ملاحظاته قبل قدوم نائبه. التلفزيون الوطني معين ثرّ لعمله، ولكن بعد أن طُبّقت الرقابة على الأخبار الأمنية، اضطرّ إلى اللجوء إلى جميع القنوات الممكنة. أخذ يستخدم القمرَ الصناعي وثلاثةَ أقنية من الإذاعة لكي يكوّن فكرة، وكذلك كان يفعل نائبه.

إنهما يتكاملان في التجارة الشرعية بالموت.

يقول لمن يغامرون بلومه على طبيعة عمله:

ـ أنا لا أحب هؤلاء المجانين الإرهابين، فقد دمّروا البلاد. إنهم مجرمون بلا وازع من ضمير. وإحصاء الموتى ودفنهم مهنة شاقة، ولكن لا بدّ من وجود من يقوم بها. وأنا أقوم بها دون خجل من عملي، فهذا عمل كغيره. أنا لا أريد أن يموت الناس، ولكنهم يموتون دون أن يطلبوا رأيي. أنا أيضاً أقوم بعملي خدمةً للوطن. ويجب على الإنسان أن يخلص لمهمة تتجاوزه: إن قانون المأساة يقضي بأن يعيش كل منا في جواره وفضاءاته.

عندما يجلس قرب المذياع أو أمام التلفاز لا يفارق القلمُ يدَه أبداً. وكلما سمع بقنبلة تنفجر أو يسجّل قبل أن يرنّ الهاتف ويبلغه نائبه بآخر الأخبار. يستكشفان المكان معاً، ثم يتدخّل النائب أو يستخدم أناساً يعملون معه من أجل البحث في الإجراءات واقتراح أسعار لا تُضاهى.

فيوم الجمعة مخصّص لذلك.

إنه يوم ميت لا يعبّر إلا عن الموت.

كان النائب موجوداً منذ الصباح الباكر، أمام الباب العتيق يتصايح مع رجال الشرطة الذين يمنعونه من الدخول، على الرغم من أن اسمه موجود على قائمة زوّار يوم الجمعة، فقد لزم هاتفٌ ثانٍ من الكولونيل أمير زوالي ليسمحوا له بالدخول إلى حرم المنطقة.

ـ صباح الخير يا سيدي الكولونيل، يا صديقي، إن الوصول إليك أمر صعب جداً.

ملاحظة تنعش الكولونيل حقاً وتُخرجه من ذاكرته الكابوسية التي تعذّبه يومياً في عزلته.

ـ أنتَ تعرف، يجب ألا تلومهم، فهذه متطلبات الأمن، وهذا عمل الدولة. ومع المجرمين يجب ألا يُترَك أيُّ شيءٍ للمصادفة. من الأفضل إجراء تشديد يزعج من إجراء تراخٍ يقتل.

ـ كلامكَ مُقنِع دائماً يا سيدي الكولونيل. لا أحد يستطيع مقاومة حجتك.

يناوله صحيفة الوطن ويجلس كالعادة متناولاً بيديه السلحفاة نجاة التي تُخرج رأسها الصغير بلا خوف وتلتهم ورقة الخس التي يضعها النائب في فمها الصغير كفم الأفعى.

2

في الخارج كانت الرياح تزأر بقوة.

الكولونيل هو أول من بدأ الكلام والنائب ما يزال ينظر إليه بعينين دائريتين وبهيئة منزعجة بل ومُتعَبة، لأنه لم يرتَح أبداً كما كان يريد قبل أن يختار طريق الكولونيل. طريق صعبة ولكنها تُفضي دائماً إلى شيء رائع. على أية حال، إن عمله لا يمنعه أبداً من معالجة الصفقات الكبيرة التي يؤمّنها له الكولونيل مع نسبة 15%، الأمر الذي لا يزعجه لأن عمله رائع من ناحية أخرى. بل تمكّن من الجمع بين العملين، وهذا أمر ليس بالسهل دائماً. وكل المشكلات الإدارية يحلها بفضل خبرته وحنكته. لم يخيّب أمل الكولونيل مرةً واحدة وهو يتمكّن دائماً من وفاء التزاماته المادية في المهل المحدّدة، وهدفه في كل ذلك هو أن يُرضي الكولونيل، مرجعه الوحيد. ومنذ زمن طويل وهو يقترح عليه أن يفصل العمل الإداري عن العمل في المشروع. فلقد أصبح المكان أصغر من تحمل الطلب المتزايد والذي أصبح أكثر ضغطاً وتطلّباً في بلاد يتجاوز فيها عددُ المقتولين فقط المائتين أسبوعياً. ولقد بلغت منطقة الجزائر وميتيدجا الرقم القياسي. ومع السيارات المفخّخة تصبح المذبحة صعبة جداً على التحكم، الأمر الذي اضطر الكولونيل نفسه إلى اقتراح فيللته في بن عكنون لاستخدامها كمركز إداري بانتظار إيجاد مكان آخر أكثر ملاءمة. ومن أجل ذلك وجب عليه أن يوقّع أوراقاً رسمية لنقل جزء من نشاطه إلى الفيللا.

كان الكولونيل أول من تطرّق إلى المشكلة قائلاً:

- إلى أين وصلت الأمور فيما يتعلّق بانتقال القسم الإداري لعملنا؟ هل من جديد؟

- كم تمنّيتُ أن تكون فيللا كهذه مكان استراحتك يا سيدي الكولونيل. إنها جميلة ورائعة، ويؤلمني أن تُستخدم لتنظيم أمور الأموات في حين أن الأحياء يسكنون هنا.

- نعم، ولكن أصبحت أسعار العقارات لا تُطاق. ولا يمكننا أن نحصل على ملكية جديدة. الكلام بسرِّك، أنا أفضّل استخدامها في أمرٍ ما على تركها هكذا لكي يأتي وغدٌ بعد وفاتي ويطالب بها لستُ أدري مَن بأية طريقة. من ناحيتي أنا واثق من أني سأعود إليها يوماً بعد أن ينجلي الموقف.

- من يجرؤ على فعل ذلك يا سيدي الكولونيل؟ هذا إرثك وهذه أملاكك فلا يحق لأحد أن يضع عينه عليها.

- أوف... أنتَ تعلم أن الصقور حاضرون. حتى لو أنهم اغتصبوا البلاد بأكملها يبقون جائعين. المسؤول من بين كثيرين آخرين لا يكفّ منذ الانتخابات الرئاسية عن التحرّش بي لكي أتنازل له عن أملاكي مختبئاً خلف أسرةٍ هو اخترعها، ويظن الناس بطّات برية.

- الآن، يجب ألا تعود يا سيدي الكولونيل. فالبريد الذي حملتُه إليكَ في الأسبوع الماضي يحمل تهديداً مباشراً. فهم يعرفون جيداً أنكَ ستعود. إنهم يهدّدونك بإحراق الفيللا، وهم في الحقيقة يريدون جلدك. لا يهم، الفيللا يمكن إعادة بنائها أما الإنسان الذي يذهب فلايعود أبداً. لا يا سيدي الكولونيل، ما تزال البلاد بحاجة إليك، وأعتقد أن اقتراحك هو الأفضل.

منذ أن سكن الكولونيل أمير زوالي هنا صار النائب هو الذي يأتيه كل يوم جمعة حاملاً إليه البريد. وخلال الأشهر الستة الأخيرة

حمل إليه أكثر من عشر رسائل تهديد تحمل توقيع الـ GIA والـ MIA والـ AIS والـ FIDA المتخصّصة باغتيال المثقّفين والشخصيات العامة، وقد أرسلوا إليه في رسالتهم الأخيرة أنهم ينتظرونه عند مدخل المنطقة ليسلخوا جلده ويفجّروا رأسه أو أنهم ببساطة سيحرقون الفيللا. وهم يعرفون تماماً أنه صديق أعدائهم: فاغنر ونيتشه وريميتي. في البداية، تساءل كيف فعلوا لكي يصلوا إلى مسكنه في حين أنه كان يسكن في الجنوب باستمرار. ولكنه اقتنع برأي نائبه بأن هناك متواطئين في جميع المؤسسات، وأن من الواجب عليه أن يبقى محتاطاً. ونصحه نائبه بألا يضع قدمه في فيللته أبداً. وحتى عندما فكّر أن يبلغ الشرطة عن هذه التهديدات تدخّل الرجل من جديد ليقول له إن هذا القطاع موبوء بدوره.

ـ لا يا سيدي الكولونيل، الطريقة الوحيدة هي البقاء على هذه الحال. أنتَ بخير هنا، ويجب أن تحاول أن تنسيهم وجودك.

ـ حسنٌ، والفيللا؟ أنا متأكّد من أنهم سيحرقونها ما دام لايوجد من يمنعهم.

ـ لا يا سيدي الكولونيل، ابقَ هنا، وإذا كانت الفيللا تثير مخاوفك فأنا مستعد لتفقّدها يومياً، ولترويج فكرة أنها بيعت لي.

ـ ولكن هذا خطر كبير عليك.

ـ يا سيدي الكولونيل، أنا لم أرَ منكَ إلا الخير، وإن استطعتُ أن أفعل شيئاً ما من أجلك فسأكون في قمة سعادتي.

ـ أشكرك، ولكني أعتقد أن أفضل حل هو تفعيل الفيللا، وأن نمنحها الحياة بنقل نشاطنا الإداري إليها، فبدون الحياة بداخلها سوف تموت.

أخرج النائب رزمة من الأوراق للكولونيل لكي يوقّعها. كومة كبيرة لم يتجشّم الكولونيل عناء قراءتها، ما خلا بعض العناوين وبعض الأسطر بطريقة خاطفة تاركاً لنائبه القيام بما يجب. في

النهاية، رتّب النائب الأوراق بعناية في الحقيبة القديمة. دعاه الكولونيل إلى فنجان قهوة لكنه اعتذر بلطف قائلاً:

ـ شكراً يا سيدي الكولونيل. أنتَ تعلم أن لدي قرحة بسبب هذا المناخ من الرعب الذي لا تبدو له نهاية. وإن كان سيدي الكولونيل لايرى مانعاً، نستطيع أن ننهي عملنا في المشروع.

ـ إذن يا بني، ماذا لدينا من عمل لهذا الأسبوع؟

ـ في الحقيقة أنا لم أستطع أن ألبّي الطلبات خلال هذه الأسبوع فهناك زبائن كثر، وأنا أعاني جداً من كثرتهم.

ـ هل ترى أن نستخدم أحداً ما؟

ـ لا، أفضّل أن نبقى هكذا، ونعمل مع متعاقدين إذا دعت الحاجة، فهذا يجنّبنا تكاليف إضافية. لقد قلتُ ذلك لكي أبينّ لك ضخامة مشروعنا، والخدمات التي نؤدّيها والتي لا توجد في أي مكان آخر. وبالفصل بين النشاطين ستسير الأمور على ما يُرام، أنا واثق من ذلك.

ـ عظيم جداً، إذن ماذا فعلتَ هذا الأسبوع؟

ـ بالنسبة للسيارة المفخّخة التي انفجرت في وسط المدينة وقتلت نحو أربعين شخصاً، قمنا بالعمل من أجل عشرين منهم. خدمة كاملة مع حسم للعائلات الفقيرة. وبالنسبة للمذبوحين الثلاثة في سهاولا فقد أنجزنا العمل، وهم الآن تحت الأرض. وبالنسبة للصحافية، فقد فُسخ العقد لأن أسرتها لا تستطيع أن تأتي إلى شارع المعدومين، مع أنه مكان جميل، يشبه متحف الفنون القديمة. فيللا صغيرة وساحتها مفتوحة على السماء القرميدية وفي وسطها تينة ونخلة خارج الطبيعة ونافورة لا يكفّ ماؤها من الجريان. لقد قمنا بكل ما يجعل المكان مريحاً حتى لو كان بجانب مسلخ البلدية وغير بعيد عن جامع كابول المخيف. ولكن الشاهدة الرخامية نحن من صنعها في المهل العادية جداً وكان الزبون مسروراً. أما عن

مسؤول وزارة الشؤون الدينية الذي قُتل بالقرب من بيته، فقد استخدمتُ الخشب الأحمر الاحتياطي كما قلتَ لي، وقام العراقي جاسم بحفر الخط على رخام القبر. وطلبت أسرته الحرير فاستخدمتُ الحرير الياباني وقلتُ لهم إنه صيني كما تعلم. النوعية نفسها إلا أن الياباني غير طبيعي. ومن الحرير الصيني الحقيقي لم يبقَ لدينا إلا لفّة واحدة. ويجب أن نفكّر كيف سنحل الأمر. فإذا مات خمسة رجال أقوياء في يوم واحد سنفقد كل مخزوننا. والخشب الأحمر في خطر أيضاً، ويجب أن نفكّر به منذ الآن يا سيدي الكولونيل. وللحاجة الملحّة أرسلتُ جزءاً مما بقي لدي من حرير إلى هوائينا في وهران لسدّ النقص هناك. لقد كان المقتول شخصاً يعرفه الجميع، ويجب أن نكون على قدر المسؤولية أمام زبائننا. والآن لم يبق شيء مهم.

ـ اطلب الطلبية بسرعة حتى لو كلّفتنا ثمناً أكبر. وإذا اضطررنا لشرائه عبر وسيط ثان أو ثالث فلا تتردّد، وإلا فخذ الطائرة إلى دمشق فوراً.

ـ هذا ما أنوي فعله إذا لم أجد مورّداً في الأيام القادمة. صحيح أنه غال جداً ولكنه مربح جداً.

ـ عظيم جداً، هذا يطمئنني.

ـ نسيتُ أن أقول لكَ إن الإمام يطلب علاوة. ويقول إنه يقوم بأصعب مهنة في العالم، أي غسل الأموات، وأجره زهيد. يريد أن يُدفع له بشرائح إذا كان هناك عدة أموات في آن واحد. ولقد دُفع أجره دائماً ليس على أساس عدد الأموات، بل على أساس عدد الوصولات. ويريد تعديلاً في وضعه، أن يُدفَع له على الشخص، وقبض مال العمل كله، ثم يقوم هو بدفع أجور مساعديه في الغسل بالطريقة التي يريدها.

ـ بالنسبة إلى الاقتراح الثاني، لا أرى أي مانع. يستطيع أن

يقوم به، لأنه على ما يبدو يريد أن يكسب أكثر، أما مسألة العلاوة فلينسَ الأمر نهائياً.

- إنه بين يدي، وإذا أصرّ أستطيع أن أستبدله بآخر، فهناك أئمة لا ينتظرون إلا هذا.

- المهمة ليست صعبة، حاول أن تجعله يقبل اقتراحاتنا، فإذا تركنا سيحاول أن يشوّه سمعتنا، ولسنا في حاجة إلى ذلك أبداً. وإذا ألحّت الحاجة تستطيع أن تتدبّر أمرك بطرقك الخاصة. أنتَ تعرف القرآن، ولا تتصوّر أنهم يقومون إلا بقراءة غبية على روح الميت. ويمكننا أن تقوم بذلك في حال الحاجة والضرورة القصوى. فالله الذي في رؤوسهم يشبههم تماماً. إنه عمل من صنع أيديهم المتعطّشة إلى السلطة، ومن صنع جنونهم وتشرذمهم، ككل الآلهة التي ما هي إلا أكذوبات صرفة تحتاجها البشرية لكي تحمي نفسها من الأنوار المبهرة لحياة معقّدة جداً بالنسبة إليها. لقد انتهى الأمر ما الفقيه إلا طقس يمكن أن ننفصل عنه أو يمكن أن نحفظ حركاته. والبغدادي، العراقي، ألم يطلب شيئاً؟

- البغدادي جاسم، لا حتى الآن. إنه يقوم بكل ما يُطلب منه. وينحت رسوماً خطية وأسماء. إن له يداً ذهبية. مشكلاته السياسية الخطرة ترغمه على الصمت المطبق. ولا يمكن أن تُجدّد بطاقة إقامته بوصفه أجنبياً إلا بتدخّل منا. فمن هذا الناحية نحن نملك زمام المبادرة.

- عظيم جداً. هل هناك أمور أخرى تريد أن تقولها لي؟

- لا، لا شيء خاص.

- إذن، فيما يخصّ الفيللا، أستطيع أن أعتمد عليك. هؤلاء الحرّاقون يفعلون كل شيء، ولا أريد أن أسمع يوماً أن فيللتي أصبحت رماداً. من المؤكّد أني اشتريتها بالدينار الرمزي، ولكني أجريتُ كثيراً من التغييرات.

ـ من هذه الناحية، ضع يديك ورجليك في ماء بارد يا سيدي الكولونيل.

ـ أعرف أني أعرّضك للمخاطر، ولكنها حرب من يخسر فيها أولاً سيخسر لمدة قرن كاملٍ من الزمن على الأقل.

ـ إذا كان لا بد من الموت، فسأموت ولكن إذا شاء الله لن أستسلم. الحروب الكبرى لم تدفعك إلى الاستسلام، وهذه الحرب لن تدفعني إلا إلى أن أكون رجلاً حتى النفس الأخير.

ـ أعرف أنكَ رجل أستطيع الاعتماد عليه. الفيللا بين يديك، وإذا كان يجب أن أعطيكَ ورقةً من أجل الحفاظ عليها فسأفعل.

ـ على أية حال سوف أجس نبض الناس جميعاً وأعرف ردود أفعالهم وسوف أطلعك على كل تطورات الموقف. إذا سمحتَ لي ياسيدي الكولونيل فسأذهب، لقد بدأ الوقت يتأخّر.

ـ لن أستبقيك، فليحفظكَ الله يا بني.

تمدّد الكولونيل أمير زوالي على الأريكة وفتح صحيفة الوطن فوقعت عيناه على مربّع أسود:

«اغتيال الجنرال هـ. ك في وهران. لم يعرف الشارع في وهران هذا الخبر إلا في أول المساء، بعد الإفطار: جنرال متقاعد اغتيل بعد ظهر الخميس بين الساعة 13,15 و13.30 وقع الجنرال ضحية اعتداء غير بعيد عن مكان إقامته في سان ـ أوبير في الضاحية الوهرانية. اقترب منه شخصان، أطلق عليه الأول رصاصة في صدغه، وبينما هو يتهاوى أجهز عليه الثاني برصاصتين في الرأس. وكان الجنرال مسؤولاً عن الأسلحة اللوجستية في وزارة الدفاع. كان أحد الأطر ومصدر ثقة من بومدين».

جفّ حلق الكولونيل وبصعوبةٍ بلع ريقه:

ـ سحقاً! واحد آخر منا يسقط في صمتٍ مطبق. مجرّد مربّع

صغير لا أكثر! ما هذا الجنون؟ وأنا من يريد أن يلعب بالنار! أعتقد أن نائبي كان محقّاً تماماً. إنه شخص جدير بالثقة التامة ويجب سماع رأيه. إذا كانوا قد تمكّنوا من قتل جنرال فلن يتردّدوا في قتل كولونيل أعزل. الآن فهمتُ لماذا كان النائب يتحدّث منذ قليل عن المسؤول الكبير الذي قُتل في وهران والذي يجب منحه كل الاهتمام والعرفان الممكنين. لم يكن يريد أن يثير مخاوفي. إنه نائب مهذّب! لقد علّمتني الحياة أن أتحمّل المستحيل.

3

أي تفانٍ!

بعد أن غادر النائب المنطقة بقي الكولونيل برهةً مذهولاً بالإقدام والقوة والشجاعة التي يتحلّى بها هذا الرجل. إنه الوحيد الذي بوسعه أن يمنحه الثقة العمياء. فقد كان معجباً بحيوية نائبه وشجاعته في المشروع. وهو يفكّر جدّياً في أن يورّثه كل شيء في وصيته، وأن يجعله شريكاً له، بدلاً من أن يترك ثروته لتنابل *عائلة الثوار الدائمين*. كان بودّه أن يفعل ذلك، ولكنه على ثقة تامة بأنهم سيأخذون الثروة لأنفسهم. وجد فكرة انتقال الفيللا لملكيته فكرةً عبقرية بدلاً من أن تُحرَق. ومن أجل الحفاظ على ملكية كهذه يجب استعراض الحلول كافة. يجب ألا يوفّر أي جهد في ذلك. بل إنه فكّر أن يباغت نائبه ويدفعه إلى قبول العرض الذي لم يكن حتى الآن إلا مجرّد افتراض.

ـ على أية حال، إنه رجل كبير القيمة. وسيكون من صالحه، وورقة مجهَّزة للحفاظ على الفيللا لن تضيره في شيء، بل على العكس، إن ذلك سيقنع جميع أولئك الذين ما يزالون يشكّون في ملكيتها. فكرة البيع هي الأفضل. لقد وُلد هذا الشخص لكي يكون رجل أعمال.

استيقظت في داخله فجأةً صورةُ سمينا المتعبة، ذلك الحارس الشخصي الذي وضعوه على ظهره. في البداية، عندما أصرَّ على الحصول على أحد الحرّاس. رجل مسكين أيقظوه من عزّ نومه

ليقولوا له إن لديه مهمة يجب أن يؤدّيها في الـ م م ح لمدة أسبوع. انتعل حذاءه دون جوارب وأسرع في سيارة 505 ثم انزرع أمام باب الموقع. في نهاية النهار صار يثير الريبة، فقد كان يطلب هوية كل من يدخل إلى المنطقة ويسجّل اسمه ثم يسمح له بالدخول. كان يظن أن الناس يأتون مع رسائلهم من أجل تدخّل محتمل من الكولونيل. عدّه كثيرون مجنوناً. وفي المساء سأله أحد رجال الشرطة من باب الفضول عما يفعله هنا بالضبط فقال إنه مكلّف بحماية الكولونيل وليس الموقع. كادت سرية التدخّل أن تقتله لو لم يسارع إلى القول إنه هنا في مهمة وإلى إبراز المهمة التي كُتب عليها:

«شاليه رقم 555، في حين أن الكولونيل كان يسكن في الشاليه 555 مكرّر. وبين الرقمين تجمّع سكني كامل لأن الشاليهات المكرّرة تكون معزولة غالباً.

كان سمينا ظاهرة بحد ذاته، يبذل كل ما بوسعه لإرضاء الكولونيل ولكنه لا يتمكّن من ذلك. لذا كان يتبع هواه في النوم. لاشك في أن وجوده كان مطمئناً للكولونيل، ولكن حارساً شخصياً وزنه مائتي كيلوغرام يبقى مأساة بحد ذاتها حتى لو كان يملك الإرادة الطيبة.

كان يصل دائماً في وقت مبكّر ويعطي الكولونيل إشارةً بوصوله وينزرع أمام الباب كبوّاب مصري. وعندما يغادر الكولونيل الشاليه لصيد النوارس يتبعه كظله، ولكن عندما تبدأ طلعة الشاطئ، يتعب وتتثاقل خطاه.

- يا سيدي الكولونيل، لقد انقطع نفسي ولم أعد أستطيع المتابعة. سأجلس هنا وأراقبك من هنا، فلدي نظر ثاقب.

وبعد أن يُنهي الكولونيل جولته الصباحية ويعود إلى الشاليه يجده نائماً كعادته على الصخرة القديمة. يوقظه مُطلِقاً طلقةً قرب أذنه ثم يواصل طريقه إلى البيت. يمشي سمينا خلف معلّمه الكبير ومسدس الكولت في يده مصوّباً نحو الأعلى بحسب أمر الكولونيل،

وككاوبوي أبله، لا يكفّ عن ترداد عبارت حفظها الكولونيل عن ظهر قلب:

ـ آه يا سيدي الكولونيل، لو تعرف مآسيّ! إنها تُذيب الصخر. أنا أصغر أبناء أسرتي، ابن شهيد، وأريد أن أتزوّج ولكن المسكن هو مشكلتي يا سيدي. لقد عرفتُ ثلاث نساء ولكنهنّ تركنني بسبب المسكن.

ودون أن يلاحظ أحد أنه يغيّر من نبرته بسرعة، ويصبح نظره جاداً فجأةً ورصيناً ويتقطّع نفَسه وهو يقول:

ـ يا سيدي الكولونيل، روحي لك... سوف أدافع عنك حتى آخر قطرة من دمي... عندما كنتُ صغيراً يا سيدي كانت أمي توقظني... في منتصف الليل لئلا أبول على الفراش... ولقد تعلّمتُ منها هذا الانعكاس الحيواني الذي لا يترك شيئاً للمصادفة... لدي حاسة سمع حصان وحاسة شم ثعلب وبصر كلب ونوم ديك ولمس قرد، لا شيء يفوتني...

طوال فترة الصعود إلى الشاليه، كان الكولونيل يجد بعض المتعة في الإصغاء إليه وهو يتمنّى أن يُسكته ويقول له:

ـ ولكن لم تقل إن لك نوم فرقدن ورائحة ضبعة في فترة خصوبتها.

ولكنه لا يقول شيئاً لئلا يحرجه.

وعندما يصل إلى الشاليه يصبح الهواء غير صالح للتنفّس بسبب الرائحة التي تفوح من جسمه الذي يكون غارقاً في العرق. يستحم ثم يطلب الإذن بالذهاب.

ـ كان النهار متعِباً جداً، وإذا لم يكن سيدي الكولونيل بحاجة إليّ أستطيع أن أذهب.

وقبل أن ينتظر الجواب، كان يختفي في الـ 505 وهو يكرّر اللازمة نفسها الأبدية:

ـ غداً سأكون هنا في ساعة مبكّرة يا سيدي الكولونيل.

ما أثار استغراب الكولونيل هو أن سمينا المريض بالنوم لم يتعرّض لأي حادث وأنه يعود إلى عمله في الوقت المحدّد دائماً.

هذا أمر عادي في النهاية، فكل إنسان يحمل في نفسه كاريكاتوره الخاص الذي يحاول أن يتغلّب عليه بكل الوسائل.

بعد أسبوع، سُحب سمينا من قبل الذين وضعوه تحت تصرّف الكولونيل: أبلغوا هذا الأخير أنه في أمان تام وأنه لم يعد في حاجة إلى حارس شخصي وأن هذا الحارس استُدعي إلى مهام أخرى.

لم يأسف الكولونيل على ذهابه، بل أسف على صحبة لم تكن لتزعجه أبداً.

قال لنفسه: إن وجوداً غبياً أفضل من غياب كامل.

عندما كان موجوداً، كان ذلك من أجل الآخرين، لكي يعرفوا أنهم يخافون على حياته، وأن فقدانه خسارة للبلد. والآن بعد أن رأى الناس وجود حراسة مقرّبة لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً آخر. إنها لعبة دنيئة، ولكنها تروق له، لأن كل شخص يلعبها، ولكن على طريقته.

إنها صورة تخترق كل واحد منهم، من سكان الموقع، ويجب الاحتفاظ بها.

لقد أتى سمينا بصمت مطبق ومضى دون طبول وزمور.

ثمة فارق هائل بينه وبين النائب الذي لا يترك شيئاً للمصادفة ويمتلك مواهب إبداعية كبيرة. هؤلاء هم الرجال الذين بوسعهم أن يقوموا بشيء مفيد لوطنهم وربما للبشرية جمعاء. الفارق بين إلهِ الأقدار وإنسانٍ يتجاوز نفسه، إنسان خارق.

لقد كان أنا، كان نائبي.

ـ وكان سمينا نقيضي.

4

محصول الأسبوع بأكمله ممتاز، بل أكثر من ممتاز.

كان الكولونيل يحرق يومياً أكثر من عشرين نورسةً، وكان مجهود غزال رائعاً، فقد تمتّع بنشاط كان قد افتقده في الأسابيع الماضية. لكن أمرين كانا يُقلقانه: غيابه أمس الذي يحمل كل أنواع الشكوك والكابوس الذي رآه: كلبه الذي كان يلتهم بقية هيكله العظمي وسارة بريكسي التي تقهقه.

كان متألّماً جداً، وفي الصباح أحسّ بالآلام والمخاوف نفسها.

ما هو جميل في هذه الدشمة هو أن تدفئتها ما تزال تعمل على الحطب، الأمر الذي يدفع دفعاً نحو حنين معيّن إلى طفولة مفقودة بين رغبات وحرمانات.

الزمن يبتعد بسرعة، لم يكن ذلك أبعد من أمس. كان سيرفَّع إلى جنرال لو لم تتوقّف الأمور عند ملفّ نشاطاته غير العسكرية. تساءل: من ليس لديه نشاط؟ ومع ذلك فقد وعدوه، فبقي متعلّقاً لزمن طويل، بقي سنوات متعلّقاً بشفتي رئيس الجمهورية اللتين ستعلنان أسماء المُرفَّعين إلى رتبة جنرال. بل إنه ما يزال يتذكّر الخطاب المثالي الذي حفظه عن ظهر قلب: *باقتراح من وزير الدفاع الوطني، وقّع السيد رئيس الجمهورية سلسلةً من المراسيم التي تحمل اقتراح*

الرتب العليا للضبّاط العاملين في الجيش الوطني الشعبي. وبهذه المناسبة من المناسب التذكير بأن هذه هي المرة الأولى بعد الاستقلال يُرقّى إلى رتبة جنرال ضبّاطٌ جُنّدوا وأعدّوا في المدرسة العسكرية الجزائرية.

ـ لا حظّ يا صديقي العزيز. من الأفضل نسيان ما هو غير ممكن اليوم. إن الانغماس في ذكريات الطفولة هو أفضل بألف مرة من هذه الترقية التعيسة التي كلّفت عشرين سنةً من الانتظار الفارغ. على أية حال إن جنرالَ هذه الأيام لا يعادل كولونيل الأمس!

وترك نفسه ينغمس في ملذّات طفولة مغامرة جداً لكي ينسى الرائحة المثيرة للغثيان لترقيةٍ خاضعة لرقابة مقرّرين مجهولين.

رأى نفسه في سوق قريته ملتصقاً بثوب جدته الأبيض وهو يقرصها خلسةً لكي تشتري له حلوى شبّاكية، الحلوى التي تغري صبايا القرية جميعاً.

بل إنه تذكّر الأغنية التي لم ينسها قطّ:

حلوى شبّاكية حلوى شبّاكية

واحدة لي وواحدة لكِ

تعالي يا غزالي، أنا ما أزال هنا

وحيداً كنيزك

سأضع الشبّاكية على لسانك

وسأمصّها... سامحيني إن لامستُ شفتيك

ففي الحب للشفتين لذة.

أو يرى نفسه قرب بحيرة القرية حيث تأتي عشرات النوارس البيضاء لتصطاد أسماك المياه العذبة. ما يزال يسمع صرخات أقرانه الذين كانوا يغرسون في تلك الأنحاء الحلفا المبلّل لكريب النعال المحروقة والمذابة لاستخدامها كلاصق.

ـ انتبه يا أمير، النوارس آتية إلى البحيرة، خبّئ رأسك وإلا فستهرب. إنك تخيفها برأسك الشبيه برأس البوم المتوحّش.

كانت بعض النوارس تستشعر الخطر من رائحة النعال المحترقة فتبتعد بسرعة، ومن بعيد تراقب الأحداث؛ وكانت نوارس أخرى، أقل خبرةً، تتبع رغباتها وتأتي إلى شاطئ البحيرة، وعندما تحطّ على سوق الحلفا تلتصق أقدامها، ومن فرط الرفرفة بأجنحتها محاولةً التخلّص من الفخ، تلتصق هي الأخرى.

كانت تُقطَف كثمار ناضجة، ثم تشوى على نار مستعرة ثم تؤكل. في أجسامها عظام كثيرة ولكنها شهية. ذات مرة كدتُ أموت لأن عظماً وقف في بلعومي. احتضرتُ طوال ربع ساعة، ولم ينزل العظم إلا بعد أن تلقّيتُ ضرباتٍ كثيرة انهالت على ظهري من كل صوب. منذ ذلك الحين، أقسمتُ ألا آكل من تلك الحيوانات القذرة أبداً. إن تلك الرغبة الحاسمة هي التي تدفعني إلى إبادة هذه الطيور مهما كلّف الأمر. لم أعد أشويها لآكلها بل لكي تصبح رماداً. إني أشعر بلذّة عارمة عندما أراها تذوب في الموقد كقطع ثلج مقطوعة جيداً. أحياناً يحدث أن أطرح على نفسي أسئلةً ليس لها أجوبة: لماذا اخترتُ النوارس دريئةً لي منذ طفولتي التي كانت مليئة بالكمائن والمخاوف؟ أول شخص رأيته ميتاً كان جدتي. وعندما أروني إياها ملفوفة بالكفن الأبيض لم يكن لها حتى وجه. فطرحتُ السؤال الحاسم آنذاك: أهذه جدتي؟ لا، هذا غير صحيح، لقد كانت جدتي امرأةً ولم تكن شبحاً مخيفاً! ضُربتُ على فمي. بائس! أمام الأموات والأكفان البيضاء يصمتون. يتأمّلون يا حمار! إن امرأةً خبّأت لحمها منكَ خجلاً تستحق منكَ أكثر من هذا. لذا صرتُ أخاف أمام كل شيءٍ أبيض. هربتُ نحو البحيرة وأنا أبكي وأصرخ. وعندما رأيتُ نورساً يحطّ على الماء تناولتُ حجراً وقذفته. أصبتُه من أول مرة، وبصوانة حادّة قطعتُ رأسه. وعندما قرّرتُ امتهان العمل العسكري، كان ذلك بصورة خاصة من أجل تحاشي اللباس الأبيض. كان الخاكي يفي بالغرض.

ـ أوف! حنين ملئ بالآلام والتساؤلات.

ثم ترك ساقيه تذهبان إلى أقصى حدٍّ ممكن في السرير دون أن يستسلم لإغراء البحر الهائج في الخارج، مع هدير الأمواج الدائم وصرخات النوارس التي تشبه سوقاً مليئة بالبشر.

ولكي ينسى تناول كتاب سريره، غسق المعبودين، فتحه على الصفحة التي توقّف عندها أمس، *حالة فاغنر*. راعته أسطورةُ هذه الحرب بين هذين الرجلين العظيمين اللذين كانا يتحابّان في الغيرة وفي الضغينة وفي المستحيل. قال لنفسه وهو يعرف الجواب:

ـ ولكن لماذا هذا الهجوم المستعر على فاغنر، الجدير بأن يكون صديقه.

ثم استرسل في أسئلته:

ـ هل هناك شيء أجمل من حظ فاغنر في أنه حصل على كوزيما، ابنة ليست العظيم، المخلصة لفنّه ورغباته حتى الامّحاء الكامل؟ ما لا يريد هذا المجنون أن يعرفه هو أن كوزيما، التي كانت تشعر بانجذاب نحوه أحياناً، قد وسمت حياة فاغنر بميسمها، ولكنها كفّت عن القيام بذلك منذ أن صارت زوجته. كانت حلمه ومسرحه مسرح بايروت، شرعيته وانحيازه نحو مجتمع مليء بالانحلال والكذب، لكنها لم تكن قطّ ضعفَه وخطيئته. إن الحب المستحيل هو الذي يؤثّر بقوة وهو الذي يترك بصماته. لم يكتب فاغنر شيئاً قطّ دون أن تكون حبيبةُ الآلهة الضائعة في الضعف الإنساني المسكين، ماتيلد فيسندونك، حاضرة. أعتقد أنه، هو أيضاً، كان مغرَماً بكوزيما، وأنها كانت تعمُر أهواءه إلى درجة أنها كانت تتماهى مع إرادته نفسها. كوزيما التي كان من الممكن أن تكون أريان، الخيطَ الذي كان بوسعه وحدَه أن ينتزعه من المتاهة حيث كان الجنون ينتظره في نهايتها. كان يخفي ضعفه الذي لم يتقبّله قطّ بقناع.

هكذا هي الحياة. كل ما هو عميق يحب القناع.

كان كل يوم جمعة يستدعي آخر. هكذا كان الزمن يمرّ بسرعة في هذه الصحراء الزرقاء الكبرى، المائعة والمخملية. مثل الوحدة، لا نُدرك وجودَها إلا عندما نستطيع أن نقدّر مدَّتَها.

- ولكن ماذا يمكن أن نقدّر في يوم جمعة يبدأ بالصلاة وينتهي بصعوبة في جوف هذه الصلاة نفسها التي تتركنا في منتصف الطريق بسبب تعفّنها وفراغها؟ لا، يجب إيجاد معنًى آخر له.

صار يوم الجمعة بالنسبة إلى الكولونيل أمير زوالي يوم استراحة، يوم عمل، يوم الأسئلة الصغيرة التي تبقى بلا أجوبة طوال الأسبوع، ويوم القراءات. هكذا قرّر منذ أن سكن هنا، وهكذا كان. هذه العلامة الدنيا لانتمائه إلى مجتمع لم يحبّه دائماً، ولكنه مرتبط به بروابط هي في داخله على الرغم من أنها روابط غبية. خلال أوقات راحته كان يكتفي بالنظر عبر النافذة إلى عشرات النوارس التي كانت تملأ السماء والبحر. كان يشعر أنها من بعيد مليئة بالحماسة وهي تروح وتجيء على منارة سيدي فرج وهاوية الأفق. وأحياناً تصعد عالياً جداً في سماء رمادية ثم تنقضّ كقاذفات مقاتلة نحو فرائسها. إنها لا تخطئ أهدافها أبداً. فهي من الطيور النادرة التي ترى تحت الماء. وفي المساء يتابعها باهتمام وهي تمضي لتنام معاً خلف المنارة وخلف حصن سيدي فرج.

مع مرور الزمن أخذ يتقبّل حرية هذه الطيور التي لا تذكّره إلا بالموت وبحربه المفتوحة ضد السباق الجهنّمي نحو النهاية.

5

انزلق الكتاب ببطءٍ من يده المرتعشة.

مدّها لالتقاطه ثم ذهب بهدوء نحو سريره من جديد دون أن يستطيع مقاومة هذه الرطوبة التي تثقل جسمه بثقلها.

ليس هذا إلا الكابوس اللعين لامرأة ماتت في أزمة قلبية؟ همم! ليس هكذا! هذا ليس له أي معنى! امرأة جميلة تغدو فجأةً آكلة لحوم البشر؟ والأجمل من هذا إنها تفترس جثة حبيبها؟ ليس جدّياً أخذ هذه التفاهة على محمل الجد! ولكن لماذا هي التي تعود؟ على أية حال، ليست هي الوحيدة التي لقيتْ الموت على يدي. لقد قتلتُ أعدائي المباشرين ونسيتهم. تقريباً. أما هذه فقد أصبحت عذاباً لا يُقهَر.

كانت سارة وجعي الأعمق، كانت ألماً يخترق روحي كسكّين.

الشاليه نظيفٌ تماماً. نجاة في ركنها تقضم أوراق الخس قبل أن تتقدّم نحو أنوار الصالون. من المؤكّد أن عمتي خدّوج قد مرّت من هنا لكي ترتّب قليلاً بيوت المسؤولين. إنها الوحيدة التي يُسمح لها بالدخول إلى المنطقة مشدّدة الحراسة الممنوعة على أي شخص من غير المقيمين فيها. منذ الصباح غزت المكانَ رائحةٌ تثير الاشمئزاز وما تزال. لقد ذكّرته بمرضه. كانت تأتي من الفراغ، منه، من جسده. نهار ينتهي، ويولد آخر جالباً معه حصّته من التساؤلات.

- كابوس لعين. أكثر من عشرين عاماً تفصلني عن ذلك الوجه. لم أكن أريد أن أقتلها، ولكن هي من أرادت ذلك. أتساءل في قرارة

نفسي ما إذا كنتُ قد خلّصتُها من شيءٍ ما ثقيلٍ جداً عليها، من عبء. منذ شهرين والأمور تسوء من الطرفين. أنا ارتبطتُ بها بقوة، وهي فعلت كذلك. كثير من الكبرياء من الطرفين ولكن كثيرٌ من الجنون من طرفها. كان لي وضعي، ولم أكن أستطيع تحمّل نزواتها. لديها، كانت هناك علامة تخريب في الحواس وفي الغرائز. كانت تذكّرني كل مرة بأنها حامل، ولكن ذلك كان ضرباً من الجنون لأنها كانت في تلك الآونة تعيق عملي. كان بوسعها أن تختار أوقاتاً أخرى. لم يكن ذلك بالوقت المناسب أبداً، بل كان مزحة في غير مكانها.

ـ سارة، لا تتحامقي من فضلك! لستِ بحاجة إلى قول ذلك أبداً، فأنتِ تعرفين كم أحبّك. قولي لي إنكِ تمزحين.

ـ أقسم لكَ أني أعرف.

وأرتني الدليل: تحليل وصور إيكو. لم أصدّق. من المستحيل أن تفعل المعجزة معي هذا الفعل. عندما رفعتُ رأسي كانت حاضرة ترتدي ثوباً أبيض. كانت بيضاء تماماً. امتلأ حلقي مرارةً. أرادت أن تثير إعجابي، ولكن لم تلك اللحظة المناسبة للحلم. لقد قتلتني بقصة حملها تلك.

ـ قولي إن هذا غير صحيح. هذه مزحة فاغنرية!

ـ هذا ما تريد سماعه! إنكَ تخيّب أملي. أعتقد أني لم أعد بحاجة إليك. لا تعُد إلى هنا من فضلك. أمضِ ليلتكَ هنا، وغداً اذهب مباشرةً.

ـ أريد أن أعرف السبب.

ـ اتركني. ليس لديّ ما أقوله لك. لا تطرح عليّ أسئلتك، أرجوك. لا تحتَر هكذا، فهذا يحصل للجميع.

ـ تريدين أن تلصقيه بظهري، حسنٌ، سوف أنفي هذه البذرة بكل قواي. ولن يكون ابني أبداً.

ـ ولكن لماذا تصرّ دائماً على أن تكون دنيئاً، متحلّلاً؟ لقد كنتُ

معكَ لأني كنتُ أحبك وليس لكي أفرض عليك ولداً ليس ولدك. لا أحد طلب منكَ أن تعترف به لأنه ليس منكَ. أريد أن أخبركَ، وأريد أن أبقى صريحةً معكَ حتى النهاية.

ـ قحبة! قذرة!

لا أعرف ماذا حلّ بي في تلك اللحظة. هززتُها بقوة كما لو كنتُ أريد أن أوقظها من كابوس. وكانت تنظر إليّ ككلبٍ من الخزف الصيني. أمسكتُ برأسها وصدمته بالجدار. ظننتُ للحظة أنه انفلق. لكن رأسها كان قاسياً. التفتت إليَّ وجبينها مغطّى بالدم ونظرت إليّ طويلاً وأنا أخور بقوةٍ كثور جريح على حافة الموت.

ـ إذن، هكذا تريد أن تقتلني! يا أيها الكولونيل المسكين! سوف تقضي في الصمت والوحدة كأولئك الذين سبقوك. وسوف تُقتَل كوغدٍ مسكين. بقليلٍ من الحظ سوف يقيمون لكَ جنازةً تليق بكولونيل، ومن ثم سوف يلقونكَ في بئر النسيان. أنتَ كولونيل أكثر من أن تكون إنساناً، وبالمقابل هو إنسان أكثر من أن يكون كولونيلاً. وأنا خُلقتُ لأحبَّ الإنسان.

كانت تُلهبني من داخلي، ولم تكن متنبّهةً إليَّ ولا إلى الدم الذي كان يسيل على وجهها حتى شفتها العليا.

ـ من هو ذلك اللواطي الذي صنع لكِ هذا الطفل؟ أعدكِ بأني سأعرف من هو وسآتيكِ برأسه على صينية.

ـ لن تعرف ذلك أبداً. فعندما يحب الإنسان ويهيم حباً أو عندما يكره من الصميم، خلاص، لا يهتم. افعل ما تريد. ولن تعرف شيئاً عني. ولن تلقى إلا الموت، في حين أنه هو مانحٌ للحب.

شعرت بأني أُهِنتُ في الصميم. وبذلتُ كل شيء لكي تقول لي من هو، ولكن عبثاً. فقد كانت تحبّه أكثر من أن تضحّي به. تعلّمتُ منها كثيراً من الأمور حول العناد الذي يجتاحها ويدمّرني.

ـ إنكِ تستحقينني يا سارة!

ـ ظننتُكَ فارساً على الأقل، لأنه من الصعب عليكَ أن تكون إنساناً. لا، أنا لا أسحقك، بل إني أحبّه، هذا كل ما في الأمر.

ـ وأنا أيضاً أحبّك.

ـ أنتَ مخطئ، أنتَ عاجز عن الحب مثلي تماماً. أنتَ لا تستطيع أن تحبّ أحداً إلا صورتكَ وغرورك. يجب أن تهدم نفسكَ من الداخل، كما فعلتُ أنا، وأنتَ عاجز عن ذلك. ومن الأفضل أن ننفصل منذ الآن. فنحن أنانيّان، وعندما يلتقي أنانيان من الأفضل لهما أن ينفصلا بتفاهم كيلا يلقيا عذاب المأساة الذي سيكون حينئذ عصياً على السيطرة. أنا أسامحك، ولكن اذهب واتركني.

ـ لن أتركك، فأنتِ لي.

ـ لا، أنا لشخصٍ آخر.

ـ لقد نمتُ معكِ، وهذا الطفل لا يمكن أن يكون إلا ابني.

بحركةٍ هستيرية، تناولت رأسها بين يديها وأخذت تضحك بصوتٍ عالٍ ضحكاً يشبه النشيج.

ـ أنتَ مسكين. ما تزال لا تعرف ماذا تقول. ترفض العروض عندما تريد وتقبلها عندما يروق لك ذلك. لا، فأنتَ تعرف تماماً أنه لايمكن أن يكون منك، حتى لو رغبتَ في ذلك. إن روح السلطة هي التي تسكنك وهي التي لم تعد موجودة لديك. ما بقي لديك هو الهيكل العظمي لهذه السلطة. خطؤك هو أنكَ تعتقد امتلاكَ الحقيقة المطلقة. لا، فهي لا يمكن أن تنتمي إلا إلى أسطورتها الخاصة بها.

ـ لقد جننتِ. أنا متأكّد من أنكِ تكذبين. تريدين أن تلصقيه بظهر أحد لواطييكِ الأمريكيين الذين يعملون معكِ والذين تمنحينهم نفسك راضية.

ـ أنتَ تصرّ دائماً على أن تكون كولونيلاً. حتى لو مُنحتَ الفرصة في أن تكون إنساناً. بما أنكَ تفترض أني نمتُ مع شخصٍ آخر، لا يمكن أن يكون الطفل ابنك، يا سيدي الكولونيل.

ـ اسكتي من فضلك، فأنا لا أريد أن أذهب بعيداً. لا تدفعيني إلى الخطأ، ولا تجعليني عبداً لأفعالي. أنا لا أريد أن أفقدك، فأنا أحبك. قولي إنه لي وسأصفح عنكِ.

ـ كيف تريدني أن أستبدل الحقيقة التي أعرفها بكذبة؟ فأنتَ تعرف أكثر مني أنك لا تملك خصيتين.

ـ لا، اسكتي يا سارة وكفّي عن هذا الهراء!

ـ لقد حَلَقَتْهما لكَ الحربُ، وأزالتهما من جذورهما مثل البغل الذي يُخصى. الحرب مصدر فخرك المخبَّأ وحكمك المطلق وسلطتك ومشيئتك، ولكنها أيضاً مأساتك الدائمة. مأساتك التي لا تملك لها أي دواء، حتى كتب نيتشة الذي تحترمه كمشروب كحولي. لقد صار مرضك. أنت مخطئ. تعتقد أن العظمة تتجلّى عندما يأمر الإنسان بصورة مطلقة وأن الآخر يطيع. لا، فالعالم لم يعُدْ يعمل هكذا. لقد انتهى الأمر يا عزيزي، وهذه هي النهاية المأساوية لجنسكَ كله.

ـ ليس بعد. ما أزال هنا وسأقطع أنفاسك.

ـ هذا طبيعي، رد فعل نصف رجل، مخصي، لا يفكّر ليل نهار إلا بتحويل الرجال جميعاً إلى أنصاف رجال مثله.

فقدتُ توازني.

الفضاء المخبَّأ للكلمات الممنوعة انفتح في رأسي فأتت كالنمل المفترس، وانفلتت كل البذاءات:

ـ أمك قحبة الأمريكان... اليوم سأربّيكِ وسأدفّعكِ ثمن تطاولك. أصلاً أنتِ لم تخلقي إلا لتُركبي.

الهاوية ملأت عينيّ، ومات كل حق. وصار الزمن دائرة، والصوت الرهيب دفعني نحو مرآة. نظرتُ في المرآة، فأطلقتُ صرخة ذهول، واهتزّ قلبي، لأني لم أرَ نفسي، بل الوجهَ المكشّر والضحكةَ الساخرة للشيطان الذي يشبه شيطان نيتشه. لم أسمع مثل هذا الصمت قطّ. كانت تنزل إلى قبو الحياة كدميةٍ مسكينة مشلّعة.

التصق قناع الشيطان بوجهي. إن التماهي مع الحياة والاستسلام لأمواجها، هو الاستسلام لمدّها وجذرها، إلى منارتي حركة تجتازهما بلا نهاية وبلا غاية. من يريد أن يكون عظيماً دون أن يمسّ أحدٌ عظمته، عليه أن يكون أولاً هادماً ومدمِّراً للقيم. لقد دمّرتُ الكثير منها، وها أنا أدمّر الآن رمزاً مزيَّفاً للحياة.

أمسكتُ بها من عنقها كجزّار، وكانت تستحقّ ذلك، ولم أكفَّ عن ترديد هذه الكلمة: كانت تستحق ذلك.

ـ جاحدة قذرة! لقد عاملتُكِ كعصفور تائه، هابطٍ لستُ أدري من أية سماوات مجهولة، كمخلوقٍ هو الأنعم والأكثر هشاشةً، والأكثر وحشيةً والأكثر غرابةً والأكثر عذوبةً والأكثر امتلاءً بالروح، والآن يجب أن أرسلك إلى الفراغ عديم اللون وعديم الرائحة الذي كنتِ تريدينه.

قاطعتُ أصابعي العشرة حول عنقها وضغطتُ بكل قواي. لم تتحرّك كما تفعل أية ضحيةٍ في وثبة خلاصها الأخيرة أمام موتٍ محتَّم، ولكنها تمكّنت من إخراج الكلمات التي كانت تريد قولها:

ـ أيها الكولونيل المسكين... للأزمنة الضائعة... سوف تموت في الصـ... مت والـ... وحدة... مثل الذين... سبقوك.

ثم ازرقّ لونها وكفّت عن التنفّس. ناديتُها باسمها عدة مرّات، هززتُها، بل زعقتُ، عبثاً. كانت تنظر إليّ بعينين ما زالتا مليئتين بالرغبة والاحتقار. حملتُها بين يدي ولكنها كانت متشنّجة جداً وقاسية جداً كامرأة من جبس. نظرتُ إليها لحظة، كانت تُشبه نورسة بثوبها الأبيض الساتان. نعم، نورسةً ميتةً. لم أتحمّل قطّ رؤية نوارس ترقد أرضاً. النورس الأبيض قدره أن يُصطاد، والنورس الميت قدره أن يُحرق. خرجتُ بسرعة نحو سيارتي اللاندروفر وتناولتُ بيدون البنزين. لم يكن يوجد أحد، وكان الليل قد خيّم. سكبتُ الليترات العشرة على جثتها وأشعلتُها. عندما رأيتُ رأسها ينفجر من الحرارة تركتُها لقدَرها.

حتى لو كان يوجد شاهد، فلن يتكلّم أبداً. وهذا بسيط لأن الناس لا يتكلّمون هنا إذا رأوا أحداً يُقتَل، لاسيما إذا كان القتيل غريباً يتعامل مع الأمريكان. فهم لا يرون شيئاً، والأسوأ من ذلك أنهم يذهبون أبعد: الغريبة كانت راكبة، كانت تنتمي إلى الأمريكان. لقد منحتهم نفسها كقحبة مخترقة حكمة المنطقة. وعندما تُحرَق فهذا ما كانت تستحقّه. وهذا طبيعي، فالأمريكان نفخوها ولاطوها وتركوها كخرقة قديمة. لقد أحرقت نفسها حيةً خوفاً من اكتشاف أمرها. وهذا هو الشيء الوحيد الذي تمكّنت من القيام به طوال حياتها.

لم أتمكّن من استيعاب ما حدث معي في تلك اللحظة. ولكن يوم دفنها، واكبتُها حتى قبرها في مقبرة مدينة تلمسان القديمة. بل إني بكيتُ للمرة الأولى، وربما الأخيرة.

كانت سارة بريكسي أول نورسة بشرية أحرقها. وها هي اليوم تقوم بكل شيء لتنتقم مني. سحقاً لها، فها أنا ذا ما أزال هنا.

ـ نعم، أنا من أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالقوة وبالقيم المطلقة. نحن الذين نطالب بإيمان آخر، ونحن الذين نعدّ النزوع الديمقراطي ليس شكلاً منحلاً من التنظيم السياسي فحسب، بل شكلاً منحطّاً وناقصاً للإنسانية التي يحوّلها إلى الوضاعة ويقلّل من قيمتها، أين نضع رجاءنا؟

كان قد غاص من جديد في كتابه معلّمه وشيطانه، نيتشه.

الفصل الثالث

خفّة الكائن

1

الساعة الواحدة بعد الظهر.

ريحٌ باردة بدأت تهبّ. إنها ريح الشمال. الناس جميعاً هنا يعرفون أنها لا توفّر البيوت ولا حتى البحر الذي سرعان ما يصبح غاضباً ومجنوناً. هنا لا يتساقط الثلج أبداً، ولكن السماء البيضاء تعطي الانطباع بأن عاصفة ثلجية ترتسم في الأفق.

نصف النهار بأكمله ذَهَب أدراج الرياح. إذ لم يظهر أي نورس. وهذا أمر غريب في هذه الأمكنة الصامتة التي تشبه قبراً مفتوحاً باستمرار. ومع ذلك كانت الليلة السابقة وفيرة المحصول. أكثر من ثلاثين خلال نصف نهار. كان غزال منهكَ القوى لكنه فعل ما بوسعه دافعاً طاقته إلى أقصى مداها. لقد سُرّ بما حقّقه، وإن بقيت الهَرَم نقطة ضعفه، لاسيما إذا اقتضى الأمر الجريَ وذرعَ المكان جيئةً وذهاباً بلا توقّف.

أما اليومَ فالأمر مختلف تماماً، إذ لم يطلق الكولونيل أية طلقة.

أدرك أنْ لا شيء يسير على ما يرام وأن الطقس أبرد من أن تغامر النوارس بالمجيء. وفي لحظةٍ ما فكّر أن يطلق النار على أي ظل يتحرّك لئلا يعود صفر اليدين. ولكن حتى ظلال الأشياء تلاشت.

لا أثر لروح تتحرّك.

وعند قدوم المساء، وبعد غروب الشمس لم يرَ أحداً، فما بالك بالنوارس. وبينما هو عائد إلى الشاليه التقى بعايشة البكّوشة على

الشاطئ، تلك الفنّانة التي لا تقول شيئاً (على أية حال هي لا تستطيع الكلام لأنها مقطوعة اللسان). أسرع غزال نحوها. لم يكن يعرف ماذا يفعل، كطفل صغير يلتقي فجأةً بأحد أبويه الذي لم يره منذ زمن طويل. داعبته، بينما بقيت عينا الكولونيل معلّقتين بسماء بدأت تسودّ. ثم ذهبت على طول الشاطئ، كعادتها عند كل شروق للشمس وغروبٍ لها.

أحسّ الكولونيل أمير زوالي بالتعب وبالقلق. كم تمنّى أن ينتهي من هذا النوع من الطيور الذي يوسّخ البحر بلا حياء! وها هو الآن، والنوارس لا تعطي أيةَ علامة للحياة، يشعر بشيء غير عادي في الحياة، بقلقٍ معين من صمتٍ فرضه الخوف من واقع ملتبس.

تبدو هذه الأمور الغريبة جديدةً عليه.

عندما وصل إلى الشاليه رأى أن الفوضى التي تركها في الصباح لم تزل كما هي. أقلقه كثيراً وجودُ المجلة الجنسية الألمانية التي نسي إخفاءها. كيف حدث أنه ارتكب هذا الخطأ الشنيع، وهو الشخص الذي يتّخذ احتياطاته باستمرار؟ صحيح أن ملذّات هذه السيدة الألمانية والحمام الذي أخذه أراحاه كثيراً ولكن ليس إلى درجة إزالة القلق نهائياً. لو مرّت عمتي خدّوجة مرورَها اليومي، فماذا كانت ستقول عنه؟ لحسن الحظ أن شيئاً لم يتغيّر. لكنّ قلقَ غيابها بقي. فللمرة الأولى يحصل ذلك. وعمتي خدّوج لا تؤجّل أبداً عملها إلى الغد. رغم راتبها الجيد، فإنها الغريبة الوحيدة التي يؤذن لها بالدخول إلى المنطقة مشدّدة الحراسة. وظيفةٌ حُلُمٌ. لقد استطاعت أن تحلّ كثيراً من مشكلاتها، وإن كانت مشكلة سكنها ما تزال معلّقة.

سرعان ما لاحظ غيابَها. ربما كانت مريضة! قال الكولونيل لنفسه. اتصل بالإدارة. لا شيء. قيل له حتى الآن لا أحد يعرف أخبارها. على أنهم وعدوه بأنهم سيخبرونه بأي خبر يأتيهم عنها.

فردّ منزعجاً: اللعنة! ولكن اتصِلوا بها!

- ولكن يا سيدي الكولونيل، ليس لها مسكن ثابت، إنها شبه متشرّدة.

وضع السمّاعة.

شعر أن شيئاً ما كان ناقصاً في الديكور العام للمكان. والأسوأ من ذلك أنه كلّما حدَثَ غيابٌ عادت أشباح الموت كلها لتطلّ برأسها. بصورة عامة، هي لا تغيب، وإن غابت فإنها تُخطِر بذلك قبل أسبوع لكي يتّخذ كل شخصٍ احتياطاته. لكنه لم يستطع إخفاء انشغاله بغيابها.

الآن صار متأكّداً من أنها لم ترَ شيئاً.

عمتي خدّوج، مجاهدة قديمة منذ اللحظة الأولى وزوجة أحد أوائل المحاربين القدامى في الثورة الوطنية في المنطقة واحد. ويقول سكان الـ م م ح (المنطقة مشدّدة الحراسة) لها إن هذه الخدمة مَكرَمةٌ لها. وعندما استقبلها مسؤول *عائلة الثوار الدائمين* في الاحتفال الذي أقيم على شرف عمال التنظيفات ومدبّرات المنازل، كرّر على مسامعها الكلام عينَه ووعدها بألا يألوَ جهداً لمنحها المزيدَ من المساعدة، ثم ختم كلامه بنبرة مسرحية مبالِغاً في مطٍّ كلماته:

- اس... معي... يا عم... تي خدّ... وج، دم سيٍ... أح... مد في... أع... ناقنا. لن نت... ركك تس... قطين..أبداً. إنه قسم... أق... سمته... له أس... رة المحا ربين... القدامى.

لم يفكّر الكولونيل إلا باحتمال المرض.

لم يستطع أحدٌ أن يذهب إلى أبعد من سور الشاطئ الكبير الذي يفصل بين العالمين. لطالما شعرت بأنها جديرة بالثقة، في زمن يغصّ بالشبهات والكذب.

2

هل الغياب هزيمة أم انتصار؟

لا جواب.

انصرم نهارٌ آخر دون أي ظل للنوارس ولا لعمتي خدّوج.

وغزال أيضاً لم يعد غزالاً منذ عدة أيام. وبدأ التعب يستوطن نظرته التي كانت برّاقة في الماضي. ولم يعد من شيء لديه على مايُرام؛ فقد بدأ بصرُه يضعف وبخاصة في داخل البيت، ويتعثّر أحياناً وتغدو مشيته كمشية سكّير عجوز في آخر درجات سلّم الحياة.

وكلما احتاج إليه الكولونيل كان يناديه ساخراً منه:

ـ غزال! يا أيها السكّير! انهض يا صديقي، حرّك إليَتيك. لديك كثير من العمل اليوم. هكذا هو الأمر، إما أن تكون كبيراً ونشيطاً أو لا تكون، هذا هو جوهر المسألة.

يترنّح غزال ويهزّ رأسه الكبير قبل أن يهتدي إلى الطريق المؤدي إلى صوت سيّده.

بقي الكولونيل أمير زوالي منشغلاً بهذا الغياب الذي أقلقه بغموضه، ربما لأنه كان غير متوقّع! أولاً غياب عمتي خدّوج التي لم تعطِ أية إشارة للحياة منذ عدة أيام، فوجد نفسه مضطرّاً لجلي الأطباق بنفسه وإلى ترتيب سريره، وسقاية الحديقة الصغيرة التي

زرع فيها الثوم والبصل والفليفلة الحمراء والنعناع. وكذلك غياب النوارس التي يبدو أنها سارت في طريق الانقراض، إن لم تكن قد انقرضت بالفعل.

وما وجده غير طبيعي هو هذا الرحيل الذي لم يترك أي أثر.

كان يشرب قهوته، عندما رنّ الهاتف للمرة الثانية:

ـ نعم، أنا الكولونيل أمير زوالي بنفسه.

تعرّف إلى صوت مدير الـ م م ح الجاف والصدئ:

ـ نعم يا سيدي الكولونيل، بخصوص عمتي خدّوج.

فجأةً بدا له وكأن نورسة بيضاء مرَّت كالسهم من أمام النافذة. ودون أن يتحكّم بتصرّف ألقى السمّاعة وركض إلى النافذة، ولكنه لم يرَ شيئاً على الإطلاق. عاد إلى مكانه خائباً وتناول السماعة وسمع من جديد صوت المدير:

ـ سيدي الكولونيل! سيدي الكولونيل! ماذا حصل للخط؟

ـ لا شيء يا بني، يبدو أنه قطع طارئ في التيار أو شيء من هذا القبيل. إني أسمعك.

ـ الأخبار الأولى التي وصلتنا تقول إنها وُجدت مذبوحةً في حرم مسجد في باب الواد بعد أن اغتصبها المجرمون. ثم، تماسك جيداً يا سيدي الكولونيل، لقد وُجد رأسها بلا عينين وبلا لسان منصوباً على وتد في الطرف الآخر من الشاطئ قرب جدار الفصل، غير بعيد عن منطقتنا. ووجدت جثّتها مقطّعة. والبحث جار عن قدميها ويديها لتجميع جثتها الممزّقة. ويقول الخبراء إن رأسها قُطع بأداة غير حادة.

كان المدير يجد بعض المتعة في سرد تفاصيل الجريمة. يتوقّف عندما يريد ويضخّم الصور عندما يرغب. أحسّ الكولونيل بألم وكأن نصلاً بارداً اخترق جسمه.

ـ اللعنة! كفى! تبدو وكأنكَ مسرور لما حصل لهذه المرأة المسكينة! يجب القيام بشيء ما. نحن حاربنا، فحاربوا أنتم. حاربوا بشكلٍ صحيح أو دعونا نحارب.

ـ أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً، يا سيدي الكولونيل.

ـ إذن ربما أستطيع أنا أن أفعل شيئاً ما!

ـ ولكن يا سيدي الكولونيل، أنا لم أقل ذلك، إننا في طور مراجعة خطتنا الأمنية، من باب الاحتياط، لأننا نفترض أن تكون قد أفشت بعض الأسرار تحت التعذيب. بل إني وجدت نائبةً مؤقّتة عن عمتي خدّوج، يمكنها أن تنوب عنها بدءاً من الغد. حياة الجيران ليست لعبة. فقد اخترتُ ابنة عمي، وهي امرأة جديرة بالثقة. وسوف نخبركم بما يحصل يا سيدي الكولونيل.

ـ كل هذا شيء تافه. في هذه البلاد، الهاربون المزيفون هم من أوصلونا إلى التهلكة. شيطاني ومعلّمي يقول: أي رفعٍ للنوع البشري، كان وسيبقى دائماً من عمل مجتمع أرستوقراطي، مجتمع يؤمن بعدة درجات من التراتبية والقيمة بين البشر، مجتمع يطالب بالعبودية بطريقةٍ أو بأخرى.الشعور المشبوب بالمسافات يولد من الفارق الشاسع بين الطبقات الاجتماعية ومن أن الطبقة المسيطرة تُلقي بنظرها من علٍ على الرعايا وعلى الأدوات، وعلى الأعراف التي تصنعها من الطاعة ومن القيادة، ومن الفن الذي يُبقي السافلين في الأسفل وعلى مسافة معينة. ومن ناحية أخرى من المستحيل هوًى آخر أكثر سريةً، والرغبة الملتهبة في إنشاء مسافات داخل النفس، من أجل إنتاج حالات أكثر فأكثر ارتفاعاً.

ـ إن هذا يتجاوز فهمي يا سيدي الكولونيل. أنتَ مؤهَّل أكثر لإطلاق حكم. ما نحن إلا فنيّون لا أكثر ولا أقل. سوف أبلغك بكل ما يحصل يا سيدي الكولونيل.

ـ سوف تندمون يوماً. أنتَ لا تعرف، أيها الرجل الآلي عديم الروح، أن اختفاء الأنواع الفريدة وتفسّخها هو أكبر وأرهب لأن

معها غريزة القطيع وقيم التقاليد ووسائل الدفاع الأكثر بشاعة. ولكي تزدهر يلزمها فضل المصادفة إلى جانبها. ولكن لا تبتئس، الكبار هكذا، يختلفون عن الصغار في أنهم يعرفون كيف يكونون أقوياء في كل مكان توجد قوة.

عندما تثور أعصابه على الخدم الصغار في الدولة، يشعر بعظمةٍ معينة وبحرية معينة في تعبيره، هو الذي طالما حسب كلماته أمام رؤسائه. وعندما ينادونه يا سيدي الكولونيل يشعر بفخرٍ بلا حدود. ويشعر أيضاً بأن قيمته الصاعدة ما تزال موجودة، وبأنه سيكون نموذجاً يُحتذى به لكثير من الأجيال.

لم يكن يكف عن القول: آه، لو لم يكن هؤلاء المسؤولون أنانيين! ولكن هكذا هي الحياة، يجب أخذها كما هي. سيأتي اليوم الذي سيُعاد إليّ فيه شرفي كله. أتصوّر أن الفنانة هي الشخص الوحيد الذي يفهمني. هي الأكثر صمتاً والأكثر تكتّماً، إذن هي الأعمق في هذا الفراغ كله. هي ليست بعيدة عن إتمام شيء ما. وتمثال معين لن يكون إلا اعترافاً، حتى لو كان متأخّراً. أنا أحب كثيراً الناس من أمثال عايشة البكوشة الذين يعملون بصمت وتواضع ولكن بفعالية كبرى.

3

ـ هاهي أخيراً!

أطلق الكولونيل أمير زوالي صرخة ارتياح على الرغم من البرد وجفاف حلقه، أطلقها وبندقيته في يده ونظرُهُ تائهٌ في صحراء زرقاء ممحوّة الحدود.

ـ أوف... لقد تأخّرت.

أمعن النظر إلى رف النوارس القادم من بعيد، وجهّز بندقيته للمرة الأخيرة. وخلافاً لأي توقّع لمح بقعة مختلفة في الرف، فأدرك بغريزته كصياد خبير أن هناك عصفوراً تائهاً داخل الرف.

ـ ليس للخردق عينان، وعندما ينتشر في السماء يحصد ضحايا بصورة عمياء.

حاول أن يُبعد الطائر.

أطلق طلقةً ثانية في الهواء لتفريق الرف ولإعطاء إمكانية جديدة للطائر المجنون لكي يفهم ويصحّح طيرانه. صعد الرف بأكمله في السماء ثم تفرّق إلى مجموعات صغيرة من ثلاثة طيور وابتعد نحو أعماق البحر ونحو أفقٍ رماديٍ التَهَمَ كلَّ لونٍ أبيض. وحدَه الطائر التائه استأنف طيرانه وكأن شيئاً لم يحدث، وكأنه أصمّ عن الطلقتين التحذيريتين.

شعر الكولونيل بانزعاج عندما رأى تباشير حظه تتبدّد كموجةٍ

داخل المحيط. تساءل: كيف يمكن لطائر تعيس ليس له اسم أن يقع في طريقي؟

- إنه مغامر! ألم يجد أفضل من النوارس؟ لستُ أدري لماذا يستيقظ بداخلي هذا الجانب الإنساني أحياناً. مَن ارتكب الحماقة يجب أن يدفع ثمنها. هكذا صُنعت الحياة. عندما يقترف الإنسان حماقة المرور بجانب سيارة محشوّة بالـ ت.ن.ت وتنفجر، فإنه يلقى حتفه حتى لو كان لا يعرف شيئاً. ومن لا يعرف شيئاً، أيضاً، عليه ألا يبكي إلا على جهله. وبدلاً من أن ينمّي هؤلاء غريزة الذكاء نمّوا غريزة القطيع. ويجب إسقاطها. ولكن أحيانا لا يمكن محو أخلاق الفروسية. أنا لدي مشكلة يجب أن أسوّيها مع النوارس البيضاء، ولا علاقة لذلك هنا.

طار الطائر التائه بعض الوقت ثم حطّ على بعد عدة أمتار من الكولونيل وراح ينظر إليه بعينين مستديرتين مليئتين بالتحدّي. فتح الكولونيل عينيه واسعاً، فقد تبيّن له أن هذا الطائر يشبه النورس، بل هو نورسة حقيقية.

- لم أرَ ذلك في حياتي! يا إلهي، ما هذا؟ نورسة وردية! لقد رأيتُ نوارس سوداء أحياناً، وبيضاء رأيتُ وقتلتُ منها المئات، أما وردية، فهذا جديد في هذه الصحراء. إذن هذا ما يسمّون الضاحك! لا يمكن أن يكون إلا هو. سأرى ذلك حالاً في قاموس الطيور. يجب أن أتأكّد قبل القيام بأي شيء آخر، هكذا علّمتني الحكمة.

ما زال الطائر ينظر إليه بثقةٍ ما، دون أن يدنو منه أكثر من مسافة معينة. كانت عيناه الصغيرتان كلؤلؤتين صغيرتين مليئتين بألوان الشمس ذات قيمة لا مثيل لها، تمعنان النظر إلى الكولونيل وإلى محيطه القريب.

اقترب الكولونيل بهدوء فابتعد الطائر قليلاً محافظاً تقريباً على المسافة ذاتها التي فرض على نفسه احترامها عندما حطّ أولَ مرة.

كان أمير زوالي قد وضع طلقتين في بندقيته، ولكن لم يكن الأمر محسوباً أبداً. تساءل: ماذا عليّ أن أفعل؟ هل أقتل هذه النورسة المجنونة التي يبدو أنها لا تعرف أبداً الخطر الذي يُحيق بها؟ ليس لدي شيء تجاه النوارس الوردية، ولا حتى السوداء. لماذا أقتلها وهي لا تذكّرني بشيء؟ لا تعني لي شيئاً أبداً، بل إنها غير مبرمجة في رأسي.

ما تزال النورسة هنا ترمقه بنظرات وقحة وساخرة. غيّرت وِقفتَها، ولم تعد تحرّك رأسها ولا تغمض عينيها. لقد انغرست في مكانها إلى درجة أن غزالاً المُتعَبَ بَذَل جهداً فائقاً في الاقتراب منها. وكلما دنا منها غيّرت مكانها محافِظةً على البعد نفسه.

علّق الكولونيل: إنها ليست غبية أبداً هذه النورسة الوردية، هذه الوردة الصغيرة.

- حسن، روزيت! إنه اسم جميل لطائر تائه على هذا الشاطئ. وعندما يتعلّق الأمر بالحياة، فإن الكائن يتمسّك بها بجنون.

كان غزال مستمتعاً بهذه اللعبة. فعندما يدنو تبتعد. ثم غيّر مشيته وصار يتسلّق الرمال من الخلف دون أن يُحدث صوتاً، فصارت تتحرّك متراجعةً، وعندما انقضّ عليها ابتعدت محافِظةً على مسافة الأمان عينها.

وصارت الحركات المتكرّرة لعبةً عند غزال، فقد صارت روزيت له.

لكن قلق الكولونيل ظلّ بادياً.

وعندما أراد المغادرة رفض غزال. فأمسك به من رسنه وجرّه خلفه. شعر بألم حقيقي في فعل ذلك، فقد كان غزال ثقيلاً كالرصاص، وأخذ يبذل جهداً مستميتاً في الشدّ إلى الخلف. وعندما ذهبت روزيت تخلّى عن مقاومته لسيّده وراح يسير بسلاسة.

بيد أن خيبة أمل الكولونيل لم تنقص. أَسِفَ على إنسانيته التي

خسّرته ما لا يقلّ عن دستة من النوارس. إنها مأساة تربية الأسلاف. وقال لنفسه: إن التردّد هو ما يُهلكنا.

على ما يبدو نحن نتّجه نحو العدم ونَفْي كل ما يمكنه أن يصنع كبرياءنا. لا أحد يتنبّه لما ينتظر هذا البلد عند المفترق. فعندما يطلب قاتلٌ كبير، واحدٌ من أعتى المجرمين الذين أنتجهم غياب الدولة، أن توقف محاكمتُه لأن المؤذّن يدعو إلى صلاة الظهر، ويستجيب القاضي لرغبته، فتلك نهاية النهايات. أذكر أن القاضي فوجئ بطلب كهذا. نظر إلى الناس خلال دقيقة دامت طويلاً قبل أن يعلن تعليق الجلسة لمدة ربع ساعة لكي يتيح للجميع أداء واجبهم الديني. وأعاد المتهم على القاعة كلّها ما قاله القاضي بخجل: من يرغب في أن يؤدّي الصلاة في موعدها فليفعل. ونصّب المجرم نفسه إماماً ووقف خلفه الحاضرون القلائل وكذلك بضعة محامين، وكذلك القاضي الذي وجد نفسه وحيداً، انضمّ إلى القطيع تحت ضغط النظرات. يا إلهي!، لقد كان نيتشه محقّاً تماماً. أخذ وقته كاملاً، وتحوّلت ربع ساعة القاضي بكل سهولة إلى نصف ساعة.

ـ على المجرم أن يدفع ثمن جريمته. نقطة انتهى. فهذه ليست جريمة ترابندو، بل إنها جريمة لا تغتفَر. والبشرية سيئة التوضّع تتحوّل بسهولة إلى مأساة عصيّة على السيطرة، بحماقة مجرَّدة من كل حسّ.

كان من العسير على الكولونيل أن يبرّئ نفسه، كان عليه أن يتصرّف بحزم أكبر. بما أن الطائر غامر، حسن! فعليه، وعليه وحده تقع تبعة فعلتِه. فقد عادل تردّده انغلاق السماء في وجهه.

لم يعد هناك من نوارس.

ـ سحقاً! هذا درس يجب ألا أنساه أبداً.

4

لم يكن بوسعه أن يخفي دهشته، فهذه هي المرة الأولى التي يحدث له فيها هذا. نوع جديد من النوارس يولد. سلاح مميت. نسل جديد يجب استئصاله. هذا ما تخيّله على الأقل.

ـ نورسة وردية! هذا ما لم يره قطّ!

ولكن هل كانت نورسة؟ علامة أي شيءٍ يريدون أن ينقلوا إليّ؟ ولماذا في رفٍّ من النوارس؟ لا، ما هو مؤكّد أن هذا الطائر الوردي نورسة قبل أي شيء آخر، وانطلاقاً من هذا يجب النظر إلى تفاصيل هذه المشكلة التي لم أكن أنتظرها. أنا أجد نفسي مواجَهاً، وأنا الكولونيل، نمر الرمال، الذي خاض كل الحروب الوطنية والعالمية في العصر الحديث، من طائر قلَبَ عليَّ برامجي كلّها!

ظلّ الكولونيل قلقاً طوال السهرة. لم يُعطِه قاموس الطيور الذي استشاره أية تفصيلات شافية، ولم يُشبِع فضولَه. تعريف مجتزأ: *اسم مؤنث، قريب من زمّج البحر ولكنه أصغر حجماً، النورس الضاحك الوردي، مع طوق أسود في الرقبة أو لاروس ريديبوندوس وهو نوع نادر جداً. وهو يشبه ثلاثيات الأصابع، من دون إبهام، ويعشّش وحيداً أو ضمن مستعمرة مع النوارس البيضاء على الجروف الصخرية.*

وبينما كان يضع معجم الطيور في المكتبة رأى النورس

لتشيخوف، وهو لم يعد إلى هذه المسرحية منذ أن أنهى قراءتها، منذ أكثر من ربع قرن.

ـ لا، هذا لا يكفي. فهذا ليس تعريفاً لهذه المصيبة. وتشيخوف كان على حق بكتابة هذه المسرحية ذات الفصول الأربعة لأن اسم هذا القدر مرتبط بالمآسي. لم يتغيّر شيء منذ ظهور هذه المسرحية، منذ ما يقارب القرن. وبقي اسمه هو الدالّ على المأساوية، نينا زارشتانيا. المسرحية المتعلّقة بفنه، كهذه الخرساء المخبولة، ومنقسمة في حب رجلين، عليها أن تموت. لقد كان بوريس تريغورين محقّاً جداً بعد أن جعلها تحمل طفلاً. كان يجب عليها أن تنفق لأنها كانت كنورسة ضاحكة.

وأخيراً عوى الكولونيل وهو يقفز:

ـ ولكن نعم، هكذا! إنها نورسة ضاحكة! وقد كان بوريس تريغونين سبب موتها. هذا هو طرف الخيط الذي سيدلني على الطريق الصحيح لاستئصالها.

كانت السلحفاة نجاة قد أبقت قدمها اليسرى في الخارج طوال النهار، الأمر الذي لم يكن مطمئناً أبداً. تقول عجائز باستوس إن هذا علامة الموت أو الغياب. هو يؤمن بذلك حقاً رغم أنه لم يعرف أبداً مصدر هذا الإيمان.

وتبينَّ له أن المشكلة التي ظنها شكليةً معقّدةٌ أكثر مما كان يظن. ولكنه كان يعرف تماماً أنه سائر على الطريق الصحيح حتى لو لم تكن الأمور بهذه السهولة، لأن ذلك يتعلّق بوجوده نفسه. بل إنه تساءل إن كان سيحرق سارة بريكسي لو أنها لم تكن ترتدي الملابس البيضاء ولم تكن تشبه نورسةً بيضاء. لو أنها كنت تلبس الملابس الوردية في ذلك المساء، فهل كان قدرها سيتغيّر؟ والعجوز التي رآها تطير من أعلى شرفتها إلى الأرض في مدينة عنابة، أما كان سيغفر لها جنونها عندما ألقت طاولةً على رأسه، لو أنها لم تكن عجوزاً ملتفّةً كلياً بثياب حاجة بيضاء؟ وإذا قبلنا أن الوردية كانت

نورسة، فهل كان يجب عليه إبقاءها على قيد الحياة؟ لماذا لم يُردِها عندما كان ذلك واجباً؟

وأسئلة كثيرة أخرى اجتازته دون أن يتمكّن من الرسوّ في مرفأ ليستريح.

أمضى الليلَ محاولاً أن يحفر مادته الرمادية بجهود خارقة لإيجاد جواب يقنعه. بدا له كلُّ شيءٍ مختلِطاً. كان يجب عليه أن يفرّق بين التفاصيل وأن يحاول الاقتراب قليلاً مما هو أساسي في مشكلته. فهو لا يريد أن يقوم بأمر يندم عليه طوال حياته. أن يتخذ قراراً خطيراً لا يخصّ الوردية فقط: هل يجب عليه أن يقتل النوارس الوردية في المستقبل؟ ولكن هذا قرار يجب عليه أن يُتَّخَذ في أقرب وقتٍ ممكن، وإلا سيفوت الأوان حقاً ويصبح كل ما يؤجّله إلى موعد لاحق عصيّاً على السيطرة.

عندما دقت الساعة منتصف الليل خرق صمتَه بصرخة فرحٍ حادة:

ـ هورا... هورا... أخيراً وجدتُها!

اتخذ أولاً القرار النهائي واستسلم لمتعةِ التمدّد على سريره مكافأةً لجدّيته، وليستريحَ من التعب المضني الذي كان يحسّ به في سائر جسده. الآن، يجب النظر إلى المشكلة بشموليتها، وبتفاصيل معينة بقيت بلا حل، وهي سوف تظهر بكل تأكيد في الأيام القادمة.

تساءل الكولونيل: ربما غزت النوارس الوردية الشاطئ كله! بعد أن تكون النوارس البيضاء قد أُبيدت كلياً أو جزئياً وبعد أن يكون الباقي قد فرّ مختلطاً بطيور السنونو، طيور الجنة، لئلا تعود أبداً إلى هذا المكان الذي لا يتحمّل وجودَ الكولونيل وغريمه في آن واحد. كان يجب أن ينطلق من منطق ظهرت براهينه.

ـ وهذا هو منطقي:

كل نورس سيموت

الوردية الضاحكة نورسة

إذن الوردية يجب أن تموت.

هذا ما كان وما سيُطبَّق من الآن فصاعداً على النوارس من كل الألوان. وبدءاً من الغد سيُطبّق القرار على الساحل كله. يجب أن يُنظَّف هذا البحر كما لم ينظّف من قبل، ويجب أن أعيد قراءة مسرحية النورس لتشيخوف لكي أكتشف أسلحةً أخرى. في الحالة التي أنا فيها، يجب ألا أترك شيئاً للمصادفة. وهذا ما يسمّى العمل الجيد الفعّال.

على سريره أخذ يكيل الإجلال لقراره الذي لم يكن تافهاً أبداً. إنه خيار اتّخذه على أساس من الوقائع الحقيقية. فقد اكتشف أولاً أن نورسةً وردية هي نورسة. أي إنها جثة تُصدر أصواتاً وضرراً أكثر مما تفعل من خير، هيكل عظمي يسبّب من الألم أكثر مما يسبّب من الخوف. بعض الرومانسيين يقول إن حضورها في البحر يعطي هذا الأخيرَ صوتاً يجعلنا نحلم إذا ما تمازج مع صوت الأمواج. قال ساخراً:

ـ بوووووف! إن النورس سيء البنية، مليء بالعظام، بل إنه غير صالح للاستهلاك. يوسّخ البحر بوجوده، بالإضافة إلى أن لونه الوردي علامة للالتباس وحتى للمصيبة. والندرة ليست أبداً مرادفاً للجمال.

حتى عندما منح نفسه الوقت لدراسة هذه الظاهرة الجديدة ومحاولة الفهم، لم يفهم شيئاً. وحتى في كتاب النوارس، الكتاب الذي اشتراه بثمن باهظ، لم يجد شيئاً يُذكر، الأمر الذي عزّز قناعته حول هذا الطائر النادر الذي ليس له أي موقع للوجود، من هنا يأتي طبعه الخطر، لأن بعض الأشياء المتروكة لرغبة الطبيعة يمكنها أن تسبّب وضعاً خارج السيطرة. ولا حتى في كتاب الحيوانات الكبير الذي استشاره بهذه المناسبة لأنه كلما واجهته مشكلة وجد فيه أجوبتها، وهذه المرة لم يكن الأمر كذلك أبداً.

بعد هذه العذابات كلها قرّر الكولونيل أن ينتهي منها مرةً واحدة وإلى الأبد، حتى وإن لجأ إلى منطق لم يعد معاصراً للأسف.

ـ فليكن ما يكون! سوف تنتهي النورسة الوردية وأخواتها من كل الألوان جميعها بالنار. نقطة انتهى. قرار لا رجعة عنه. الوردية علامة شؤم، على الرغم من لونها. إذن يجب أن تختفي هذه العلامة نهائياً كأخواتها البيض.

غَمَره ارتياحٌ حقيقي قبل أن يتناول كتاب سريره ويستمع إلى الشيخة ريميتي، بل إنه نسي القلق الذي لازَمَهُ طوال النهار متشبّثاً بحلقه. حتى السلحفاة نجاة شاركته فرحته فشربت ماءً كبقرةٍ صغيرة، وهي التي لم تضع قطرة ماء في فمها منذ عدة أيام. وفجأةً تذكّر الخرساء عايشة البكّوشة.

ـ آه، يا لهذه الفنانة المجنونة! ليتها رأت تلك النورسة الوردية وهي تلاعب غزالاً، كان ذلك سيلهمها بكل تأكيد في عملها على تمثالي الذي يمكن أن أتصوّره الآن وأنا انظر إلى عينيها وهما تنعمان النظر إليّ. رجل طويل، له هيئة سيدي بوزيان الكلاي أو دانتون، عند قدميه كومة من النوارس المحروقة وغزال يلعق حذائي كعادته. لا أرى احتمالاً آخر. لو أنها رأت الوردية لأضافتها ولوّنتها باللون الوردي. أخيراً لنترك الفنانة مع أفكارها الجميلة، لابد أنها ستجد الفرصة في رؤية نوارس وردية أخرى على هذا الشاطئ لن تكفّ عن إثارة استغرابنا وتحدّي وجودنا الهش. ربما أمضت ليلتها كاملةً في وضع اللمسات الأخيرة على تمثالها. إنها تنظر كثيراً وتخزّن بنظرها الذي لا يعاني من أي ضعف. الوجوه التي أنجزتها هي ثمرة عمل راقٍ. هذا هو الفنان. لا بدّ من توافر شرطٍ أساس لكي يكون هناك فن، أو أي عملٍ أو تأمّل جمالي مهما كان: السُكْر. يجب أن يرفع السّكر حساسية أيةً آلة. كل أنواع السكر، مهما كانت مشروطة بكل الأنواع الممكنة، لديها قدرة فنية: وقبل كل شيء سكر الإثارة الجنسية. هذا الشكل من السكر هو الأقدم والأكثر بدائية. الخرساء تمتلك كلَّ هذا البحر الذي ليس له حدود ولا قرار.

سيأتي اليوم الذي سأنقل إليها فيه ما أفكّر به عما فعلته بي، وسأحكي لها عن نظرتي حول كل جهودها كفنّانة، وسأمنحها ليلة جنون مع الرجل الذي امتلكني بكتبه، واليوم لا يطلب مني حتى الإذن، بل يعبرني كبرقٍ ليس له أيٌّ من الحدود المعروفة. سأقول لها وسأرغمها على سماعي. لن تكونِ أبداً سارةً أخرى. ولن تعرف أبداً قصتي مع أساس الشرورِ جميعاً تلك.

وضع كتاب سريره على رأسه وحاول أن يتخيّل الخرساء وهي تنهي عملها وشعرها الأشقر يطير مع نسائم الصباح التي سرعان ما تتحوّل إلى رياح تهبّ على الشاطئ طوال الشتاء.

انساق بهدوء إلى حلم بلا آلام وبلا ألوان، ولا يؤدّي إلى أي مكان.

ـ النوم صعبٌ عندما نكون تحت صدمة اكتشاف مفرح.

مدّ يده بهدوء إلى مجلاته الجنسية القابعة بين حديد السرير والفراش، وأمعن النظر إلى ألمانيةٍ متعطّشة، داعب بعينيه سائر جسدها المليء بالاستدارات والسحر، وفكّر جدّيا بالاستحمام. لا، إنه أكثر تعباً من أن يقوم بذلك. ففكّر بشكل مختلف.

ـ في حالتي هذه، تكفيني امرأةٌ أفريقية، فهي أكثر بدائية، وأقلّ إحراجاً.

الفصل الرابع

من أعلى القمة

1

واحدة...

نبح غزال المتعلّق بحزامه بأقصى قوته، وسحب معلّمَه قليلاً إلى الأمام فتعثّر وانطلقت الطلقة الثانية بدورها، بصورة أسرع من المتوقَّع، في الهواء، ولم تُصب إلا السماء الفارغة، السماء النظيفة كالزجاج.

- حيوان قذر!

وجّهَ كثيراً من اللوم لغزال، فهذه ليست عادته. إذ إنه، بصورة عامة، يتبع حركةَ سيّده أولاً، ويكنس معه السماء بنظره، ويبحث ماإذا كان هناك نوارس مصابة لينقضّ عليها بعد أن يكون قد تحرّر من الحزام العسكري السميك الذي يتمنطق به الكولونيل. أما هذه المرة، فقد تصرّف كهاوٍ جاهل.

تفرّقت النوارس، مثل أمس تماماً، وابتعدت في مجموعات مكوّنة من ثلاثة، وامّحت في الأفق الذي كان ما يزال بنفسجياً، حتى قبل أن يستعجل غزال الحركة الثانية.

النورسة الوردية هي الوحيدة التي ما تزال تطير دون قلق. كانت تصطاد بحريةٍ الأسماكَ التي تغامر بالاقتراب من سطح البحر الهائج. تابَعَها الكولونيل بنظره قبل أن تأتي لتحطّ غيرَ بعيدٍ عن غزال الذي كان يريد بأي ثمن أن ينطلق ليلاعبها، لكن الرسن المربوط إلى حزام الكولونيل لم يكن ليمنحه هذه الحرية.

أخذ ينظر إلى شكل الطائر وكأنه يكتشف هذه الظاهرةَ أولَ مرة.

ـ النوارس الضاحكة معروفة بوقاحتها وبشكلها غير الطبيعي.

منح الكولونيل أمير زوالي نفسَه كل الأعذار لكي يكره جميع هذه الطيور النحيلة والمتغطرسة إلى درجة أنه يرى لزاماً عليه أن يمحوها من الطبيعة نهائياً.

منح نفسه العذر. الوردية ليست الوردية، ولكنها نورسة وُجدت لتُسقَط بلا رحمة. شعر أنها مسؤولة نوعاً ما عن الفوضى التي تعرّض إليها بغباء. فإخطاؤه الهدفَ أمرٌ نادر جداً. عصَرت قلبَه قَرصةٌ صغيرة، ولكنها كانت عابرة، فهو يعرف جيداً أن ذلك بسبب حماقة غزال الذي أساء حساب ردّة فعل سيّده واستبق أفعاله. المهم هذه المرة ألا يُخطئ هذا الحيوان التعيس.

ترك الكولونيل كلبه فانطلق مقترباً من الوردية التي أخذت تعاود لعبتَها التي لعِبتْها بالأمس. شعر غزال بأنه حرّ جداً. وبعد أن حاول عدة محاولات أيقن باستحالة المتابعة بهذه الطريقة. حوّل كل شيء إلى لعبة ممتعة بانتظار اللحظة المؤاتية.

نسي عمره المديد.

يشعر الكولونيل الآن أن ليس هناك من حل آخر إلا أن يُردي هذه الطائر اللعين بطلقة من الخردق في رأسه. على أية حال، لقد اتّخذ القرار منذ البارحة، ولا مبرّر للتراجع وإلا فإن كل شيء سينهار. لاسيما أن لدى الكولونيل شعوراً بأنه ملاحَق ومضطهَد من الجميع. طلب إلى غزال أن يأتي لكنه لم يُطع أمره. كان يروح ويجيء حول النورسة، يقوم الأعمال الممكنة كلّها لئلا تلاحظ وجوده، فيزحف على بطنه وينقلب على ظهره كطفل صغير ويقوم بألعاب بهلوانية، نائماً على الرمال وعلى الماء، ملتفّاً حول الوردية التي لم تنسَ لحظةً واحدة جدّيتها ومهارتها.

وبقيت محافظةً على مسافة تفصلها عن الكولونيل وكلبه.

ناداه إلى الطاعة مرةً أخرى:

- نحن لا نلعب ياغزال. والمهمة مهمة. اللعنة! هل أصابك الصمم أم ماذا؟ دَعْ هذه الألعاب، فأنتَ لم تعد جرواً، يا صديقي. هيا، تعال، حرِّك إليتيك! هذه نورسة ضاحكة، العالم لا يعني شيئاً لها.

لكنَّ غزال ما يزال غيرَ مُدرك أن أحداً يناديه. لم يرفع رأسه إلا عندما أعاد الكولونيل لفّ رسنه حول رقبته ثم أعاد ربطه بحزامه. ابتعدت النورسة قليلاً ولكنها ما زالت في ساحة رؤية الكولونيل الذي سدّد إلى رأسها. بدت له أسمن من حجمها النحيل.

- سترين أني سأجعلك رماداً يا طائر النحس!

ضغط على الزناد. واحدة... اثنتان... لا شيء. لقد حملت الإثارة غزالاً فأعاد حركاته السابقة وهو يشدّ إلى الخلف.

ثارت أعصاب الكولونيل فربطه إلى إحدى الصخور.

- اهدأ الآن، وعندما سأرميها سوف أدعك تلعب بجثتها قبل أن أحرقها. ابقَ هادئاً.

جثا الكولونيل على ركبتيه، وشحن بندقيته. سدّد نحو الرأس جيداً. كان الطائر قد غيّر مكانه متراجعاً صوب البحر، وصار جزء من قدميه داخل الماء، لكن نظرته التائهة لم تتبدّل. وعندما نظر إلى عيني النورسة اللتين لا ترحمان رأى وجهَ سارة بريكسي، ورديأ تماماً وجميلاً كوجه دمية صينية، بعينين، ما إن تمعنان النظر إلى شخص، حتى يفقد توازنه ورصانته. سرعان ما غزا الكولونيل خوفٌ غامض. فهذا ما يصنع سحرها. وهي لم تكن مسطَّحةً كبقية نساء الكولونيل. نار هادئة تتحول بسرعة إلى حريق كفيل بإحراق كل شيء بلا تردّد.

كانت ساحة رؤيته محسوبة بدقة، فقد تموضع جيداً، وضُبطت زاوية الإطلاق جيداً، ودُرست بكل تفصيلاتها. وهامش الخطأ معدوم. إحدى الطلقتين لن تترك أي حظّ بالحياة لدريئة الكولونيل المسكينة.

هزَّ البحرَ نسيمٌ خفيف، تراجعت النورسة ثلاثة أمتار تقريباً وتركت جسمها يتأرجح على الماء. غطّت موجةٌ قدميها، ومرّت على رأسها وجسمها المتسامق في الفضاء. كانت مستعدّة للطيران في أية لحظة دون أن تغادر الكولونيل بنظرها وكأنها تبارزه.

غمغم الكولونيل:

ـ بعيدة قليلاً، ولكن ليس لكِ من حظ، هكذا ياورديتي.

ران صمتُ مطبق دهراً، ثم ضغط على الزناد فجأةً. انطلقت الطلقة الأول وتبعتها الثانية بعد أن غيّر الكولونيل قليلاً زاوية الرمي، لأن النوارس عندما تطير تميل دائماً نحو اليمين. الجناح الأيمن نامي العضلات أكثر من الجناح الأيسر. الطلقة الأول تجرح عادةً، والثانية تصيب في مقتل.

خلال جزء من الثانية التي تلت الطلقة الأولى تحمّس غزال وأخذ ينبح بقوة، ثم أخذ يعوي كذئب عجوز تاه وحيداً في مجاهل غابات الأمازون وهو يبحث عن رفقة مستحيلة. ثم لا شيء، فقد صعدت كتلةٌ من الماء ثم نزلت على شكل قطرات كموجة متكسّرة على رصيف مرفأ.

ـ اظهري الآن، أيتها القذرة!

ثم أطلق كلبه لكي يأتي ببقايا نورسة وردية تجرّأت وأتت إلى مُلكه لكي تهينه. أبداً! جرى غزال في كل الاتجاهات، ثم وقف لحظةً ورفع رأسه نحو سماء ترمّدت فجأةً وأخذ يقفز على الرمال كمجنون.

لقد كانت النورسة ما تزال في السماء تقوم بأنصاف دورات أطارت صوابَ الكولونيل ولم يصدّق عينيه.

- كيف حدث أنها لم تمت؟!

نفّذت النورسة عدة جولات في السماء قبل أن تنقضّ كطائرة مطاردة على البحر مباشرةً وتصعد ثانيةً وفي منقارها سمكة. ثم اختفت في غيمة رمادية ممتزجة مع الأفق الذي بدا بلا ألوان ثابتة.

2

خمسة أيام كانت تتشابه في مرارتها منذ أن ظهرت النورسة الضاحكة. نورسة تزن أقل من كيلوغرام من اللحم السيئ وكيلوغراماً من العظام، تعانده! إنها أعظم التفاهات، وهو الذي خاض أعظم الحروب.

في ذلك اليوم، عاد مبكّراً قليلاً، دون أن يخفض ذراعيه. فهو يعرف معرفةً حقةً بأنه سينال من هذة المخلوقة السيئة، وما هي إلا مسألة وقت. ها قد جرّب ثماني طلقات دون أن يصيب أو يُقلق هذه النورسة اللعينة. في لحظة معينة شعر بأنه أصابها. بل إنها هوت باتجاه البحر، لكي تستريح لحظةً على موجةٍ أخذت تؤرجحها.

كان الطقس بارداً جداً. وكان قد قرّر أن يلاحقها. ركب فلوكا الصياد العجوز التي تُركت ممدَّدة كميت على هذه الصحراء الزرقاء منذ أكثر من سنة. قال بعض الناس إنه مات. وقال بعضهم الآخر إنه مُنع من الدخول بعد أن دخلت الموانع الجديدة حيّز التنفيذ.

أخذ غزال ينبح كالمجنون. كان يريد أن يرافق الكولونيل ولكن عبثاً. كانت الوردية ما تزال موجودة، على إحدى الأمواج تتمايل خفيفةً كريشة. كان متأكّداً من أنها اللحظات الأخيرة من عمر هذه النورسة المجنونة. كلما كان يقترب، لم تكن تبذل أي جهد للابتعاد كعادتها. الأمر الذي منحه بعض الفرح غير العادي وبعض الثقة.

شحن البندقية من جديد، ولكنه شعر بسائل بارد على إليتيه.

تراجع قليلاً إلى اليسار، لقد كان ذلك بسبب الماء الذي دخل من نقطتين أو ثلاث من الفلوكا. نظر لحظةً إلى النورسة دون أن ينبس بكلمة قبل أن يقفل راجعاً قبل أن تغوص الفلوكا في عمق البحر. لاقى صعوبات كثيرة لاسيما مع الأمواج التي أخذت تتعالى.

عندما وصل إلى الشاطئ نظر إلى النورسة نظرةً أخيرة قبل أن يدخل إلى البيت مبكّراً قليلاً جارّاً خلفه غزال الذي لا يريد أن يغادر ذلك المكان.

كانت الساعة الثالثة عشرة عندما دخل إلى البيت أخيراً ومؤخرته مبلّلة. حاول أن ينسى نورسة المصائب كلّها هذه، بل قرّر أن يهملها. وبدأ يعتقد أنها ليست نورسة عادية. ثم قرّر ألا يفكّر بها بعد ذلك، وأن يكرّس ما تبقّى من يومه لأعمال البيت. عمتي خدّوج قُطع رأسها، ونائبتها لم تظهر بعد في هذه المنطقة وإن كان بعضهم قد أكّد أنه رآها تبدأ عملها في منطقة الوزراء وشاليهات أعضاء البرلمان. فجأةً سمع صوت الجرس. وكان واثقاً من أنها هي. فتح الباب فلم يرَ إلا شعاع شمسٍ ظهر ثم اختفى بسرعة منكسراً على صلعة ميمون لابارلوت الذي كانت برودة وجهه لا تُطاق. دون أن يتكلّم ناوله مغلّفاً أصفر عليه شارة خارجية حمراء: عاجل. ثم انصرف دون أن يحيّيه. ومع ذلك لم يكن هذا التصرّف من عادته. شعر من نظرته أن شيئاً ما ليس على ما يُرام. فتح الرسالة ثم قرأ:

الرجاء مغادرة هذا المكان في مدة أقصاها أسبوع. الإدارة (بتوجيه من رئاسة الحكومة.)

بقي صامتاً برهة طويلة. أمسك الهاتف. وقبل أن تثور أعصابه، كان صوت ميمون لا بارلوت حاضراً، فارغاً، ولكنه واثق من نفسه.

- ليس أنا من يتّخذ القرارات يا سيد أمير زوالي.

ثم أنهى المكالمة.

جرأة ميمون لا بارلوت في أن يغلق الخط في وجه الكولونيل تثبت أن كثيراً من الأمور في طور الظهور على وجه هذا الفراغ. لقد قال يا سيد بدلاً من أن يقول يا سيدي الكولونيل كما كان يفعل دائماً.

اتصل بالمسؤول عن *عائلة الثوار الدائمين*. هو الآخر أجاب باقتضاب وبجفاف غريبين عن عاداته السابقة، مع أن أمير زوالي هو الذي كان قد ساعده على إدخال مئتي زجاجة من الويسكي من أجل الأصدقاء، والله وحده يعرف من هم هؤلاء الأصدقاء الذين يتكلّم عنهم ويتباهى في كل مرة بمناقبيتهم وماضيهم المجيد!

- لا أستطيع فعل شيء يا صديقي، إنهم في حاجة إلى شاليهاتهم. ولن تعدم طريقةً في الاختباء في مكان ما. لديك المال وتستطيع التصرّف. يجب أن تفكّر بمن ليس لديهم شيء وهم ينتظرون أن يُشمَلوا بالرعاية. بل إنك تستطيع أن تعود إلى الفيللا، فلا أحد يعرفك هناك، تصاغَرْ وعِشْ بانتظار أيام أفضل. لا بد أن الأمور ستترتّب يوماً، فلماذا أنتَ مغتمّ إلى هذا الحد؟

- لقد وجّهتُ رسائل إلى جميع الوزراء المعنيين، ولكن يبدو أنهم يصمّون آذانهم، ولا يريدون أن يسمعوا شيئاً. وأعتقد أن ليس لديهم الوقت للردّ عليَّ ولا حتى لسماعي.

- بلى يا أمير زوالي، لقد تغيّرت البلاد منذ زمن طويل. أنتَ بعيد بعض الشيء بالنسبة لزمنك. ويجب أن تتكيّف مع التغيّرات إذا أردتَ أن تعيش أطول مدة ممكنة. ويجب أن تنظر إلى البعيد قليلاً. لاأستطيع أن أقول لك المزيد. أنا أقول لكَ ما يمكنكَ أن تفعله، وعليكَ أنتَ أن ترى ما يناسبك.

- و*عائلة الثوار الدائمين* التي تتباهى بها صباح مساء، ألا تستطيع أن تفعل شيئاً من أجلي؟ على الأقل منحي بعض الوقت لكي أسوّي بعض المسائل، وأنا أعدهم بترك هذا المكان في أقرب فرصة. العمى! أنا أريد أن أذهب بكرامة.

- *عائلة الثوار الدائمين*، يا عزيزي، لديها اهتمامات أكثر

وطنيةً وأكثر شموليةً. فهي تساعد من يهبون أجسادهم وأرواحهم لها، وينسون مصالحهم الشخصية الضيّقة. ولا تستطيع أن تفعل شيئاً مع من يُجرون حسابات البقّالين (إنه يلمّح إلى قصة أن أوقّع له ورقةً تسمح لـ *عائلة الثوار الدائمين* بأن تدير أملاكي بعد مماتي. ولكن خسئوا! إني ما أزال حياً أرزق، ولا أرغب في أن أعطيهم أملاكي. وأنا لا أنوي أن أموت قريباً). لقد قمنا بما نستطيع، حتى إننا أعطيناك حرساً شخصياً ليبقى بجانبكَ في اللحظات الحرجة. وأنتَ ترى أننا نجابه كل أنواع الأخطار يومياً، ولا نجرؤ على طلب شيء من الدولة. كلٌّ منا يحاول أن يفعل ما بوسعه، أن يُبقي على حياته، إن أمكن، وإلا أن يموت ثانيةً في سبيل الوطن.

ـ وأنا أيضاً أحب أن أموت في سبيل هذا الوطن، ولكن ليس ككلب أجرب يتحاشاه الناس جميعاً، أو يطلبون رأسه. أنا لا أطلب حرساً شخصياً بل عدة أيام في هذا المكان، هذا كل شيء. وليس هذا بصعب التحقيق على *عائلة الثوار الدائمين* وهي في أوج نهضتها.

ـ أعتقد أنني لستُ على موجتكَ نفسها في هذا الموقع الرائع، عالي الحماية، ومع ذلك أنا أحاول أن أتدبّر أموري نوعاً ما. هكذا يكون الانتماء إلى *عائلة الثوار الدائمين*. التصرّف لصالح البلد، حتى لو كان ذلك صعباً. نحن في حرب يا عزيزي، وهذا ما تجهله أنتَ. أنتَ ما تزال تظن أن الحروب الكبرى قد انتهت، وهذا خطأ فادح. فهذه هي حرب سرّية، بلا اسم، ما تزال موجودة تتحدّانا.

استغرب الكولونيل هذا الكلام قائلاً: يا إلهي! هذا غير معقول! كما لو أنني أسكن المريخ أو المشتري، ولست على هذا الكوكب. أنا أعرف جيداً أنكَ لا تسكن موقعنا، بل أنتَ في المنطقة الأكثر أماناً، مع الوزراء وبقية كبار المسؤولين في الدولة، فلا تحكِ لي هذا الهراء. كاذب! كما لو أني لا أعرف بطانته والرشاوى التي يأخذها من أصدقائه الذين يخدمهم! تسوّس! وهو لماذا لا يعود إلى فيللته في كوبا أو في البيار التي ما يزال يؤجّرها لسفارة إحدى الدول

الأجنبية ويقبض بالعملة الصعبة؟ لماذا طلب مني أن أتنازل عن أملاكي كلها لعائلة الثوار الدائمين؟ ألا أكون ثورياً إلا إذا تنازلتُ عن أموالي؟ إنه يشمّ كل شيء. رفضتُ فأصرّ تاركاً لي ورقة لكي أملأها. وعند خروجه تماماً أحرقتُ كل شيء. النار هي الردّ المُفحِم على هؤلاء "صقور. كل شيء إلا هذا. سرعان ما ينسى الناس الحدبة التي يحملونها فوق ظهورهم ويتحوّلون بسرعة إلى مُعلّمي دروس في الوطنية. أعتقد أن جنس من هم بلا تاريخ وبلا أصل الذي تكلّم عنه سيدي عبد الرحمن المجدوب قد بدأ. إنه هنا محلول في القهوة الصباحية أو في هذا المحيط الذي تُشتمّ رائحته دون أن يظهر للعلن.

ووضع السمّاعة.

ألا يعرف أولادُ القحبة أنها ليست مسألة مال بل أمر آخر؟ من يؤخذ بالعهدة، ويوضع له حرس شخصي، فهذا يعني اعترافاً بقيمته، حتى لو كان ذلك مشهداً سينمائياً، يحتاج المرء إلى تصديقه أحياناً.

ـ أية دولة! إنه أبرد الوحوش! إنه يكذب ببرودة.

لم يقل شيئاً، بل دخل إلى المرحاض ودخل في موجة من التقيّؤ حتى كاد يتقيّأ أمعاءَه، وغرق في نوبة نزيف البواسير حتى اضطرّ إلى استخدام كل المراهم الموجودة لدية لكي يُسكّن آلاماً كريهةً لا تُطاق.

3

اليوم السابع.

أمضى اليوم السادس في إصلاح فلوكا الصياد العجوز التي لم تُستخدَم في الشتاء الماضي، منذ أن صار الدخول إلى الـ م م ح شبه مستحيل. كانت جاثمة منذ زمن طويل على شاطئ البحر كميت، وهو الذي أصرّ على أن يمنحها الحياة في غياب صاحبها.

غيَّرت الوردية من تكتيكها. صارت الآن تدنو من البحر، ولم تعد تقف على الرمال، ولكن على بعد عدة أمتار فقط داخل الماء. إنها تمتلك قدرة كبيرة على التوازن لكي تتمكّن من الوقوف على الأمواج، وتنظر إلى أمرين في آنٍ واحد: وجه الكولونيل البارد وخيالات الأسماك الصغيرة داخل الماء وهي تقترب من السطح.

الإمكانية الوحيدة لقتلها هي ملاحقتُها إلى داخل الأمواج حيث تختبئ ووضع نهاية لوجودها المُزعِج. كانت قريبةً جداً، على بعد مترين، لكن الحالة المتردّية لفلوكا الصياد العجوز أفسدت كل شيء، وجعلته يدور نصف دورة، ومع ذلك فقد شَلَّ الخوفُ الوردية.

والآن، مع كل الإصلاح الذي قام به، مقوّياً الخشب التالف وطالياً بالقطران وسادّاً المسام وفتحات الماء، يجب أن يعمل كل شيء بلا مشكلة، ومن المؤكّد أن الفلوكا ستستعيد استقرارها وثقتها السابقتين، فالصيد العظيم لا يتمّ إلا إذا توافّرت شروط العمل.

ـ اليوم أستطيع أن أدّعي أنها موجودة.

اليوم السابع.

استيقظ منذ الصباح الباكر في حالٍ من الكآبة والحزن. أشياء كثيرة لم تعد تسير كسابق عهدها. لا بدّ أن الوردية مسؤولة عن ذلك.

وقف أمام مرآة ماريو(*) الكبيرة الموجودة في الممر، نظر إلى نفسه طويلاً فشعر أنه مفرَّغ من كل جوهر.

قال لنفسه دون أن يعلّق كثيراً على انزعاجه: *كل شيء سيعود إلى نظامه، إنه نهار حرب، ويجب النظر إليه هكذا.*

فجأةً صار المناخ داخل البيت عابساً، وتزاحمت أشياءُ كثيرة داخل رأسه. إن رائحة معارك الموت الأخيرة التي خاضها هي التي أفاقت. إنها وحشية جداً هذه المعارك، ويجب تحمّلها واحدة تلو الأخرى حتى الموت.

ارتدى الزي العسكري، درعاً كان قد حافظ عليه بحرص شديد. وتمنطق بحزامين من الطلقات ذات الرؤوس الرصاصية التي أعدّها في الليلة السابقة تحسّباً لهذه الحرب التي ما تني تؤرّقه. استبدل حذاءه الرياضي الذي كان ينتعله دائماً بحذاء عسكري ضخم كان قد هجره منذ أن غادر الجنوب. فتح درجاً وأخرج منه علبةً فتحها بدورها وأخرج من القطن الذي يحيط بها رتبة الكولونيل وطلقة تعود إلى الثورة الوطنية كان قد احتفظ بها دائماً في ذاكرته لئلا ينسى أبداً الشهداء والواجب اللذين هما دأبه على أية حال. أمسكها بيده وحاول أن يقرأ الكتابة الموجودة على جانبها:

الطلقة 54، ذكرى ثورتنا العظيمة، المجد والخلود لشهدائنا.

أطلق زفرة ألم:

ـ هذه طلقة! قصة! لا بدّ أنها كانت مخصَّصة لقتل أحدٍ ما. ولكن الحظ شاء أن يكون اليومَ حياً. ربما هو الآن مستغرق في تذوّق كأس من الخمر في إحدى المقاطعات الفرنسية، أو مستغرق في

(*) خزانة كبيرة ذات أصل أندلسي لها مرآة طويلة في وسطها.

ممارسة الحب مع إحدى فتيات هذه الأيام اللاتي يتطلّبن الكثير من شريكهن. لا بد أنهم ثلة من الأصدقاء الذين يتسامرون حول هذه المزحة الجميلة التي يسمّونها الحياة! اللعنة! لماذا يضايقني كل هذا العالم فجأةً؟ هل تستطيع ذاكرةٌ أن تتحمّل هذه المصاعب كلّها. هذا كثيرٌ عليّ، ولكني واعٍ إلى أني يجب ألا أستسلم للرعب أبداً.

التفت إلى مرآة الممر وضبط وضع رتبة الكولونيل، وبحركةٍ آلية وضع الطلقة الذكرى في جيب بنطاله الأيمن. علّق خنجرين حربيين لم يكن قد أظهرهما من قبل، ثم علّق مشعلاً صغيراً وسطلَ حمّامٍ في حزامه لكي يفرّغ به ماء القارب إذا ما تَلِف القطران في البحرً. فقد أراد أن يتوقّع كلَّ شيء وألا يتركَ شيئاً للمصادفة.

ـ ها قد تمّ كلّ شيء، وعدتُ كولونيلاً من الأزمنة الضائعة.

قبل أن يخرج، أستوقفته ابتسامة سارة بريكسي الساخرة في صورة قديمة، كما لو أنها تريد أن توقفه أمام قصة قديمة يريد أن ينساها بأي ثمن. إلى جانبها، كانت صورةٌ قديمة له في شبابه، أمام الكعبة، مرتدياً الثوب الأبيض الخالص، وكأنه حاجّ حقيقي.

ـ حاج! يا للغباء! أن لم أُخلَق لهذا أبداً.

أوف! كان ذلك في عصر آخر. عصر العظماء. وكان ذلك بعد حرب الرمال مباشرةً، حين أتيحت العمرةُ لمن يرغب من الضبّاط لإتمام الركن الخامس من أركان الإسلام. وكنتُ في حينها مرشّحاً إلى رتبة مقدّم، هذا الوعد الذي استمرّ حتى عام 1965، تاريخ الانقلاب العسكري الثاني في البلاد، لأن الأول جرى بهدوء مطلق على الحكومة المؤقتة، بُعَيد الاستقلال، وكان قد أعدّ قبل أن يُنال هذا الاستقلال.

قبل أن يغوص في تفاصيل ماضيه، جذبتْه نحو الشاطئ أصوات الأمواج وأصوات النوارس التي اعتقد أنه سمعها، فأخذ يكنس صورَ ماضٍ بعيد أخذت تتراءى له كسكّين يُحَرَّك داخل جرح.

ومع ذلك كان الوقت ما يزال مبكّراً.

لا بأس. يجب توقّع كل شيء. الحروب الكبرى تبدأ دائماً بفؤول سيئة لكي تمنح المزيد من الشجاعة، ولكي تدعو إلى عدم إساءة تقدير العدو، حتى لو كان هذا نورسة، والأسوأ نورسة وردية، لون النتانات جميعاً. يا إلهي!

تناول بضع قطع خشبية ثم خرج وهو يجرّ خلفه كلبه غزال الذي كان يشعر بمصاعب جمّة في اللحاق به.

كان الشاطئ صامتاً وبارداً، وأسود، ولم يسمع شيئاً مما ظنّ أنه قد سمعه، لا أمواج ولا نوارس.

بصعوبة أشعل النار قرب فلوكا الصياد العجوز. كان الحطب الصغير يشتعل ببطء، ولم يكن يسمع إلا أصوات انفجار حبيبات الملح في الخشب الذي كان ما يزال رطباً. بدأ الكولونيل يحسّ بالدفء، هو وكلبه، كما لو أنهما كانا تائهين في فضاء بلا أفق. لم تستيقظ الشمس إلا بعد ساعة شيئاً فشيئاً، تحت نظر الفنّانة عايشة البكوشة المتنبّه. عرفها الكلب من بعيد واقترب منها دون نباح.

وجّهَ الكولونيلُ انتباهَه إلى السماء، ولم يُعِر محيطَه كثيراً منه، حتى لو أن الضباب الذي بدأ يتشكّل أخذ يزعجه قليلاً.

حربه الكبرى كانت قد بدأت. ونقطة اللاعودة اجتيزت، بل إنها صارت بعيدة.

ـ الآن، وبعد أن صار كل شيء واضحاً، يجب أن يتخلّى أحدٌ منا عن مكانه للآخر. لو كان الزمن أفضل قليلاً، لفجّرت دماغها قبل أن تتوقّع. وإذا كان الزمن سيئاً فيجب الاستعداد لخوض المعركة الأخيرة وسحقاً لكل ما تبقّى.

إذا ما أرغموني على مغادرة هذا المكان فسألتجئ تحت شجرة إذا لزم الأمر، ولن أقبل الهزيمة أبداً. إن أسوأ الأشياء بالنسبة لعسكري محترف هو أن يتحمّل عار الضعف.

ـ ما هي النورسة إن لم تكن مجرّد مجموعة من العظام يجب إعادتها إلى حالتها البدائية؟

بقي مسمَّراً، ملتصقاً، مثبَّتاً إلى حاجز السلك الحديدي حينما لفت غزال انتباهه إلى رفّ من النوارس يأتي من البعيد. ولكن قبل أن يطلق الكولونيل طلقته الأولى ويُتبعها بالثانية التقليدية تفرّقت النوارس كعادتها إلى عدة مجموعات على برج سيدي فرج لكي تتمدّد على أعصاب البرج المختلفة، وعلى مرفأ الصيادين ومرفأ القرصان ورصيف السفن الشراعية وساحة المرفأ وعلى الحاجز حيث انكمشت كحجارة بيضاء أو على برج المراقبة المصنوع من القرميد الأحمر الذي يقف مغروساً داخل البحر كحيوان أسطوري له ست قوائم، اثنتان في الماء وأربع على البر.

كعادتها، وبطريقة عنيفة انفصلت الوردية عن المجموعة وقامت بدورة طويلة نحو الشاطئ قبل أن تأتي وتحطّ مقابل الكولونيل، على بعد عشرة أمتار داخل الماء. أمعنت النظر إليه دون أن تحرّك أي شيء من جسمها.

جرّب الكولونيل أربع طلقات دون أن يتمكّن من إثارة قلقها. بقيت مقابله، تنظر إليه بعينيها المستديرتين اللتين كبّرتهما شمس الصباح بلعبة النور والظل.

بقي غزال حراً في حركاته، يدور حول الفنانة. هذه المرة، قرّر الكولونيل أن يتركه حراً؛ على أية حال، لاشيء يرغمه على ذلك، فالحرب مفتوحة. ولكن من الأفضل لغزال أن يلعب دوراً في هذه المعركة على أن يبقى مربوطاً حول حجر الزاوية.

غيّر الكولونيل زاوية رميه، وحاول من جديد ألا يخطئ الوردية. منذ الآن وحتى نهاية هذا اليوم السابع، إذا لم يُنهِ الأمر مع الوردية فسيجلّله العار.

خلف حجر الزاوية جثا على ركبتيه، سدّد جيداً وأطلق طلقتين في آن واحد تقريباً وفي اتجاه واحد تقريباً. رأى ماء يتصاعد

وبضع ريشات تتطاير في الفراغ. وبصعوبة صار يرى النورسة وهي تخبط للخروج من البحر كي تحاول الطيران.

قهقه.

ـ اللعنة! لقد لزم دهرٌ للقضاء على هذا الطائر اللعين!

انطلق الكلب الذي كان يشاهد هذا المشهد وهو مريض، يعاني من بصره الذي هو آخذ في الاضمحلال يوماً بعد يوم، تعباً رغم حركاته العصبية أكثر من كونها فرحة، ذهب مدفوعاً بدافع لا يمكن السيطرة عليه وهو يسمع الكولونيل يكرّر لازمته.

أنت تعرف يا غزالي العزيز أن الحياة صعبة، ويجب الإمساك بها من مركز قوتها، وعلى الأخص لا تمرض، فأنتَ تعرف أن المريض طفيلي على المجتمع. وبعد أن يصل المرء إلى حالة معينة من غير المناسب أن يعيش طويلاً، والعناد على العيش بجبن، عبداً لأطباء والممارسات الطبية بعد أن يكون قد فقد حس الحياة وحق الحياة يجب أن يجلب الاحتقار العميق من جانب المجتمع. إذن حرّك إليتيك وبسرعة.

غاص في البحر بينما أخذ الكولونيل يصرخ بفرح:

ـ كنتُ واثقاً من أنه سيكون يومكِ الأخير أيتها الغبية القذرة. ولكن من المؤسف أن تكون الأمور قد جرت بهذه السرعة. والمؤسف أيضاً بالنسبة للفنانة، فالمشهد الكبير تحوّل إلى لا شيء. على أية حال ما عليها إلا أن تحفر خيالها، وأعتقد أنها لن تعدم وسيلةً لذلك، فعايشة البكّوشة لها نظر صقر.

بحركة موقّعة أخذ الطائر النادر يظهر ويختفي. لا بدّ أنه يناضل من أجل البقاء، ساحباً قائمتيه نحو الأعلى ولكنه لا يتمكّن من الطيران. للمرة الألف، يجمع قواه كلّها، ولكن كما لو أن هناك رصاصاً تحت قدميه يمنعه من الطيران. أخذ يزحف على الماء كثعبان، وقد دفعه تيارٌ خفيف إلى الأمام مبتعداً بذلك عن الشاطئ.

بذل غزال جهداً فائقاً في الاقتراب من النورسة ولكن دون أن يتمكّن من لمسها. فجأةً بدأت طبقةٌ من الضباب تنزل وتغطّي المكان والمنظر كلّه في معركة نادرة ضد الموت. لم يسمع الكولونيل إلا خفق جناحي النورسة النادرة التي تصارع الموت، ولم يرَ إلا غزالاً وهو يحاول أن يشقّ طريقه بين الأمواج الصغيرة التي كان يشكّلها نسيم الصباح.

لا شيء الآن، لا غزال ولا النورسة.

بل حتى عندما نادى الكولونيل غزالاً بأن يعود بقيت صرخاته بلا رد. كان غزال بعيداً، داخل ستار أبيض من الضباب ولم يكن يسمعه. وفجأةً أتت إلى أذنيه التعبتين من جهة البحر أصوات خفق أجنحة كبيرة.

فرك الكولونيل يديه فرحاً إذ ظن أن غزالاً قد أنشب أنيابه البيضاء القوية في جسم النورسة النادرة المليء بالعظام. لم يصدّق عينيه عندما رأى الوردية تفرد جناحيها الكبيرين وهي خارجة من الضباب ومن البحر. بدت ضخمة، وكان فمها مفتوحاً، كان الكولونيل واثقاً من أنها لن تلبث أن تسقط، لأن كل ما تفعله عائد إلى دفعة الموت الأخيرة المحمومة التي تمنحها هذه الاندفاعة العصيّة على السيطرة. لكن النورسة صعدت بسرعة فائقة قبل أن تذهب نحو الضباب ثم تنطفئ نهائياً على منارة سيدي فرج.

نادى كلبه من جديد:

- غزال! غزال!... غزال!

لا شيء.

ركض كمجنون على جزء كبير من الشاطئ دون أن يتمكّن من أن يرى أو يسمع أية إشارة من غزال.

انبسط الضباب بهدوء وساد الصمت.

بدأ يقلق.

فجأةً، أدرك أن ليس لديه من خيار إلا أن يذهب باتّجاه غزال الذي ربما يكون في مواجهة مريرة مع الموت الزؤام. ركب فلوكا الصياد العجوز واتّجه نحوه، وهو يحاول أن ينسى الصورة الأخيرة للنورسة وهي تحاول أن تبسط جناحيها لتغطّي جسماً عظمياً سيئ الخلق.

أهذه هي أول هزيمة للكولونيل أمام طائر بلا اسم ولا قيمة ولا حتى نسل؟

ـ نييت، لن تذهب بعيداً. ويجب ألا أقف حيث وضع كثيرون أسلحتهم. يجب ألا أستسلم لهذه اللعبة الانهزامية الصغيرة. أنا واثق من أن النورسة قد أصيبت وسوف ينتهي بها الأمر بالسقوط بين يديّ، وسيكون دورنا أنا وغزال أن نشويها على نار هادئة.

4

كان النهار ما يزال يحتفظ بلونه الأزرق الذابل، حتى لو أن الأنوار قد انطفأت الواحد تلو الآخر تحت سطوة الضباب: الشمس والبياض وبخاصة منارة سيدي فرج وأنوار الحصن التي تقوم بإرشاده في هذا الفراغ الأزرق عديم الروح وعديم النهاية.

لم يكن هناك من صوت إلا صوت المجذاف الذي كان يمسك به بقوة بكلتا يديه، كتعويذة تتعلّق بها حياةٌ كاملة. بدأ الضباب ينزل؛ بل إنه أخذ يضايق التنفّس مع نسبة رطوبة عالية جداً. أحسّ الكولونيل بأن البحر يرتفع كلما أمعنت الفلوكا في الدخول فيه. لكن الذي يزعجه أكثر هو مفهوم الزمان والمكان. فمنذ ساعات وهو يجذّف، ولا شيء خاصاً رآه، ما من إشارة واحدة عن غزال ولا عن النورسة.

لم يعد يعرف أين هو، بل كان يجذّف في الفراغ. توقّف لحظةً، انزلق إلى عمق الفلوكا ليحلّل جيداً الصوت الذي سمعه. قال لنفسه: *لا، هذا ليس غزال*. وضع المجداف والبندقية بين ساقيه ثم أغمض عينيه لحظةً:

لا، لا شيء.

أحسَّ بالتعب الشديد. سمع السائل المغلي الذي يسيل في عروقه: *هزيمة على يد طائر*، يا للعار! سمع صوت غناء مجموعةٍ قادماً من بعيد يشبه صوت الهنود وهم يقيمون الحداد على

محاربيهم الأموات في عدة معارك. أخذ الفناء يدنو. وكان على معرفة تامة بأن هذا كله يحدث داخل رأسه. وعندما فتح عينيه تحت شمس بدأت تفقد كثيراً من حرارتها لم يرَ ضباباً ولا منارات، بل رأى بحراً أزرق ونورسةً ضاحكة تنظر إليه بعينين مستديرتين خاليتين من كل تعبير. وعندما فرك عينيه تبيّن له أنه ليس في حلم فقال:

ـ بنت الكلب! إنها هي! وهي تريد أن تقيس نفسها بي. حسنٌ، سنرى، وسوف أريها من أكون.

نسي كلباً وعمّر بندقيته تاركاً المجداف ينزل بهدوء إلى جانبه.

طارت النورسة فوق رأسه ومزّقت سمكةً في أثناء طيرانها ثم عادت لتستقرّ من جديد غير بعيد عن فلوكا الصياد العجوز.

لم يكن للطلقات الأربع التي انطلقت حتى قبل أن تضع النورسة قدميها على الماء أي تأثيرٍ عليها. أما الأربع الأخرى فقد أبعدتها قليلاً عنه، دون أن تحوّل نظرها عن البندقية التي طواها الكولونيل لكي يعمّرها من جديد بحركة عصبية.

حتى عندما سدّد جيداً جداً عليها لم يستطع أن يصيبَها كما لو أنها كانت قد انغرست بين الأمواج التي تبدأ بالتشكّل. بل إنه فكّر بالمغادرة وترك كل شيء، لكنه لم يكن ليعرف أيَّ اتجاهٍ يسلك. صوّب رميه من جديد، لكن الأمواج التي صارت عالية، صارت تزعجه.

قال لنفسه: *هذه المرة، هي في نقطة التسديد.*

وأطلق، لكن الطلقة لم تُحدث إلا قفزة من الماء بين موجتين ثم ظهر من جديد الديكور المؤسف نفسه، نورسةٌ مجنونة لا تكفّ عن النظر بعينيها المستديرتين العدوانيتين إلى كولونيل مليء بالرعب من هزيمة ترتسم في الأفق. بل إنه رآها تنفجر ضاحكةً مخفيةً

بقائمتيها التين تشبهان مجدافي القدمين منقارَها المفتوح على اتّساعه.

أحسّ ببرودة معينة تصعد إلى مؤخّرته، فقد انفتح أحد ثقوب الفلوكا تاركاً الماء يدخل. لم يصمد القطران طويلاً. تخلّص من كل الأشياء الثقيلة التي معه لأنها لم تكن تحمل حتى القيمة الرمزية التي كان يتمنّاها.

ـ ما فائدة أن أكون كولونيلاً ولا أستطيع أن أحكم إلا الماء والفراغ؟ أقف عاجزاً عن مواجهة حتى نورسةٍ ضاحكة هي أتفه من لا شيء؟ لولا احترامي للنظام العسكري لرميتُ أيضاً برتبة الكولونيل التي لم تعد تبرق كما في السابق.

خيمّ الليل بسرعة وصارت الطلقات تذهب في الفراغ. شعر أن الزمن نفسه يتآمر ضدّه. كل شيء ضدّه، كل شيء تماماً، حتى التفاصيل الصغيرة المحيطة به.

اكتشف فجأةً أنه أطلق آخر طلقتين لديه. من كل الأدوات التي أتى بها من أجل الظرف، لم يحتفظ إلا برتبة الكولونيل التي أصلحها من جديد وبخنجرٍ حربي وبسطل صغير كان يُخرِج به الماء من الفلوكا، دون أن يغادر بعينيه نورسةَ الألغاز كلّها. يا له من تعبيرٍ جليّ عن الفراغ والموت!

رأى السلحفاة الصغيرة نجاة وهي تشقّ طريقها نحو المطبخ أو نحو الصالون، وهي منزلقةً كلعبة طفلٍ حريص نحو النافذة الكبرى التي تطلّ على البحر والنور. إنه يراها بوضوح وهي تقضم وريقات الخس التي تركها لها لدى خروجه لأنه كان يعلم أنه سيتأخّر. قرّرت الضاحكة أن تذهب إلى آخر جنونها. فعندما نكون أمام مجنون فيجب أن نتسلّح جيداً.

ـ يا إلهي! أي اختلاف! بين حيوان بريء لا نشعر بوجوده أبداً، ونظافته لا غبار عليها، وبين حيوان بلا تاريخ وبلا روح!

كانت العودة شبه مستحيلة، حتى لو أنه أراد ذلك.

والسباحة كانت انتحاراً لأنه لا يعرف أي اتّجاه يسلك.

تذكّر فجأةً أن ليس عليه أن يقتلِ النورسة لأنها الوحيدة التي تعرف طريق العودة في هذا الضباب المُعمي. هل كان يجب عليها أن تطير ثانيةً؟ تمتم:

- *إن تطِر هذه المصيبة فسأتبعها، لأن النوارس عادةً تتخذ طريق منارة سيدي فرج ليلاً.*

كأن النورسة فهمت ما يفكّر به الكولونيل فتربّعت على إحدى الأمواج، بل إنها اقتربت مترين إضافيين من المركب.

نظر إليها الكولونيل مليّاً فلاحظ أن الجزء الأيسر منها كان مسودّاً، بل مصطبغاً بالدم، وأنها لا تكفّ عن الحكّ كلما أصاب الماء المالح جرحها.

امتلأ حلقُه بمزيجٍ من الفرح والشكّ. بل إن خوفاً غامضاً وبلا تفسير أخذ يرتسم فيِ الأفق. رشق قبضتين.. ثلاث قبضات.. عشر قبضات من الماء نحو النورسة لكي يُبعدها ويرغمها على الطيران، عبثاً. كما لو أنها كانت تقرأ نواياه، فكلّما أقدم على رشق قبضةٍ من الماء تتقافز هنا وهناك دون أن تبتعد كثيراً عن الفلوكا.

- نورسة قحبة! هيا حرّكي إليتيكِ، طيري! اذهبي نحو برج سيدي فرج أو نحو المنارة. الآن أريدكَ حيةً، هيا انطلقي قبل أن أغيّر رأيي.

بوف! وإذا غيّرتُ رأيي، فماذا سأطلق عليها؟ ماءً؟ هذا لن يؤدّي إلا إلى إظهار المزيد من غطرستها المقيتة.

مكثت النورسة صمّاء تماماً أمام نداءاته. تهرش بمنقارها الطويل وساقيها جناحَها الأيسر الذي كان يخفي جرحاً صار الآن أكيداً.

لم تعد تحاول أن تطير.

أخذ تيّار المساء البارد جداً يسحبهما بعيداً عن الشاطئ وبعيداً

عن المنارة. ما من إشارة سعيدةٍ تلوح في السماء، ولا غيمة دفعت بها رياح الشمال، ولا حتى نورسة ضالّة تستطيع أن تدلّه على طريق العودة الذي صار مستحيلاً.

بدأ الكولونيل يرى الأشياء رؤيةً مختلفة. في الواقع لم تكن الوردية إلا صورةً لعجزه. هي ليست هنا إلا لكي تتحداه وتشهد موته المؤكّد قبل أن تعود إلى حصن سيدي فرج لكي تموت قرب المنارة حيث معظم النوارس تمضي ليلتَها في الدفء والأمان. مكان بالغ السريّة لا يستطيع أحدٌ أن يدخله. النوارس وحدَها تملك هذه الإمكانية وكذلك بعض الأشخاص من فئة معيّنة تنتمي إلى الجنس الجديد في المجتمع، وتتأهّب بصمتٍ لكي تمحو أولئك الذين يسدّون عليها طريقها نحو السلطة. هذا العرق السيئ، الذي غادر الجبال ليجد نفسه فجأةً أمام ثروة عليه أن يُديرها وبلاداً عليه أن يحكمها، قد ولّد العرقَ المضادّ له، وهو أشدّ منه فتكاً، وسيأكل رأسه. العرقان سيمضيان سريعاً إلى الفناء لأنهما سيتقاتلان في الهباء.

محاولةٌ أخيرة لدفعها لمغادرة المكان لم تُفضِ إلى شيء. قرّر أن يتصرّف بطريقة مختلفة. إنه متأكّد الآن من أنها جريحة ومن أنها لا تستطيع أن تطير بعيداً. اقترب منها كثيراً. حمل المجداف وضربها بكلّ قوته. لم تؤدِّ الضربة الأولى إلا إلى اصطفاق الماء قليلاً ودفع النورسة إلى حكّ جرحها. وكذلك الضربة الثانية. كانت النورسة تتفادى الضربات بمهارة فائقة دون أن تبتعد عن المركب. ثم لم يعد يُحصي ضرباته الهستيرية. لم يتنبّه إلا عندما بدأت الفلوكا تصبح ثقيلة. بينما كان يزيح الماء، انزلق المجداف من يده، وما لبث أن غاص بين الأمواج والضباب. بذل جهداً أخيراً في الإمساك به ولكن فات الأوان، فقد تلاشى المجداف في هذا الأوقيانوس من الصمت والخوف.

أحسّ بالتعب. رفع رأسه إلى السماء. شمّ رائحة الموت تدنو. رأى ظلّه الذي لا يترك أي أثر. شعر برائحة أنفاسه الكريهة وخطواته التي تشبه خطوات امرأة عجوز.

ـ ساعة حياتي تتنفّس بصعوبة. لم أسمع قطّ هذا الصمتَ الرهيبَ من حولي، فيجعلَ قلبي يرتعب منه.

واصل أمير زوالي جرف الماء بسطل الحمّام المغربي. بحث في جيبه عن أي شيء يسدّ به الثقب اللعين الذي بدأ يتّسع. بقلّة حذر، أخرج منديله. الرصاصة 54 التي كانت ملفوفة فيه والتي كان قد نسيها نهائياً تدحرجت وقفزت أمام عينيه كماسةٍ ضائعة.

ـ آه! الطلقة الجميلة، طلقة اللاتفاهمات كلّها والتمزّقات كلّها، الطلقة المخصّصة لقتل أحدٍ ما يعيش اليومَ ويتنفّس بمحض مصادفة توقّف الحرب. يجب أنْ تصل إلى حيث كان مقدَّراً لها بالفعل أن تصل. هذه الطلقة قسمةٌ يجب تنفيذها في حالة من الفرح والخيار الحقيقي. ولن أعرف كيف أنجح في الفرح الأعظم إلا كلعبة.

مباشرةً، عمد إلى تعمير بندقيته آلياً، بل إنه أسف لأنه لم يكن لديه الوقت ليقرأ الكتابة ثم وضع في الثقب الصغير المنديلَ الذي أوقف تسرّب الماء إلى داخل الفلوكا.

غمره فرح غامض كمجنون. فقد أصاب عصفورين بحجر: طلقة غير متوقّعة ومنديل سيمنح مقاومةً أكيدة لهذه الفلوكا الهرِمة.

تراجع الطير بصعوبة وهو ينظر إليه كيف يعمل، ولم يكفّ عن حكّ الجانب الأسود من جناحيه بمنقاره وبقائمتيه. وعندما رأى أن المسافة صارت مناسبة عاد إلى نظرته الأولى وضبط عينيه.

طلقة ضائعة في ذاكرته مخصّصة في الواقع للقتل في عام 1954، هاهي تخرج من جديد لتقضي على نورسة بلا هوية وبلا روح.

أصلح الكولونيل وضع الإطلاق نهائياً حتى لو أن الأمواج لم تكن لتسهّل عليه مهمته أبداً. كانت ثائرة جداً. قرّر بينه وبين نفسه أن يضع هذه الطلقة بين عينيها ما دامت مستعدّة للموت بغباء.

وضع إصبعه على الزناد الأول. فجأةً نسي تماماً أين وضع الطلقة، في السبطانة الأولى أم الثانية؟ فعلى أي زناد يضغط؟ بعد وقت قصير سيغدو الموتُ أمراً محتّماً إن لم تحدث مصادفةٌ ما تخلّصه من هذا البحر.

نظر أمير زوالي من جديد إلى السماء التي بدأت تسودّ ببطء. بدأ الليل يخيّم ويمحو نهاراً تعيساً.

الماء الذي يثقل الفلوكا كان يمنحها بعض الاستقرار الذي سعى إليه الكولونيل لينتهي مرةً واحدة وإلى الأبد من هذه النورسة المجنونة والمتحدّية. الموت يقبع عند نهاية أحد الزنادين. فجأةً ظهرت في ذاكرته المجهدة والمُثقَلة بالتفاصيل لعبة الروليت الروسية القديمة.

ـ كان عصراً عظيماً. كان صعباً جداً، لكن الناس كانوا يموتون بعظمة. بعظمة لا مثيل لها. وكان يُعدّ لهم دفنٌ يليق بالأبطال. هذه هي التقاليد القيّمة التي لا تقلّ عن تقاليد الساموراي. وأنا الذي أردتُ دائما أن أنتهي بعظمة ها أنا غارق في النسيان، في موت عرضيّ تافه. لماذا لا أعيش انفعالات هذه الروليت الروسية؟ ومعلّمي العزيز، العجوز ذو الشارب المتدلّي لن يكون إلا فرحاً، وهو الذي لطالما احترم التطلّع إلى العظمة. المحاولة هي الخسارة بشهامة أو الانتصار بشجاعة.

حياتنا لغز. الخسارات الكبرى، الرغبات المجنونة، والابتعاد القاسي لكل ما هو ممتع بالنسبة إلينا، كل هذه الأمور انبثاقاتٌ لإرادة تسمو إلى العظمة التي تختبئ في داخلنا. ولفهم هذا كله يلزمنا سحر الجنون. الجنون هو الذي يمهّد طريق فكرة جديدة تقطع رباط عادة. خطوة صغيرة أيضاً في هذا اليأس للموت المحتّم وكل شيء سينفصل عن الهياكل القديمة.

كان واثقاً من أن ما ينقصه هو أن يجتاز الخطوة نحو باب العظمة الموارب. إن الموتَ في الغُفْل يعني قبول الضعف والرعب

اللذين يرادفان انحطاط النوع البشري. إن الفرصة مؤاتية لكي يغيّر مجرى التاريخ الخاطئ.

كانت الشمس قد غابت فتركت خلفها، وهي تغطس في الفراغ، ظلالاً وألواناً مائلاً للإصفرار وسماءً نحاسيةً جزئياً، وبحراً صامتاً. لم يعد يُسمع إلا الصوت الأصم للأمواجِ وهي تتلاقى وتتداخل بهدوء. وخلف هذه الكومة من الضباب المعمي، شعر بوجود راية سوداء ما تزال ترفرف على برج شرطة سيدي فرج، والشجرة الهرِمة التي تُخفي خيالها بصعوبة، والأضواء الصغيرة التي تضيء حول المجمَع فتعطي شبهَ الجزيرة هذه شكل باخرة قديمة تتأهّب لمغادرة المرفأ. والآن، كل شيء غاص في السواد.

فجأةً، ملأت مرارةٌ وشعور متعاظم بالحطام عينيه التعبتين كعيني كلبٍ صريع. حتى النورسة لبست لون هذه السماء نصف المشتعلة بنار المساء الهندية.

سمع صوت سفينة الشحن القديمة التي تمخر الماء منذ أن وضع قدميه في هذه المنطقة. تملّكته رغبةٌ في أن يعرف خط سير هذه السفينة، ولكن فات الأوان! فلعبة الحياة والموت القديمة قد استُهلكت. ولم يعد ينفعه في شيء أن يرفع يديه ويلوّح للسفينة طالباً النجدة لأنها ابتعدت. وكانت أصواتها الصمّاء تمتزج بأصوات نائحات المنطقة صفر الكثيرة عندما يفقدن واحداً من أهلهن، حتى لو أنه يسكن في تومبكتو أو في صحراء الربع الخالي، أو نائحات قريته حيث لم يصبح كل شيء الآن إلا صدى بلا كبير دوي.

في قرقعة هذا المزيج كله، استطاع أن يميّز صوتاً كئيباً ومنكسراً يخرج من الضباب والغيوم عديمة الألوان:

ها أنتَ من جديد أيها الرجل العظيم ذو الأقدار العظيمة. ها أنتَ تهتزّ في هذا البحر الشاسع المظلم الصامت الذي لا يحدّه أي شاطئ. ما من أي نسيم يحرّك الأمواج، ومع ذلك فهو مضطرب في أعماقه، كما لو أن تخمّراً داخلياً يحرّكه. لا بد أنهم سيلقون بي في مدودهم

الداخلية، وسأكون سعيداً لو أن بقاياي تغوص حيث تجتمع كل الينابيع والأنهار التي أحببتها، حيث تنهض غيوم العواصف التي ستسقي الجبال والوديان التي كانت أثيرةً إلى قلبي.

هزّ أمير زوالي رأسه من جديد لكي يبعد الفؤول السيئة والهلوسات التي تطفو على السطح كأسماك يُعتقد أنها ميتة، ثم تتحرّك فجأةً أمام أعيننا المتعبة.

ها أنتَ من جديد أيها الرجل العظيم ذو الأقدار العظيمة...

5

للمرة الألف فرّغ أمير زوالي الفلوكا من الماء وحاول أن يسدّ الثقوب والشقوق. والطلقة الأخيرة، طلقة الـ 54، وُضعت في إحدى سبطانتي بندقية الصيد. تمكّن المنديل الذي تحوّل إلى نتف صغيرة من أن يمنع الماء من التسرّب. تمدّد بطوله على الفلوكا. نظر طويلاً إلى سماءٍ آخذة في الانمحاء رويداً كلونٍ رسَمَه طفلٌ ثم استبدله بلون آخر. حوّل سبطانة البندقية نحو صدره وهو ما يزال يحتفظ بها في وضعها الأفقي.

لم يبدُ أمام عينيه إلا شبهُ سماءٍ فارغة وشبه محيط تافه. حاول أن يصيخ بسمعه فلم يسمع إلا الصوت الذي سمعه منذ قليل يقطعه صوتُ الأمواج المصمّ:

ها أنتَ من جديد أيها الرجل العظيم ذو الأقدار العظيمة...

ثم لا شيء، لا شيء سوى صمت ورائحة يشبهان صمت الموت ورائحته.

من بين الأمواج القديمة، تناهت إلى سمعه أصوات موسيقى نحاسية ثقيلة جداً قبل أن تنعم شيئاً فشيئاً. موسيقا ثقيلة وراقية تأتي من البعيد. تصعد وتهبط كالأمواج، تاركة وراءها لذةً ومرارة سرعان ما تتشبّثان بلحم الإنسان. انساق للحظةٍ وامتزج داخل هذه التفاصيل كلها.

نسي البحر، لكنه تأكّد أولاً من أن الموت يقبع في مكانٍ ما،

متلطّياً في إحدى الزاوايا. كان يريده عظيماً. كان يريده موتاً يُنزل السماء إلى قدمَي الآلهة وليس العكس، كما يحدث عادةً عند الكائنات البسيطة. نعم إنه هو، يراه بوضوح بوجهه الرطب والمسلول والمليء بآثار الجدري.

قال لنفسه: لا بد أن الخوف غيّر ملعبه...

ما انفكّت الموسيقا الثقيلة والراقية تشنّف أذنيه. *غسق الآلهة*، إنها اللحظة الأكثر دقة في موت *سيغفريد*، تلميذ فارس *ديورر*، الذي لم يتردّد، كمعلّمه، من مجابهة الأحابيل الشيطانية والموت و*المسيرة الجنائزية*.

بحركة منزلقة، وغير مراقَبة و بلا صوت وبلا سؤال، وكانعكاس أخير تقريباً لموتٍ مؤكَّد، تحسّس ببطءٍ سبطانتي البندقية. انتابه شعورٌ غريب وكأنه يكتشفه لأول مرة، علاقة شبه جسدية. رأى صورة بعض الحيوانات يفترس بعضها بعضاً ويُبيد بعضُها الآخرَ وكأنها تتسافد.

هذه هي عظمة الآلهة. فلتكن. أحد الزنادين حاملٌ للموت. إنها الروليت الروسية. إما أنا وإما هي. إما القوة وإما لا شيء. لم أُحبب قطّ سعادة القطيع. كولونيل بلا شيء ومهدّد من طائر نادر، فما فائدة حياةٍ خالية من كل معنى؟ أليس هنا سؤال العدمية الكبير؟ أملاكي تعود إليّ، ومسؤول عائلة الثوّار الدائمين لم ينل إلا البؤس. أملاكي ستبقى هنا، تحت العين اليقظة لنائبي الذي هجر مهنته كمحام لكي يشق طريقاً آخر. ما أزال الرجل الذي يقف على ساقيه، ولستُ المسكين سمينا، الحارس الشخصي الذي يترك نفسه منقاداً لقدرٍ رُسم له، وهو عاجز عن تحريك وزنه وعيوبه الجسدية.

- العظيم هو من يجتهد في بلوغ هدف هو نفسه لا يعود يحب ما بعده. والعظمة هي الإرادة المطلقة التي نقبل بوساطتها دمارنا الذاتي.

لم يعد يذكر ما الذي ذكّره بسمينا الذي لم يرَه منذ أن استدعي

لمسؤوليات أخرى. إنه يراه من جديد الآن مختنقاً وهو يصعد طلعة الشاليه وعاجزاً عن اللحاق بالكولونيل الذي ما زال يحافظ على رشاقته على الرغم من شيخوخته.

قال لنفسه: إن حياةً كهذه تستحق المزبلة. وأنا لا أتحمّل البشاعة. الخطأ والجهل ضارّان. فلأتجرّع سمَّهما بشجاعة مأساوية، لأن أسباب الخطأ موجودة في الإرادة الطيبة عند الإنسان كما في إرادته السيئة. لا، قُضي الأمر، ولن أخفي شيئاً، ولن أموِّه شيئاً حتى في الحالات التي لا يمكن تسميتها. يجب أن أرتّب أموري وأن أعيش كالرجل البسيط وأن أَعُدّ عادلاً وحقيقياً ما يعدّه عادلاً وحقيقياً. هذا هو الخضوع لغريزة القطيع. يجب على الإنسان أن يدفع بشجاعته وقسوته إلى حدّ عدّ هذا الخضوع عاراً. لا، لم أكن قطّ الإنسان البسيط ولن أكونه أبداً. هكذا أنا وهكذا سأكون.

زلق إصبعه بهدوء وكأنه يداعب وتر آلة موسيقية، تردّد ملياً أمام خيار محدّد جداً وخطِر. اختار الزناد الأول، فقد بدا له بلا روح، وبارداً جداً، ومستعدّاً جداً للقتل كآلة. مرّت حياته كلها أمام عينيه مروراً سريعاً جداً.

لم تكن كما كنتُ أريد، ولكنها ليست سوداء كلّياً. ما يعطي الانطباع بأنه صحيح لا يمكنه أن يكون صحيحاً. ولكنني أراهم بنظراتهم القلقة. أنا أكتشف وجوه الأجيال التي مرّت بصمت. هذا الفراغ منثور بوجوه رجال مقدامين وسادة. لقد عاشوا وأرادوا الاستمرار، وهذا ما قالوه لي: كانوا يحبّون الحياة ولكنها كانت قاسية جداً في نظرهم بحيث أنهم كرهوها.

ردة الفعل الوحيدة التي ملأت ذاكرته المتعبة:

ـ لماذا أخاف إذن؟ هو بالنسبة للإنسان كما بالنسبة إلى الشجرة. كلما أرادت الارتفاع في الأعالي، كلما انغرست جذورها عميقاً في الأرض، وفي الظلمات وفي الهاوية وفي الشر.

وقبل أن يضغط ترك إصبعه تذهب نحو الزناد الآخر. شمّ رائحة

تشبه رائحة المسك والبخور، ورائحة أعشاب برية بعد مطرٍ خفيف في بداية فصل الشتاء. لمس نهد سارة بريكسي الرخو والقوي. وضع لسانه على الحلمة. وبهدوء طفل ضغط، ضغط منتظراً أن يخرج ما يشبه الحليب المحلّى جداً. ضغط أكثر وملأ فمه بالنهد، ومصّ.، فسال الحليب من طرفي شفتيه. نسي نفسه وهو يضغط أكثر، فصرخت سارة من اللذة ومن الألم.

ـ نعم، نعم... أيضاً. ما أجمل هذا! من أين تأتي بهذه الروائع كلّها وهذه الرغبات يا كولونيلي الحبيب؟ نعم الألم ليس إلا تجريداً أمام المواجهة المأساوية التي يجب الخروج منها منتصراً. ملعون إله الأخلاق. أيضاً، يا سفينتي الكبيرة التي تدفعني إلى المجهول. البحر يتقلّص دون أن يجفّ. وفي فرحي يكمن فرح الملاّح.

ما يزال النهد يستدير في باطن يده اليمنى. إنه يلعقه ويسحبه أكثر نحو فمه. يعضّه ويدميه. تألّمت سارة لكنها استسلمت إلى لذّتها. أخذ يضغط أكثر دون أن يستطيع، ولا أن يريد، السيطرةَ على حركاته. ودون أن يفكّر بالموت ولا حتى بالعودة من منتصف الطريق، كما لو أنه لا يريد أن يمنع قدراً مأساوياً مرسوماً مسبقاً بعناية.

فجأةً... انطلقت الطلقة شظايا.

صرخ عالياً كحيوان مصعوق:

ـ لماذا تتركينني يا سارة؟ أنا لم أنتهِ بعد.

كانت الطلقة قويةً إلى درجة أنها اخترقت صدر الكولونيل والجهة الهشّة من الفلوكا في الوقت نفسه، مُخلّفةً ثقباً كبيراً وشقوقاً واضحة. طارت البندقية في الهواء كلعبة طفل تحت تأثير الارتداد وتأثير الألم. ترنّحت الفلوكا قليلاً تحت أنفاس الكولونيل وألمه قبل أن تستعيد توازنها. تملّكه البرد بدءاً من أصابع قدميه. لم يقل شيئاً. وما خلا ألم الانهيار الأول لم يعد يحسّ بشيء، ولكنه تذكّر عبارةً

وجدها قاسيةً جداً ولكنها صحيحة جداً، ولم يكن يُدرك أنها كانت كلمات سارة بريكسي الأخيرة:

مسكين أيها الكولونيل! أنت ترتّب أمورَكَ دائماً لكي تصل متأخراً، ولكنكَ ستقضي في الصمت والوحدة.

ـ هل هناك من صمت ووحدة أكبر من صمت البحر والصحراء؟

عيناه، عينا الذئب العجوز، اللتان وفّرتهما كل الحروب تغمضان بهدوء، كعيني أسد وقع في الفخ. بعد محاولات عديدة استسلم لمشيئة قدره المأساوي. لم يستطع أن يغادر وجه سارة الذي شوّهته النار.

صار سمعه مرهَفاً جداً. بل إنه تمكّن من تمييز أصوات آتية من برج سيدي فرج أو من المنارة وتحديد هويتها. تخيّل التتمة بسرعة. وصار كل شيء واضحاً في رأسه: إنها الإشارات الأولى للحرب الثانية، حرب الرعاع، هذا العرق عديم الامتداد وعديم التاريخ.

حرب العرق الجديد عديم التاريخ والأصل تجتازها الشرور كلها، قد بَدأتْ مبكّراً بعض الشيء. الجيل الجديد منهم سوف يحرق الأرض الحية، والثاني سيقتسم الرماد، والأجيال التالية ستموت من الجوع والطاعون وأمراض قديمة أخرى سوف تعود مصحوبة بكل نصيبها من المصائب. في هذا كان سيدي عبد الرحمن المحجوب أقوى من نيتشه. لقد ذكر كل الشرور في كلمات قليلة.

بقي مركّزاً على صورة سارة بريكسي وهي تحترق، ثم سمع من جديد صوتاً أقل صمماً وأكثر وضوحاً من الأول، الذي حسبه آتياً من انفجار رأس سارة في النار، أو صوت مدن الرصاص الذي يذوب كالألعاب البلاستيكية الملقاة في نار قوية، أو من يدري؟ ربما كان صوت انفجار القلعة الحمراء القرميدية في الصحراء المحاطة بالآلاف من *الناس* الذين ينظرون وهم يحاصرون الثكنة ويذكرون بأضحياتهم المتنوّعة روحَ الأميرة ضيا التي اقتطع الغزاة من حياتها الحقيقية سبعة قرون كاملة. ولكنه سرعان ما أدرك، عندما

فتح عينيه بصعوبة، أن هذا الصوت هو صوت النوارس التي رآها متجهة نحو الاحتراق الكبير، النوارس البيضاء. فجأةً شعر بألم يشبه ألم البواسير يسري في جسمه كله كالسم، لكنه سرعان ما تبدّد تاركاً الجسدَ لخفةٍ لا مثيل لها. صار ريشةً نو... ردّ منتفضاً: *لا! صرتُ ريشةَ الطيور جميعاً إلا ريشةَ نورس*. ثم انساق نحو هاويته الوردية، داخل المركبة الشبح، ورأى إلى جانبه الجميلة سنتا وعشيقها الهولندي الطائر. رأى الصيادين على متون مراكبهم متأهّبين لرمي شباكهم، وجوقة ناسجات الصوف وهنّ يغنّين بأصواتهن المعسولة والفرحة والوحدانية. كان العاشق الهولندي واثقاً من نفسه، سيعود بعد سبع سنوات، وستكون لديه إمكانية لمس الأرض بغية لقاء المرأة الوفيّة التي ستضع حدّاً لعقوبتها؛ أية امرأة: عايشة البكوشة، سنتا، سارة أو حتى زوجته.

في فراغ يتقلّص من حوله، حاول الكولونيل أن يتغلّب على اللون الأسود الذي بدأ يستقرّ في عينيه، وأن يعيد تشكيل صورة أخيرة لعايشة البكوشة وهي مستغرقة في إتمام تمثال جسده الضخم والقوي كجبل، المنحوت داخل صخرة غرانيت عملاقة، سامقاً في الفضاء بحثاً عن حفنة من النجوم ومن الصوف النقي. خلفه، عند قدميه، كلبه الهرِم التعب من مشية صاعدة وهو يبذل جهداً هائلاً لإنهاء صعوده، وإلى جانبهما بحر يتردّد في غمرهما تاركاً لهما طريقاً للمرور.

على الرغم من جهوده كان خياله الخصب تعباً. عبثاً حاول أن يغمض عينيه. تمزّق داخلي مؤلم جداً، كما لو أن جزءاً من جسده ينفصل عنه، يفترسه افتراساً متبدّلاً. عضّ شفته السفلى تخفيفاً للألم.

هبّت عاصفة هوجاء فجأةً فأيقظه قصفُ الرعد من ألمه. فجأةً تفتّت.

الواحد انفطر إلى اثنين: جثة إله وظلٌّ مضطرب.

صورة مثيلِهِ اتّخذت شكلَها. نيتشه شبه أعمى، يرتدي ثياباً حمراء وسوداء، له قرنا شيطان وشاربه المتدلّي شاربُ شخصٍ مُشعِرٍ خارجٍ من حرب بروسية مهزوماً بلا مجد كبير. وخلفه ظلّ مرتعش لليهودية الرائعة لو ـ أندرياس سالومي، تعبةً هرمةً من الخوف والتيه، وقد أرعبتها المبالغات، والشكل البركاني، الأرضي لطبيعة عليها أن تأخذها أو تتركها لنيتشه وهو ما يزال على أعصابه.

ما يزال يراه ويسمعه جيداً:

ـ اللعنة! لماذا فعلتِ هذا يا سالومي؟ هل كان يجب حقاً الركوع أمام تمثال فاغنر في بايروت؟ كوزيما ضعيفة جداً، امرأة مخلصة لسيدها، امرأة ـ لا شيء، لن تفعل ذلك أمام صندلي المصنوع من جلد الماعز. وأنتِ أيضاً لستِ سهلة. يومَ قرّرتُ أن أعود كائناً بشرياً، سخرتِ كهرةٍ لأن ذلك كان مهمة يجب أن أتعلّم فيها كلّ شيء. أعتقد أنكِ كنتِ تريدين، في قرارة نفسك، أن أبقى إلهاً. لكن قصة فاغنر هذه جعلتني مجنوناً.

رآه الكولونيل.

بصعوبةٍ تمكّن من تبيّن ظل لو سالومي التي لم تقل شيئاً بل اختفت في الضباب والصمت. وبدلاً من أن يبحث نيتشه عنها، التفت إليه هو، أمير زوالي، تاركاً ابتسامةً خبيثةً تضيء شاربه المتدلّي:

ـ يا عزيزي كولونيلَ الحروب الضائعة، لن تنتهي وحيداً كما توقّعت مجنونتك سارة بريكسي. تشجّع يا صديقي، لا يقتل الإنسان أبداً إلا نفسه. ومع ذلك فإن الموت في الظروف الأكثر حقارةً هو موت غير حر، موت لا يأتي في الزمان المراد، موت جبان. وموتك موتُ عظمة لأنه متعمّد، ها أنا من جديد يا صديقي، أنا فيك، أنا متاهتك.

ـ أشعر أني ضعيف جداً ووحيد جداً.

ـ إنها هشاشة الخلود. والخجل من الخلود هو أولى درجات

السلّم. وعندما يصل الإنسان إلى الأعلى سوف يخجل من موته الخاص. هذه هي الصورة الرائعة للعظمة. في الساعات الكارثية من التاريخ تتجلّى عظمة الإنسان، في الساعات التي تدور فيها عجلة التاريخ بسرعة جنونية.

ـ أنا أتألّم. لقد كنتَ قاسياً جداً على سالومي.

ـ دعكَ من سالومي. إنها محظوظة لأني لم أفعل بها ما فعلتَ أنتَ بسارة بريكسي.

ـ إنها قصة قديمة.

ـ في هذا العالم، كل شيء قديم، حتى حركاتنا التافهة. ها نحن الاثنان، متوجّهان نحو القمم في هواء آنغادين النقي والنادر، أمام حقول برنينا الثلجية. الغيوم تحلّق على مقربة شديدة منا. أنتظر قصفة الرعد الثانية. وأشعر بالعواصف الكبيرة الآتية نحونا لمساعدتنا على مواجهة وحدتنا. هذه المرة، لن نترك لها فرصة أن تحرقنا. سوف نصعد بأنفسنا فوق كومة الحطب وسنشعل لهب حريق عملاق من أعلى الجبل.

ـ هل أنت مجنون أم ماذا؟ أنا أتمزّق يا صديقي. دعني بسلام يرحم والديك. عف ربي. لقد قمت بما رأيته جيداً، ولم أطلب الإذن من أحد. لم تعد حربك مع فاغنر تعنيني، ففاغنري أنا هو هذه النوارس النتنة.

ـ عظيم جداً. لا أحد يحكم عليك. أعرف أنكَ آسف، ليس على الموت، بل على غياب المجد. ولكن لا يهم، فقد حصلتَ على ماحصلتَ عليه في عالم المنحطّين هذا. أنتَ تخشى أن يرى التاريخُ فيكَ طاغيةً، لا قيمة لذلك أبداً لأن من يسمّى شرّيراً هو من كان قوياً وخطراً ومخيفاً، إلى حدٍّ ما، ومن هو ماهر وقوي ولا يتحمّل الاحتقار. في أخلاقية العبيد هذه، إن الطاغية إذن هو من يفرض الخوف؛ أما في أخلاقيات السادة، بالعكس، إن الطيب هو من يُحترَم ومن يفرض احترامه، ويكون السيئ جديراً بالاحتقار. الطيب في

شرع العبيد، هو من ليس فيه ما يُخشى؛ إنه في منتهى الطيبة، ويُخدع بسهولة، وربما كان غبياً بعض الشيء. كلّما ساد نظامُ العبيد، تعْمَد اللغة إلى التقريب بين كلمتي طيبين وأغبياء.

ـ ولكن ماذا تخرّف، أيها... المجنون. لقد تكلّمتَ دائماً، ولكن في الواقع، أنا من طبّق كلامك. أنا تطبيقك المجنون. لماذا اخترتَ موت البطء والمصحة، في حين أن موت رجل قوي كان بانتظارك؟ هل كنتَ خوّافاً إلى هذا الحد؟

ـ لا، لم يكن لدي إمكانيات خياراتك. إن القدر المحض هو الذي أراد أن أنهار في الشارع، وأن يتغيّر كل شيء منذ تلك اللحظة. أما التتمة فقد نفّذتها أختي إليزابيت الغبية، وأمي اللتان غيّرتا مجرى موتي العظيم تماماً. من الأفضل أن يموت المرء عزيزاً إذا لم يكن بوسعه أن يعيش عزيزاً. الموت المُختار بحرية، وفي الوقت المراد، وبتصميم وبقلب فرِح، هو موت العظماء. أنتَ رجل عظيم، والرجال العظماء هم كالعصور العظيمة، مواد متفجّرة، تراكمات قوى، شرطهم الأولي هو دائما انتظار مجيئهم الطويل، واستعداد وانطواء على النفس.

ـ بوو... ف!

زبد عارم وفقاعات حمراء تشكّلت على شفتي الكولونيل كما لو أن فمه كان مليئاً بصابونٍ ملوّن. ثم أخذت الفقاعات تنفجر الواحدة تلو الأخرى لتصبح دماً أسود يسيل من جانبي فمه المفتوح والصامت والهادئ. عين كلب مريض، ما تزال تحاول أن تنفتح وتنظر إلى الإمام إلى الأنوار الأخيرة التي ظهرت فجأةً خلف كومة الغيوم

في نظرته الحيوانية، المليئة بالمرارة، لم يرَ شيئاً إلا نفسه، متّخذاً مكان الراقص على الحبل الذي بدأ عمله؛ كان قد خرج من باب خفي صغير ومشى على الحبل المشدود بين برجين، فوق الساحة العامة وفوق الناس. وبينما كان في منتصف الحبل تماماً، انفتح

الباب مرةً ثانية، وقفز منه صبيّ مبرقع الألوان، له هيئة المهرج، وتبعه بخطى سريعة. صرخ به المهرّج بصوت مخيف:

ـ إلى الأمام أيها الأعرج! إلى الأمام أيها الكسول! ماذا تفعل بين الأبراج؟ يجب أن تكون مسجوناً في البرج. إنكَ تقطع الطريق على شخص أجدر منك.

وفي كل كلمة، كان الكولونيل، راقص الحبل، يرى عدوَّه يقترب منه أكثر، وعندما صار على بعد خطوة منه، أطلق المهرّج صرخة شيطانية وقفز من فوق من يسدّ عليه طريقه.

تساءل الكولونيل راقص الحبل بصوت عال:

ـ هل تعتقد أنكَ نلتَ مني؟ يلعن طيز أمك يا ولد القحبة! ياشيطان الزب! لن تنال مني أبداً هكذا. أنا سأنال منك، ولن تنال مني حياً. انتهى الأمر، أنا نلتُ منك يا صاحبي، بموتي، لأن حياتي هي أصلاً في الهاوية.

بعد أن رأى راقصُ الحبل بنفسه انتصار غريمه فَقَد الرأس والحبل ورمى عصا توازنه بطريقة أسرع ثم ارتمى في الهاوية كزوبعة من ذراعين وساقين.

انغلقت عين الكولونيل اليسرى نهائياً على لاشيء. لم يسمع إلا صوت الأمواج التي تتكسّر على صخرة سيدي فرج البركانية القديمة. وفاحت رائحة البحر والأشنيات لتملأ رئتيه المغلقتين.

شخر للمرة الأخيرة.

كان الزمن معلّماً بتسارع غير عادي.

مخنوقاً كحيوان هرِم، أغلق بهدوء عينه اليمنى التي كان ماتزال تسمح بمرور بعض أشعة النور.

انطفأ شعاع بهدوء وانمحى في الليل رويداً.

الفصل الخامس

ما وراء الخير والشر

1

كان البحر نقياً كمرآةٍ ساحرة، صامتاً وساكناً. لا صوت إلا صوت النوارس البيضاء التي تشبه صوت الأطفال الرضّع المغتبطين والفرحين الذين لا يستطيعون إخفاء فرحهم.

والأمواج تأتي وتذهب بإيقاعها الفاغنري الأبدي.

هذه هي المرة الثالثة التي تأتي فيها عايشة البكّوشة إلى هنا بلا نتيجة، وبيدها ورقة وقلم رصاص مقروض كلياً وعليه آثار أسنان فئران صغيرة. تلك هي عادتها، فعندما لا تأكل أصابعها، تأكل أقلام الرصاص. كانت عصبيةً بعض الشيء وكأن شيئاً ما ينقصها. منذ أن ذهبت النورسة الوردية والكلب والكولونيل، ولم يعودوا، لم تعد تنام، وصارت تُمضي جزءاً كبيراً من ليلها في محترفها تنحت الصخرة التي قدّمتها لها الولاية، والتي بدأت تتخذ شكلها النهائي.

لم تفهم عايشة شيئاً. كيف لكولونيل أن يغامر بركوب بحر هائج بقوة ومغطّى بالضباب؟ لا بد أن من يفعل ذلك مجنون. الصورة التي بقيت في رأسها هي صورة ذلك الكلب المسكين المريض الذي ارتمى في البحر، ولا أحد يعرف ما إذا كان ذلك من أجل إنقاذ النورسة الوردية التي تساقط ريشها بسبب طلقة البندقية، أم أنه كان يريد اصطياد الطريدة كعادته. كان يبدو مريضاً جداً، ولكن عندما ارتمى في الماء فكأنما كان مدفوعاً بقوة خفيّة لا تقاوَم، كما لو أنه

كان متأثّراً بكلمات الكولونيل التي كانت تردّد كل مرة أن الكلب تبدو عليه أمارات الضعف.

أنت تعرف يا غزالي العزيز أن الحياة صعبة، ويجب الإمساك بها من مركز قوتها، وعلى الأخص لا تمرض، فأنتَ تعرف أن المريض طفيلي على المجتمع. وبعد أن يصل المرء إلى حالة معينة من غير المناسب أن يعيش طويلاً، والعناد على العيش بجبن، عبداً للأطباء والممارسات الطبية بعد أن يكون قد فقد حس الحياة وحق الحياة يجب أن يجلب الاحتقار العميق من جانب المجتمع. إذن حرّك إليتيك وبسرعة.

كما إن عايشة البكّوشة لا تستطيع أن تطرد صورة الكولونيل وهو يتشبّث بالفلوكا الأنتيلية القديمة المرقّعة، راكباً بحراً، لا يمكنه، في طقسٍ كهذا إلا أن يجلب الموت والمآسي. هل ذهب لقتل النورسة الورديّة أم للبحث عن غزال الذي لم يتعلّم، طوال هذه السنين المنصرمة، إلا طاعةَ سيّده. إن شيئاً ما لم يعمل بصورة طبيعية في اللحظة المحدّدة التي كان يجب أن يعمل فيها.

لم يُفرِج الصباح عن شيء.

أبلغت مسؤولي المنطقة خطّياً عن الخطر الذي يُحيق بالكولونيل. ظاهرياً، لم يكترث أحدٌ لما يمكن أن يصيبه. ولم يتجرّأ أحدٌ على ركوب البحر بحثاً عنه في منتصف الليل في بحرٍ هائج. ومدير الـ م م ح لا يتحرّك إلا بأمر، وحتى الساعة التي كلّمها فيها لم يأته ما يدفعه للقيام بواجبه كمدير للمنطقة. ولكي يتحلّل من أية مسؤولية كرّر عبارته المعتادة والتي لا تخلو من الخبث ومن أية عاطفة تجاه غريق ربما كان يعاني الموت:

ـ اسمعي يا سيدتي، لا تقلقي، فمن المؤكّد أن الكولونيل سيخرج منها سليماً، فهو معتاد على القيام بذلك مع النوارس.

ولكي تجيب الفنانة، تقوم دائماً بالكتابة على دفتر صغير تحمله معها باستمرار:

ـ ولكن الكولونيل وكلبه في خطر.

ـ الخطر غير موجود إلا في رأسك.

ـ ها قد مرّ حتى الآن ثلاثة أيام ولم يعُد أحدٌ منهما، لا الكلب ولا الكولونيل ولا حتى النورسة الوردية، تلك الضاحكة الرهيبة.

ـ العظماء يخرجون سالمين من أخطر المواقف، والكولونيل رجل المفاجآت الكبرى، ولن يتأخّر في مفاجأتنا، أنا أعرف جيداً. لاتستعجلي يا ابنتي، أنتِ فنّانة، وتعرفين الصبر، وعليكِ أن تصبري.

في الواقع، لم تصدّق كلمة واحدة، ولكنها كانت بحاجة إلى ذلك. فالكذب يطمئن أحياناً، حتى لو كان كذباً يسطّح الخيال ويجعله غير فعّال.

منذ الاختفاء لم تفعل شيئاً سوى الانتظار.

بينما كانت تسير على الشاطئ، رأت فجأةً هيكل نورسة وردية مع بعض الريش البنفسجي والوردي الذي ما زال ملتصقاً بالجناح الأيسر: وهناك رأت ثقباً كبيراً، وجرحاً خطراً جداً. أخذت النورسة ووضعتها في حمضٍ لكي تحلّ بقية الجسم. ثم مسحت العظام الصغيرة عظماً عظماً، وكأنها مواد ثمينة، ثم وضعتها في سلة من القصب مع بعض العظام المحروقة لبعض النوارس التي أحرقها الكولونيل منذ أن بدأت العمل في موضوعها الجديد.

وخلال عودتها، وفي منتصف الطريق، رأت جثة الكلب وقد وصلت لتوّها إلى الشاطئ، غير بعيد عن حجر الزاوية التي كان الكولونيل يربطه بها لئلا يزعجه في حربه من النوارس.

نظرت إليه طويلاً، كان فمه ما يزال مفتوحاً، كما لو أنه كان يحاول أن يلحق بالنورسة الوردية قبل موته، ولكن كان ذلك مستحيلاً لأن تلك النورسة كانت تفعل كل شيء لتبقى حرّة ولتحافظ على مسافة أمان دائمة.

فكرت:

ـ يا إلهي! الحياة ظالمة جداً!.

حاولت أن تحرّكه، لكنه كان ثقيلاً جداً.

ـ ها هو حيوان حقيقي، روح مليئة بالحياة، يغدو فجأةً أقل من لا شيء، كيس قمامة.

للحظةٍ، فكرّت أن تجرّه خلفها لكنها وجدت ذلك مهيناً جداً لحيوان وهب نفسه تماماً لسيده حتى موته. نظرت من حولها فلم ترَ شيئاً إلا هذا البحر الصامت والجاحد أحياناً. حاولت مرةً أخرى ثم حملته بين يديها بكل قوتها. ترنّحت في البداية ثم استعادت توازنها ومشت باتجاه أعلى الهضبة حيث دفنته غير بعيدٍ عن كوخ الصيادين القدماء.

حاصرها الوقت قليلاً، فأخذت تعمل حتى في الليل لكي تتمكّن من إشباع رغبتها العظيمة في الإبداع.

بطقسية يومية جديرة برجال مؤمنين، كلَّ مساء، كانت تزيح قطعة القماش البيضاء التي تغطّي التمثال، تضع السلّم على الجسد الضخم الذي اتّخذ شكله النهائي وتبدأ العمل على الرأس العالي جداً وعلى تفصيلات الفم حتى لو لم يكن لديها قلب. كانت تحسّ بثقل في معدتها منذ فقدان الكولونيل والكلب، ولم تكن لتتجاوزه إلا بالاستغراق في العمل الذي، بطبيعته، يتطلّب كلَّ انتباه.

انتهى النهار دون أن يتبدّد الشكّ في وفاة الكولونيل.

في الليل، ودون أن تنتبه، دأبت على العمل على ناب أبيض جداً يلمع تحت شعاع ضوء قوي كما لو أنه كان مقدوداً من رخام. التمثال يقترب من نهايته.

2

عندما لفظ البحر جثة الكولونيل أمير زوالي خارج السياج الأمني وفمه مليء بالرمل، لم يكن في تلك النواحي إلا عايشة البكّوشة بطقسيتها اليومية. فهي تخرج في الصباح ولا تعود إلى الكوخ إلا بعد أن تكسر الشمسُ بلون نحاسي إشعاعاتِ البحر الزرقاء.

ذاك الصباح، كانت أول من رأى جثة الكولونيل التي قذفتها من بعيد أمواج بحرٍ غاضب جداً غيّر هيئته تماماً خلال أقلّ من أربعٍ وعشرين ساعة. بدت الجثة ثقيلة جداً، بيد أن التيارات القوية جداً سحبتها نحو الغرب. تبعتها عايشة حتى خروجها من المنطقة، خلف جدار الفصل المصفّح، وسط لامبالاة الجميع.

حتى الأشخاص الذي دفعهم فضولهم إلى الشاطئ لم يكفّوا عن تكرار لازمتهم:

- آه، إنه المجنون الذي يصطاد النوارس.

كانوا ينظرون إلى الجثة لحظةً ثم يمضون تاركينها لقدرها المأساوي من الوحدة والرعب.

خلعت عايشة البكّوشة معطفها وغطّت به جثة الكولونيل الهامدة.

بعد أن فهم حرس الشواطئ طلب عايشة بصعوبة، أبلغوا إدراة الـ م م ح. كانت جثة الكولونيل أمير زوالي المنتفخة أثقل بكثير من

أن يتمكّنوا من نقلها بعيداً. في الإدارة عاشوا كثيراً من التردّد: هل يجب أن يعدّوه على أنه ما يزال من سكّان المنطقة، أم أنه غريب، لأنه لم يعد ضمن قائمة المقيمين، ثم لأن جثته وجدت خارج المنطقة المحاطة. حرس الشواطئ ورجال الدرك هم من قرّروا في النهاية نقل الجثة من المكان إلى المستوصف ثم إلى مستشفى باينيم للتشريح، قبل تسليمه لنائبه الذي أتى لاستلامه مع سيارة الموتى، سيارة مُحضّرة خصّيصاً لذلك، كان هذا الأخير يستخدمها لغايات خاصة عندما لا يكون هناك دفن منتظر.

كان الوكيل منزعجاً بعض الشيء لأنه لم يعد يملك كثيراً من الخشب الجيد ليصنع منه نعشاً للكولونيل. والقليل المتبقّي كان مطلوباً ومدفوع الثمن سلفاً، إذ كان قد قبض سلفةً بالعملة الصعبة نظراً لقلّة الخشب.

لم يلبث أن وجد الحل المناسب. قرّر أن يضعه في نعش من الخشب العادي ثم يلفّه بقماش متوسّط النوعية، لأنه لم يبقَ من الساتان الأبيض الجيّد إلا ثوب لا يستطيع أن يفرّط به.

ما إن رفع الجثة حتى تبيّن له الثقب الذي أحدثته الطلقة. تساءل طويلاً عن سبب وفاة الكولونيل ثم فتح الملف الطبي للتشريح. قرأ منزعجاً الخلاصة الطبية دون أن يسعى إلى معرفة المزيد:

«رجل بصدر مثقوب برصاصة، توفّي بنوبة قلبية، وفاة طبيعية!؟» موافق، لأنهم هم من يقولون ذلك. هم أطباء، أليس كذلك؟ لا يمكننا أبداً أن نعارض كلام أطباء لاسيما في وضع مصيري كهذا. إذن يجب أن ننسى قصة الطلقة. باختصار، لقد قضى بنوبة قلبية. على أية حال، ما من قتيلٍ رفع شكوى قطّ ضد كذب قاتله.

لفّه أولاً بقماش ضمادٍ طويل من الكتّان الرقيق قُدّم إليه في المشفى. وعندما اكتشف جرحَ الكولونيل فهم لماذا قدّم له الطبيب هذه الهدية، ولماذا أصرّ على أن يأخذه معه.

ـ بلى، بلى، ستكون بحاجة إليه. عادةً يُغطّى به الموتى إذا كان

جزءٌ من أجسامهم متهتّكاً جداً. لقد أصيب جزء صغير من جسم الكولونيل بسمكة أو بقطعة معدنية بفعل الأمواج العاتية التي قذفته نحو حواجز مغطّاة بالأسلاك الشائكة *(كانت الحواجز ملساء ومستوية)*.

- إذا كان الأمر كذلك، موافق. أشكركم، وسأقوم بالباقي. هذا من واجبي، فهو من أعطى حياتي معنًى.

- نحن نعلم جيداً أنكَ ستقوم بما هو جيد وأنكَ ستُحافظ على حميميةِ جثة شخصٍ *أخلص لوطنه بجسده وروحه*.

هرس الكلمات الأخيرة هرساً لكي يُبرز ما يريد أن يفهمه وكيل الكولونيل.

- أنا واع جداً يا سيدي، ونحن مثلكم، فاحترام السر الطبي من صميم عملنا.

طوال طريقه إلى عمله، لم يكن يفعل إلا اجترار كلمات الطبيب، ولكن بعد اكتشاف الجرح الفاغر صارت الرسالة التي سمعها واقعاً مفهوماً. باختصار، يجب السكوت، والامتثال لآراء الأطباء.

كان النعش صغيراً على حجم الكولونيل. ففي أوقات الأزمة هذه يجب الاقتصاد في استهلاك الخشب الذي أصبح نادراً جداً، كما قال الوكيل لنفسه. بجهد جهيد، تمكّن من وضعه داخل النعش، دافعاً إياه دفعاً بيديه وقدميه كما لو أنه كان يملأ كيساً من التبن.

- نعم، أنتَ صعب يا عزيزي. هيا أنتَ ميت ولن تشعر بشيء. ويجب أن يعيش من بقي على قيد الحياة. لا تقلق، فلن ينقصكَ شيء هناك. ألستَ أنتَ من قلتَ إن الحياة الآخرة مبنية من مواد الحياة الدنيا نفسها؟ وأعتقد أنكَ لستَ بحاجة إلى إمام ليصلّي على روحك. أعتقد أني أستطيع أنا أن أقوم بهذه المهمة. نحن أصدقاء أليس كذلك؟ أنا نظيف، فلا تخشَ شيئاً على مستقبلكَ يا عزيزي. لقد قمتُ بما يلزم من الألف إلى الياء.

أغلق النعش وسمّره كبابٍ قديم ينغلق بصعوبة، كتب اسم

الكولونيل وشهرته ودهن النعش بالورنيش، ما منح النعش وخشبه بريقاً خاصاً.

ـ ها أنتَ يا صديقي، جاهز للذهاب الأبدي.

بعد أن أنهى كل الاستعدادات، ركب سيارته *إسباس*، مرّ قليلاً بصديقه المحامي، وأمضى عنده نحو ساعة من الزمن لإنهاء الإجراءات الإدارية بخصوص نقل النشاط الإداري كله إلى فيللا بن عكنون، فهكذا كانت رغبته. وتلك مسألة كان الكولونيل قد بدأها في أثناء حياته.

بل إنه عمد، هو وزوجته وأسرته المكوّنة من خمسة أولاد إلى زيارة الفيللا التي تبدو كقصر مغربي. بيت قديم يعود إلى الأملاك العامة كان قد اشتراه بالدينار الرمزي، وأعاد بناءه كلياً، بعد أن هدم الأقواس المبنية من القرميد المليء وباحته التي كانت تضايق عملية توسيع الفيللا. فرحت الأسرة كثيراً بالمسكن الجديد، إنها مسألة وقت فقط.

تمتم بفرح لزوجته:

ـ كل شيء عند المحامي، حتى ورقة البيع. كان الكولونيل يوقّع لي ما كنتُ أقدّمه له دون قراءة. لقد كانت ثقته بي عمياء وكاملة، وأنا لم أخنه أبداً.

بل إنه أرى أسرَته المكتبَ الذي سيصبح صالحاً للعمل بدءاً من الأسبوع القادم. كما أراهم التغييرات التي يمكن أن تُجرى في البيت. إنه ينوى تحويله إلى فيللا كبيرة من ثلاثة طبقات، لذا كان يجب عليه أن يتبنّى طرازاً معمارياً حديثاً يرتكز على الهندسة الفراغية.

مسألة وقت، لا أكثر ولا أقل.

لطالما عمل النائب بشرف كالساعة. إن الله هو الذي يفتح الأبواب الآن. ليس لديه ما يفقده، إما يُغير هو أو يغير الآخرون.

في العودة، وضع أسرته عند أخت زوجته، ثم تابع سيره في المدينة قبل أن يتوقّف في مكان عمله، شارع المعدومين، مقابل المسلخ البلدي، غير بعيد عن مسجد كابول في بلكور.

أما عايشة فلم تغادر المكان إلا بعد أن لفظ البحر الهائج ضحيَته الأخيرة في المساء ذاته: فلوكا مهشَّمة كلياً ومتشقّقة من كل جانب. كانت تريد أن تسحبها نحو كوخ الصيادين القدماء وتحتفظ بها، لكن حرس الشواطئ ظهروا فجأةً واستولوا على الفلوكا لضرورات التحقيق. على الأقل هذا ما أفهموه لعايشة البكّوشة التي لم تُبدِ أي اعتراض.

3

بعد ظهر اليوم التالي، نقلت جثة أمير زوالي ودُفنت في ضاحية معزولة قرب ريغايا لأن ذلك كان أسهل. وعندما سئل الوكيل: لماذا هذه المقبرة المعزولة، أجاب بلا تردّد:

ـ كانت هذه رغبة المرحوم. لم يكن الكولونيل يرى إلا ثلاثة احتمالات للدفن: إما في المنطقة صفر، تحت أساسات قصر الأميرة ضيا، داخل الثكنة، هذا إذا أبدى المسؤولون العسكريون تفهّمهم لطلبه ووافقوا على نقل جثمانه بطائرة عسكرية؛ أو في العاليا، بين بومدين وبوضياف، إذا قبلت الدولة أن تتكفّل ذلك؛ أو في المقبرة المتواضعة في ضاحية ريغايا القديمة، إذا لم يتظاهر العسكريون والدولة، من أجل مشاغل أهم من موته. وبما أن أي مسؤول لم يُبد أية حركة لتحقيق رغبته، قمتُ بما يجب أن أقوم به، أي أنني وجدتُ له مكاناً في هذه الصحراء التي تنسى أهلَها بسرعة. إنه عرفاني لهذا الشخص وواجبي نحو من خاض كل حروب القرن دون استراحة وبلا هوادة، حتى تلك الحرب التي خاضها ضد نفسه.

لا أحد ممن كانوا يعرفونه استطاع حضور الدفن، بل إن بعضهم انسحب متذرّعاً بالمسألة الأمنية، وآخرون صمتوا بكل بساطة. لم يعلّقوا على خبر وفاة الكولونيل، ما خلا مسؤول عائلة الثوّار الدائمين الذي لم يكن الكولونيل يحبّه كثيراً والذي قام بزيارة خاطفة للمكان ثم انسحب حتى قبل أن يوارى الجثمان الثرى. بل اقترب من النائب، مال عليه، ثم وشوشه في أذنه:

ـ هل أنت الوكيل؟

ـ أنتَ تنسى بسرعة، نعم يا سيدي، أنا أعرفك جيداً. لقد التقينا عند الكولونيل أمير زوالي منذ ما يقارب الشهر، عندما مررتَ به لترى ما إذا كان قد وقّع على ورقة التنازل عن جميع أملاكه لصالح *عائلة الثوار الدائمين*. هذه العائلة العظيمة لجميع المحتاجين التي كانت تقاوم أعداء البلاد الجدد. هذه هي كلماتك يا سيدي الزعيم، لكي أُفهمكَ أن لي ذاكرة فيل. أنتَ تعرف أني والكولونيل كنا نتشارك في مشروع واحد. وكان يثق بي ثقته بولده. أنا لم أخيِّب أمله أبداً، وهذا ما يطمئنني اليوم.

ـ نعم، أنا هنا من أجل هذا. أريد أن أعرف ما إذا كان قد وقّع شيئاً ما. لقد وعدني أن يهتمّ بذلك عن كثب، وأنتَ تعرف أن ذلك كان منذ زمن طويل.

ـ نعم، منذ الانتخابات الرئاسية. لقد تأثّر كثيراً بذلك الاستبدال الذي حدث في اللحظة الأخيرة. منذ ذلك الحين، لم يستطع أبداً أن يغفر لـ *عائلة الثوار الدائمين* حركتَها الخرقاء وغير المدروسة.

ـ لستُ أنا من اتّخذ القرار، بل *عائلة الثوار الدائمين*، وهي سيّدة نفسها.

ـ ومع ذلك فقد استاء كثيراً مما قلتموه له فيما يخصّ سارة بريكسي التي ماتت منتحرةً، والتي كان يعزّها كثيراً، والتي واكب جنازتها حتى تلمسان مغامراً بحياته.

ـ لا تترافع أمامي كل هذه المرافعة. قل لي بالأحرى ما إذا كان قد ترك شيئاً ما يخصّني.

ـ لا، يا سيدي الزعيم. أنا لا أفعل أي شيء، فليس لدي الحق في ذلك. أنا أنكّرك، وهذا كل ما في الأمر. أما فيما يخصّ الأوراق فإنه لم يترك شيئاً. وأعتقد أنه لم يكن يريد ذلك عمداً، إذ لم يكن يرى فيه أية فائدة.

ـ أنتَ من يقول ذلك. وأوراق الفيلا التي ستحلّ لنا مشكلة المقرّ؟ نحن بحاجة إلى مكان اجتماع وهو سيحمل اسمه إلى الأبد. وهذه المرة سأسعى إلى ذلك بنفسي. إنه رجل ميداني له جميع حقوق التكريم، وإن كان ذلك بعد وفاته. فمع أمير زوالي ليس الوقت متأخّراً أبداً في فعل الخير.

ـ لا أعرف إن كان اليوم مهتمّاً بمثل هذا التكريم بعد وفاته. فهو لم يحدّثني عن ذلك قطّ، مع أننا كنا نتحدّث عن كل شيء. من المستغرب أن يقوم بشيء كهذا، فالفيلا أصبحت، في أثناء حياته، ملكية جماعية بينه وبيني. وهي اليوم مقر إداري لنشاطنا الذي مايزال موجوداً حتى الآن. وهذه هي طريقتنا في احترام روحه الطاهرة.

ردّ الزعيم بصوت أجش ومتشقّق ومخنوق:

ـ ولكن ليس لديه حق القيام بذلك في ملكية للدولة.

ـ ملك الدولة لم يعد له وجود تقريباً. لقد اشتراه قبل أن يتنازل لي بـ 50% من ملكيته. كان بحاجة إلى سيولة وقد أعطيته. على أية حال، لقد كنتُ الوحيد الذي وجده بجانبه في أوقاته الصعبة.

ـ ولكنه اشترى هذه الفيلا بالدينار الرمزي.

ـ وماذا إذن؟ ككل الناس. كل من امتلكوا الأملاك العامة، فعلوا مثله، بل كان هو من أواخر من فعلوا ذلك.

ـ سوف أوضّح ذلك، وقريباً، أنا أعدك.

ـ ألن تحضر الدفن؟

بلع بصعوبة كلماته واحتقارَه للنائب وقال:

ـ اغرب عن وجهي! وسوف أريك ماذا سأفعل. لا تقلق، فسأنتظرك عند المنعطف.

دار على نفسه ثم سار نحو سيارته مع سائقه ومع حارسه

الشخصي الذي كانت له عينا أوس. وقف خلفه كجدار من البيتون، ثم غاص الثلاثة في الليموزين.

تركت عايشة البكّوشة كل شيء وعادت ملفوفة بجلباب مغربي. لقد كانت الوحيدة من بين المقيمين في م م ح *(المنطقة مشدّدة الحراسة)* التي تتجرّأ وتجتاز حدود ريغايا التي أصبحت منذ سنتين منطقةً شديدة الخطر. وجدت نفسها فجأةً في مدينة لم تعد تعرفها بسبب القذارات التي تملأ الأرض، وعزلتها المخيفة، وحيث كانت تضع قدميها، من خليط الأشخاص والنظرات التي لم ترها ولم تعرفها قطّ. دخلت وسط مجموعة تائهة، أتت لكي تزور أقاربها وتطلب الرحمة لأرواحهم دون أن تطرح كثيراً من الأسئلة. لا أحد يعرف أحداً، أو هكذا يتظاهر لئلا يتحرّش به بالأسئلة. وحدها القبور الطريّة لموتى حُصدوا في زهرة شبابهم موجودون هنا تلبية لحربٍ ليس لها اسم. السؤال الوحيد الذي طرحه زوار المقبرة على الوكيل: هو ما إذا كان الوكيل مات ميتة عادية أو أن هدوك(*) هم من فعلوا ذلك. ما إذا كانت عايشة زوجة المرحوم، وذلك دون انتظار جواب من أحد. صار ذلك رد فعل تطوَّر في الحياة اليومية للأفراد. والناس هنا يعرفون تماماً أنه يجب عدم الإلحاح في طلب الأجوبة لأنها لن تأتي أبداً. إنها أقل أهمية مما نراه وما نعيشه.

في المساء، بعد نهار عمله الطويل، تمدّد الوكيل على الصوفا وأخذ يشاهد التلفزيون الذي كان يبثّ آخر الأخبار: وكان الخبر الأول إعلان جميع أعضاء الحكومة الجديدة عن ثرواتهم. وما لفت انتباهه هو أنهم كانوا جميعاً أفقر منه. وأنهم اتفقوا جميعاً، إذ قالوا إن لديهم جزءاً من إرث عائلي وسيارة تعود إلى الثمانينيات وبيت للوظيفة.

بل إن الوكيل نسي انتظاره لخبر وفاة معلّمه، وهو ينتظر بثّ هذا النبأ منذ يومين على القناة الوطنية الوحيدة، ولكن عبثاً. كانت

(*) أولئك الناس.

جميع الأخبار مرتكزة علي إعلان المسؤولين الذي لا يغيّر شيئاً من طبيعة الأمور، ولكنه يغطّي الدولة بجو من السخرية يتبادل فيه الجميع المزاح:

ـ هل رأيتَ الوزراء المساكين! إنهم أفقر منا. لا أحد منهم يمتلك فيللا ولا قطعة أرض ولا حتى سيارة جميلة. المساكين بحاجة إلى الاتصال بمؤسسات خيرية لكي ينهوا بقية الشهر.

ما هذا؟ ليس من المستغرب إذا ما انتهى الأمر بالناس ألّا يصدّقوهم حتى لو كانوا يقولون الحقيقة. سحقاً لهم، لماذا نحشر أنفسنا فيما لا يعنينا. هذا شعبهم، وهم من جعلوه هكذا. هذه أحابيلهم، ولا علاقة لي بذلك.

إن الفكر الفقير هو الذي يولّد هذه الوضاعة، كما كان الكولونيل أمير زوالي يحب أن يكرّر مستنداً إلى ذلك الرجل الغريب المسمّى نيتشه.

بفعل انعكاسي شبه شرطي، تناول الوكيل قلمه وهو يستمع إلى بعض الأرقام المتعلّقة بالمجزرة الأخيرة لعين دلفا وميديا حيث ذبحت عشر عائلات وقطّعت بالمناشير والفؤوس وسكاكين الجزّارين.

تمتم بأسف:

ـ بلد خرائي، عاجز عن إعطاء أرقام حقيقية. سوف أضطرّ للاتصال بأصدقائي ليقوموا بالباقي. الإذاعة أفضل بكثير. إنها أشجع. على الأقل نجد فيها العناصر الأساسية التي تسمح لنا بالعمل بشكل مناسب.

سجّل الأماكن واتصل بسجل غينيس لأكبر الكذبات في العالم. رجل ضخم عمره نحو خمسين عاماً، استطاع أن يُقنع الآخرين بأساس كذباته طوال عشر سنوات. توقّفت الصحافية ظاظا فجأةً كما لتدخل في توقّف ثم أعلنت:

«بسم الله الرحمن الرحيم، القادر على الخلق والقادر على أن يستدعي إليه خلقه متى يشاء. لقد أتانا فاكس من عائلة الثوّار الدائمين. اليوم غادر عائلة الثوّار الدائمين الكولونيل أمير زوالي إلى مثواه الأخير لكي يلتقي بأصدقائه ومخلصيه الذين صنعوا معه مجد ثورتنا العظيمة. إن عائلة الثوّار الدائمين تعلن الحداد على فقد هذا الابن البار، تغمّده الله بواسع رحمته».

ثم إن المذيعة ظاظا، أجمل المذيعات، ناسيةً تتمة غينيس، واصلت تقديم فيلم لهيتشكوك ضمن برنامج سينما منتصف الليل، لكن عرضه لا يبدأ إلا عند الساعة الثانية صباحاً.

أغمض وكيل الكولونيل عينيه نصف إغماضة، كديك، تاركاً طيف ابتسامة ساخرة يتسرّب من بين شفتيه الغليظتين المسودّتين بسبب التبغ الرديء الذي كان يدخّنه والشمّة، منزلقاً في حلم مليء بالألوان الجميلة وهو يغمغم:

- بلد شيطاني! ما هذه العائلة للثوّار الدائمين التي لا تستيقظ إلا بعد يومين من موت أحد أفرادها؟ يجب أن يكون الإنسان قوياً حقاً لكي يتمكّن من فهم هذا الفاكس العجيب الذي يستغرق ثمانياً وأربعين ساعة لكي يصل إلى التلفزيون! عينا هذا الأوس وهذا الزعيم لا تعجبانني. إنها آلات قتل. الأيام القادمة ستكون عصيبة، ويجب أن أكون متنبّهاً جداً.

4

ها قد مرّت ثلاثة أيام على وفاة الكولونيل.

عانت عايشة كثيراً في أن تشرح لعامل الرافعة بأن ينتبه عند نقل التمثال، الهش جداً بالنسبة إلى كومة الحديد هذه التي لا تبالي إذا وضعت بين أسنانها هذا الشيء أو ذاك.

أمضت صباحها كلّه في موقع الـ م م ح الذي يطلّ على البحر مباشرة، غير بعيد عن مسكنها، لكي يتمّ بأمان وبلا خسائر نقلُ التمثال من الكوخ إلى السهل الصغير المطلّ مباشرةً على الشاطئ المقفر، قريباً جداً من المكان الذي دُفن فيه الكلب غزال. ميمون لابارلوت هو الذي أعطى الأوامر بإعداد قاعدة للتمثال الذي بقي مغلّفاً بالكرتون والقماش الأبيض طوال فترة العمل. لم تكن عايشة تريد أن تكشف سرَّ شكل عملها، وإن كان كثيرٌ من جيرانها يعرفون أنه لا يمكن أن يكون إلا تمثال الوالي الذي ساعدها حقاً على إنجاز كثير من مشاريعها، أو تمثال الكولونيل الذي كانت معجبةً جداً بطقوسه اليومية. من يعلم؟ فقد يكون تمثال ميمون لابارلوت الذي يريد أن يكون رجل التضحيات العظيمة، حتى لو أن سكّان هذه المنطقة لم يتّخذوا قطّ كلامه على محمل الجد. يقولون إنه شخص يتكلّم كثيراً لكنه لا يفعل شيئاً أبداً. وإن تكلّم فلكي لا يقول شيئاً.

عند منتصف النهار تماماً، كان كل شيء جاهزاً. شُدّت البراغي الضخمة، ووضع التمثال في مكانه مقابل البحر. وتحوّل كوخ الصيادين القدماء إلى مكان رائع للاستقبال ولعرض الأعمال

الصغيرة التي تمكّنت عايشة من جمعها من أصدقائها، أو بكل بساطة الأعمال التي استطاعت أن تنجزها على هامش عملها الكبير الذي استغرق ما يقارب السنة.

وُضعت بسرعة ما يقارب المئة كرسي داخل الكوخ، ونُصبت منصّة صغيرة للمسؤولين الذين يريدون أن يتكلّموا. وكانت تلك مناسبة نادرة جداً لإعادة العلاقات مع عايشة التي لم يرها كثيرون منذ الاختطاف الذي تعرّضت له وكانت ضحيته الأكثر حظاً في العالم.

حوالى الساعة الثالثة عشرة، صار كوخ الصيادين القدماء نقطة التقاء مقصودة تماماً. وتحوّل تدشين كان من المفترض به أن يكون في منتهى البساطة إلى ملتقى لمختلف المسؤولين على مستوى المنطقة أو على البلاد، وقد تخلّلهم مشط الأمن الرفيع. كانت الفنّانة تعرف تماماً سبب هذا الحشد، لكنها لم تكن تتخيّله أبداً بهذا الكبر. كانت تراهم يتوافدون كرتلٍ في الجيش، من نافذة مسكنها. وخلال ساعة صار الكوخ الصغير معرضاً حقيقياً. بل إن كثيرين منهم أتوا من وسط الجزائر، حتى مع مصاعب الوصول إلى مكان كهذا، فقد وصلوا واتّخذوا أماكنهم داخل الكوخ.

كان الجميع هنا رغم البرد. ممثل الحكومة، والي تيبازا، المسؤول العسكري للمنطقة ولـ م م ح *(المنطقة مشدّدة الحراسة)* ومسؤولو الولاية والمدير الإداري ميمون لابارلوت ومدير متاحف المدينة ووكيل الكولونيل الذي لم يكن يعرف لماذا هو موجود هنا، وزعيم *عائلة الثوار الدائمين* الذي كان يسعى عبثاً لتدبير خلوة مع الوكيل الذي كان يحاول دائماً أن يجتمع مع أشخاص على خلاف مع الزعيم. في البداية، عندما تلقّى الدعوة الشفهية من ميمون، لم يقل له هذا شيئاً. كان يظن أن الأمر يتعلّق بوفاة أحد المسؤولين، وفيما بعد علم أنه إزاء شيء آخر لا علاقة له أبداً باهتماماته العادية. قال لنفسه:

ـ إنها مناسبة للتعرّف إلى الناس، وليعرفني الناس، وربما للحديث مع المدير في إمكانية السكن في الموقع.

وكان هناك كثيرٌ من الصحافيين، من أصدقاء عايشة البكّوشة وبعض الفنّانين من مدرسة الفنون الجميلة وكان معظمهم من تلامذتها عندما كانت تمارس التعليم، وكثيرٌ من الفتيات.

كان الوالي هو الشخص الأكثر فرحاً، إذا كان مسروراً جداً من عمله، فهو المسؤول الأول في المنطقة، وربما في البلاد بأكملها، الذي كرّس نفسه للفن وبذل قصارى جهده لتطويره، ولم يتردّد البعض في القول إنه سيصبح وزير الثقافة المقبل.

حين وصلت الفنانة إلى المكان قادمة من الشاليه المجاور، كانت رائعة. وكان لباسُها القبلي بلون النار وسماء الأصيل، يمنحها شباباً طفولياً خاصاً، وهي التي تجاوزت الثلاثين. صفّق الحضور بقوّة لمقدمها. عانقت طالباتها في الفنون الجميلة أولاً ثم الصحافيين، ثم احتضنها الوالي كما يفعل الأصدقاء القدامى. أحسّت ببعض الضيق وهي تحاول التملّص من بين ذراعيه.

ـ إذن يا جميلتي، أنتِ الأقوى فينا. في المرة القادمة ستقيمين معرضك في مقرّ الولاية نفسه. هذا المكان ليس من قيمتك ولا يليق بقيمتك الكبيرة، يا عزيزتي عايشة.

أمسك بها من يدها لكي يعرّفها بجميع المسؤولين المدعوين. وبما أنها لم تكن تتكلّم كانت تكتفي بهزّ رأسها علامة الامتنان.

بعد تبادل أنخاب الويسكي والليمونادة، بدأت الخلوات. أصرّت على أن تكون الويسكي والنبيذ الأبيض إلى جانب الشاي بالنعناع. ولطالما ثارت ضد خبث مسؤولينا الذين يستهلكون آخر ماركات الويسكي الاسكتلندية، وعندما يتعلّق الأمر باستقبالات يقيمون سينما من العيار السيئ التي يعرف الجميع طابعها الكاذب. إقناع مَن؟ المجتمع التقليدي؟ لم تكن تكفّ عن الاحتجاج عندما كان لها لسان. هذه تعرف الحقيقة كلّها ولا تريد أن يُظَن أنها خادعة. من الأفضل

تعويدها على قبول الخيارات الشخصية على السقوط في الأكاذيب التي لا تُقنع أحداً. كانت أول من تناول كأساً من الويسكي. نظر إليها المسؤولون جميعاً نظرة ارتياب وأقداح الشاي بالنعناع في أيديهم قبل أن يضعوها على أقرب منضدة ويستجيبوا لإغراء الويسكي وهم يتبعون حركة الوالي بصورة آلية.

الوالي هو أول المتكلّمين. كان قد أفرط في الشرب قبل أن يأتي إلى هنا، لكنه بقي محافظاً على توازنه. مع كأس شاي بالنعناع أراد أن يأخذه معه، وتحت النسيم البارد الآتي مباشرةً من البحر، صعد درجات المنصة التي أقيمت من أجل المناسبة. بدت قامته أطول من المعتاد، كما لو أنها كانت أطول من قامة رجل عادي.

- السيد ممثل الحكومة، السيد مدير عائلة الثوار الدائمين، أصدقائي المسؤولين في كل المجالات ولاسيما مجال الفن، أخوتي فناني هذا البلد الذي يرفض أن تُخنق حرية التعبير، باسمكم أقول مبروك لعايشة التي تجاوزت كل الإحباطات المتمثّلة بذلك القطع الدراماتيكي للسانها. لكن الفنّان لا يُقتل أبداً. إن نبتةً تنمو في أسوأ الظروف المناخية، وحتى إذا ما قُطعت فإنها تنمو إلى ما لا نهاية. هكذا هي الحياة، وليكن ما يكون. لعايشة عينا فنانة تجيد تقييم أبناء البلد، ولها يدان تستطيعان منح الحياة للصخر الأصم. أنتم تعرفون تماماً أني فعلتُ ما بوسعي لإعطاء دفعة حقيقية للفن في هذه المنطقة ذات التوجّه السياحي، وسوف أعطي أكثر إن شاء الله إذا ما وثقت الحكومة بجهودي. المشكلة الحقيقية في هذا البلد ثقافية بصورة أساسية، ولن يكون الفنانون هم من سيعارضونني بكل تأكيد لأنهم يشاركونني ألمَ هذا الإهمال للثقافة. والسيد ممثل الحكومة شاهد على الجهد الذي تقوم الدولة بتقديمه لصالح هذه الثقافة التي نريد أن نشجّعها. الثقافة هي الآن وستبقى سلاحنا الدائم للدفاع عن أنفسنا ضد أعداء بلادنا. وأنا أعلن رسمياً أمامكم أن مكاناً سيوضع تحت تصرّف عايشة. ومنذ الآن وحتى ذلك الحين، سيكون موقع تيبازا السياحي في خدمتها. أهلاً وسهلاً بها في أي

وقت ترغب. وأقول لعايشة مرةً أخرى: إن البلاد معكِ وتعيش على إيقاع مأساتك، أقصد الصمتَ الذي جعل منكِ في النهاية فنّانة الأيام الأفضل. شكراً لهاتين اليدين اللتين جعلتا الحجر الصلد يتكلّم، وشكراً لهذه السيدة العظيمة التي حوّلت الصمت إلى فضاءٍ من الحب والطمأنينة. أحييكم جميعاً.

بقيت عينا مدير *عائلة الثوار الدائمين* معلَّقتين على وكيل الكولونيل ولم يتزحزح قيد شعرة من مكانه. وبقي وجهه المتجهّم والصقيعي رغم احمراره وجهاً عظمياً وكأنه حجر خفّان.

طوى الوالي ورقته طيّتين كإمامٍ بعد انتهائه من خطبة الجمعة ثم انضمّ إلى المدعوين دون أن ينْسى ضبط وضع ربطة عنقه واستدارتي مؤخرته، ثم جلس مكتوف اليدين كتلميذ عاقل أحمق ينتظر أن تُقدَّر حركتُه المهذّبة. قال لنفسه: إن غريزتي الفكرية لاتخونني أبداً. عايشة الخرساء فنانة. إنها لا تتكلّم لكنها تعرف كيف تقدّر قيمة الناس.

كان المتكلّم الثاني ميمون لابارلوت، المدير العام الإداري للـ م م ح الذي تحدّث باسم جميع السكان:

ـ أنا مثلكم تماماً، في غاية السرور باستقبال الفنّانة في منطقتنا التي ستتحدّث عنها في مستقبل قريب بفضل هذه السيدة المليئة بالجمال والإنسانية. من ناحيتنا، وضعنا تحت تصرّفها كوخَ الصيادين القدماء هذا لكي تستمع دائماً إلى أصوات أكثر أبناء شعبنا احتياجاً. إننا نشكرك يا عايشة، فأنتِ الأجمل من الجميع والأجرأ، إلى جانب ليلى نسومر والجميلات اللواتي حرّرننا من الاستغلال. أنتِ لستِ وحيدة، فنحن جميعاً لسانك.

في تلك اللحظة، كانت تفضّل أن يكون لها لسان لكي تتكلّم وتقول: تبّاً لكم! أريد أن أكون وحيدة، وحيدةً تماماً. أنا لستُ أحداً إلا نفسي، مواطنة بسيطة وعادية تموت يومياً عشر مرات على الأقل. حتى وهي في مأمن تشعر بأنها ستُقتل. تنام وتأكل وتتكلم في

الكوابيس. مسكين ميمون، إنه لا يعرف أنه لا يستطيع على الإطلاق أن يكون صوتي ولا حتى لساني. إنه مزحتي وعبثي وجرحي الأكثر إرعاباً.

من حرموها من لسانها لم يكونوا يعرفون جيداً ماذا تفعل ولا عملها الحقيقي. لم يكتفوا باغتصابها كلٌّ بدوره كالكلاب المسعورة، عندما اختُطفت عند باب محترفها تماماً، غيرَ بعيد عن قيادة القوى البحرية، قرب القصر التركي حيث كانت تعمل لتجديد داخله. لم تكن تتذكّر إلا الحشرجات المقطّعة لمغتصبيها والتي امتزجت فيها اللذة بالحقد. كما إنها لا تستطيع أن تنسى هذا الألم الممضّ الذي تبع الإعلان عن قطع لسانها. ولا هذه النعومة المشوبة بأصوات أمواج البحر ورطوبته، ولم يكن بعيداً عنها، ولا ذلك الرذاذ الذي أخذ يتساقط على جسدها العاري تقريباً. ألقوا بها عند مكسر الأمواج تماماً. وحتى عندما استيقظت ليلاً، كانت الآلام التي سبّبها قرارُهم أمضّ وأقوى من الفعل الذي تبعه. تذكر أنهم في البداية قرّروا أن يقطعوا رأسها، وعندما وضعوا سكين الجزار على رقبتها تدخّل أحدهم قائلاً:

ـ لا، هذا جميل جداً عليها. لها جسم رائع، ويجب فقط أن نقطع لها شيئاً يزيد من قيمتها. يجب أن تعيش بصمت. وأن تشعر به. إنها تفتح فمها كثيراً على التلفزيون، ولن تعيش أبداً هذه المتعة. الموت الحقيقي هو أن نحرم أحداً من شيء يجعله شخصية حقيقية.

ـ لا يا سيدي، لا بد أن هناك خطأ. أنا لم أتكلّم على التلفزيون في حياتي. على أية حال أنا أحب الإذاعة. ولم أتكلّم في السياسة قط، حتى إني غير مؤهّلة وغير منتمية سياسياً.

ـ إذن ماذا كنتِ تفعلين، أيتها القحبة القذرة في مثل هذه الساعة في قصر البيه.

ـ كنتُ أجدّده، هذا كل شيء.

ـ يعني؟

- أرمّم ما تخرّب، هذا كل شيء، محاولة إعادة بناء الجدار كما كان سابقاً.

- أنتِ فنّانة إذن؟

- حاشا! أبداً يا سيدي. أنا بنّاءة، أعدّ الطين الذي يُطلب مني. أنا في زاوية، وحيدة. أتلقّى طلب الحرفيين وأحضّر لهم ما يطلبون. وفي نهاية النهار أتناول أغراضي وأنسحب إلى بيت أسرتي.

كانت تراه، مشعراً، ملتهب النظرة وهو يتجشّم عناء التحقّق مما تحمله في حقيبتها. المسطرين والمالج المعدني لمزج العجينة ومتر ومقاييس وزن وطلاءات مسحوقة. لم يقل شيئاً، بل هزّ رأسه علامة الموافقة.

- متزوّجة؟

- متزوّجة وعندي ولدان، محمود ونجيب الله. وزوجي يعمل في المكان نفسه. إنه ينفّذ أيضاً ما يطلب منه الحرفيّون.

هي نفسها لا تعرف لماذا قالت هذا كلّه، ولا من أين أتت بهذه الأسماء. لقد تعلّقت بخيط الحياة الوحيد الذي بقي في حوزتها. كل الأسئلة الكبيرة تزاحمت في رأسها في جزء من الثانية. ما من عنصر تفسير إلا الزواج. لقد أعطت عذريتها للرجل الأول الذي عاشت معه قصة حب كبير بلا حدود وبلا نهاية، ويومَ طلب منها ألا تستفزّ المجتمع بالأشكال العارية في نحتها، تركته لخيالاته، فاختار أن يعرّيها أمام المجتمع كله وأن يصف تفاصيل جسدها وجوعها للجنس. لم ترَه بعد ذلك. وكل من كان لديهم ذرّة من الكرامة حيّوا عملها. ما آلمها لم يكن فقدان حبّها، لأنها نسيته بأسرع مما كانت تظن، بل هذا السؤال الرهيب: كيف لشخص كاذب أن يكون على وئام تام مع احتجاجها من أجل الحقيقة، أي مع ما هو مناقض للكذب؟ كيف استطاع أن يُخفي طبيعته الحقيقية طوال حياة كاملة؟ من الصعب إيجاد جواب، ومن المستحيل إيجاد سبب لهذا كلّه.

- تخوزي بينا!

- أقسم لكَ يا سيد بأني متزوّجة، مع ولدين على مسؤوليتي. ونحن نبذل جهدنا لإطعامهما وجعلهما شخصين يحبّان فعل الخير.

- سوف نتحقّق من هذا، وإذا اكتشفنا يوماً ما أنك تكذبين سوف أغرس هذه السكين في مؤخرتك. أنا لا أطيق أن أعامل كمهبول.

- لا يا سيدي، يمكنك أن تفعل ذلك، ولكن ليس لديّ هاتف في بيتي. أستطيع أن أعطيك رقم هاتف أسرتي.

- لسنا أغبياء إلى هذه الدرجة يا مدام. بل لدينا طرقنا الخاصة. إذا اكتشفتُ أنكِ ما تزالين عذراء فسأقطّعكِ إرباً إرباً.

ثم لم تعد تتذكر أشياء هامة، سوى حشرجات لذة وألم وسكين مشحوذة بشكل سيء تذهب وتعود على لسانها المثبّت بأسنانها خارج فمها الذي أبقاها ثلاثة رجال مغلقاً بكل قواهم.

لو أن لساني ما يزال معي لأسمعتكم ما لا ترغبون سماعه أبداً. ولكن للأسف أنا مضطرّة لتقبّل تفاهاتكم.

كان المتكلّم الثالث هو مدير أثد (عائلة الثوّار الدائمين) أو الزعيم كما يسمّونه في محيطه، اعتذر وهو يقول كلمتين، ونظره ما يزال مثبّتاً على حركات الوكيل.

- تحيا الجزائر! المجد للشهداء الأبرار! أشكركم، وقلبي مليء بالمرارة على هذه الحرب التي تمزّقنا. اعذروني على حزني وعلى صمتي، فقد كان الكولونيل صديقي وأنا حزين لفقده.

سرت همهمات ثم ران صمت مطبق. ولم يعد يُسمع إلا الهمسات الأبدية للأمواج المليئة بالملح وبرائحة الأشنيات.

كان المتدخّل الرابع والأخير في حفل التدشين هذا أحدَ طلابها. لم يقل أية كلمة، بل ضم يديه وأدناهما من قلبه ثم رفعهما إلى الأعلى مضمومتين علامةَ الحب واقتسام السعادة والتعاسة. ثم فتح يديه على شكل صليب ثم قاطعهما وهو يضغط صدره بقوة. رفع يده اليمنى وطوى إصبعيه الأوسطين، علامة السلام عند الصم والبكم. لم تستطع عايشة أن تخفي دموعها، وكتبت على ورقة:

أحبّكم جميعاً، اتركوا المجال للفرح. انسوا همومكم للحظة، فالحياة تستحق أن نعشقها.

وكرّر أصدقاؤها وطلابها الإيماءات نفسها.

بعد كأس الشكر توجّه الجميع نحو التمثال الذي ما زال مغطّى بالقماش الأبيض، والذي لم يكن بعيداً عن كوخ الصيادين القدماء ولا عن المكان الذي دُفن فيه كلب الكولونيل المسكين. على أية حال، كانت عايشة قد صنعت له تابوتاً صغيراً قبل أن تدفنه، دون أن يتنبّه أحدٌ لذلك، ولا أن يعلّق أهميةً على حركةٍ كهذه.

أحاط الجميع الحجر الكبير الذي وضعته الولاية تحت تصرّف الفنّانة لكي ينجز عملها في أفضل الشروط، وألا تشعر بذلك الألم الذي تحمل بداخلها بعد أن قُطع لسانها. كان الحجر مغطّى بغطاء أبيض يخفي وراءه العمل الذي أنجز بصمت وبحميمية وبقلق. وكان الاحتفاظ بالتشويق حتى اللحظة الأخيرة من جوهر عملها.

تركّزت الأنظار كلها على هذه الستائر البيضاء. ومنحت عايشة شرف تدشين التمثال للوالي. مزح قبل أن يلمس القماش الأبيض:

ـ أي شرف أن أعرّي مخلوقاً رائعاً من الحجر ومن الحب!

بدا له أطول بالنسبة إلى حجمه، ولكنه قال لنفسه إن للفن رؤاه ومقاييسه، يستطيع أن يكبّر أو يصغّر كما يحلو له. أزاح الستارة الأولى نحو اليسار وهو ينظر إلى الجمهور نظرة ثقة بالنفس، وهو يلقي كعادته دعابة أضحكت جميع المسؤولين وبعض المدعوين، إلا عايشة التي كانت مسمَّرة بنظرتها الفولاذية.

ـ إن كنتُ قصير القامة، وإذا كان التمثال كبيراً فلا تقلقوا، إنها رغبات الفنانة في تصحيح عيوب أمنا الطبيعة.

لقد كان واثقاً من أن عايشة البكّوشة قرّرت أخيراً أن تكرّمه.

وعندما أزاح الستارة الثانية، نحو اليمين هذه المرة، ظهرت قائمتان مع مخالب مشذّبة جيداً.

قال موجّهاً كلامه للجمهور: أنتم تعلمون أن عايشة لا مثيل لها في الخيال، والآن فهمت. الوالي كسنطور! لهذا السبب بدا لي التمثال أكبر من المقاييس الإنسانية. كان يجب تخيّل ذلك منذ البداية. لقد أثارت يدا عايشة حلم أكثر من شخص. أميرنا عبد القادر، الذي استُبدل حصانه، فقد كان الأول يشبه حماراً، والسنطور يعطي صورة أسطورية لتمثالي الصغير. يا للذكاء!

ولكن منذ اللحظة التي اكتشف فيها المخالب لم يستطع التحكّم بفضوله، رسم نصف دائرة وهو يزيح الستارتين الباقيتين لكي يكشف التمثال كاملاً دفعةً واحدة.

فجأةً انتابته وعكةٌ في معدته جعلته ينحني. وقال:

- اللعنة! ألم يلهمها جميع الناس الذين يحيطون بها ويساعدونها، حتى ذهبت نحو حيوان بري دون أي تعبير إلا العدوانية؟ مع أن كل ما صنعته حتى الآن كان كائنات بشرية، فكيف حدث هذا التغيّر في النظرة وفي التوجّه هذه المرة؟

أربكته الحيرة فاتجه نحو الآخرين لتأمّل التمثال. نظر إليه من جميع الجهات والزوايا تحت نظر عايشة المتنبّه.

لم يرَ الوالي شيئاً إنسانياً في التمثال. كان ينتظر شيئاً آخر أكثر رومانسيةً، لاسيما أن عايشة متعلّقة جداً بالبحر. بعد عملها على بحّارة تيبازا المسنّين، بدا كل شيء يدفع إلى الاعتقاد بتأثّرها بهذه البيئة. إن ما يراه الآن هو شيء آخر مختلف جداً ومخيّب للأمل.

كلب كبير يفتح فمه واسعاً، منحوتٌ من صخرة غرانيت زهرية - بيضاء. أسنانه الصقيلة وأنيابه اللامعة تعطيه هيئة عدوانية جداً. مرتكزاً على قائمتين، والأخريان مفتوحتان، وجسم الكلب مندفع إلى الأمام، نحو فريسة غير محدّدة المعالم، تاركاً خلفه خطاً من ماء موحل، وفي عنقه قلادة من جماجم بشرية صغيرة كانت الفنّانة قد اشترتها من محل للألعاب. وتحت قائمتيه عظام حقيقية لأجنحة

نوارس مفصولة ومحروقة جمعتها عايشة من الأماكن التي كان الكولونيل يحرق فيها النوارس المصطادة. وكانت كلها ملتصقة بمادة بلاستيكية مقاوِمة لها لون الحجر نفسه. وهناك بقايا أجساد بشرية، ما يعطي الانطباع بوجود مستحاثّات: أذرع بلا يدين، وألسنة مقطوعة، وأشكال أعضاء تناسلية أنثوية وذكرية، دون تفاصيل ودون أي صقل.

لم يستطع الوالي أن يكبح أسئلته الطفولية وحيرته:

ـ يا إلهي! كيف فعلت لكي تنحت هذا الكلب الضخم في هذه الصخرة؟ لا بدّ أنها صعدت فوق ظهر هذا الحيوان ساعات وساعات لكي تشكّله وتعطيه هذه الهيئة العدوانية.

ثم عاد إلى رشده قائلاً:

ـ هكذا هو الفنّان. إنه يأتي دائماً من حيث لا نحتسب. والكلب حيوان يجب أن يسترعي اهتمامنا جميعاً. هذا هو الفن.

صفّق الجميع للفنّانة. وزعيم مدرسة الثوّار الدائمين، الذي ترك يديه تصفّقان، كان شارداً تماماً، وبصره ما يزال معلّقاً على حركات الوكيل وسكناته. تظاهر الوالي وميمون لابارلوت بفرحهما بالاكتشاف، لكنهما عانيا في هضم ما يريانه أمامهما، وهما مضطران لتحمّل نظرة وحشية لكلب متوحّش متأهّب لافتراسهما خلال عدة ثوان.

بعسرٍ شديد تمكّن الوالي من إخفاء خيبة أمله وإحباطه من أنياب الكلب الكبيرة ومخالبه التي كانت تمزّق الهواء وكل ما تلمسه.

قال فمه المفتوح:

ـ يا لها من عظمة!

على أن هذا التأثّر لم يمنعهما من الوقوف في طابور لكي يقرؤوا التعليق المكتوب تحت الكلب في مربّع مذهّب:

تمثال كلب الكولونيل المسنّ الذي اغتاله حلم لم يوصله إلى أي شيء

> ها أنتم أيها الأصدقاء، للأسف، لستُ أنا من تبحثون عنه؟ هل تتردّدون، مفاجئين؟
>
> «في كتابات شخص وحيد، نلمح دائماً مثل صدى الصحراء، مثلَ همس الوحدة، ونلمح النظرات الهلِعة التي يلقيها من حوله؛ وفي كلماته الأكثر عنفاً، وحتى في صرخاته، ما نزال نسمع طريقة جديدة وأكثر خطراً في الصمت، وفي إخفاء فكره. ومن عاش عاماً جيداً عاماً سيئاً، وحيداً مع روحه ليلَ نهار، غارقاً في أكثر الشجارات حميميةً وفي أكثر الحوارات سرّيةً، في ثكنته ـ التي قد تكون متاهةً أو منجم ذهب ـ لقد صار هذا الشخص دب الكهوف، بل إن أفكاره اتّخذت في النهاية لون الأصيل ورائحة القبو والعفن.
>
> كبرتُ وحيداً جداً وعالياً جداً.
>
> أنتظر. ماذا أنتظر إذن؟
>
> الغيوم تمرّ على مقربةٍ شديدة مني.
>
> أنتظر أول صاعقة.
>
> FN

ـ *FN... FN... لا، غير ممكن. لكل شيء نهاية يا صاحبي. تفوح رائحة كريهة من هذا! الجبهة الوطنية؟ هل تريد أن تقول أننا فاشيون، نحن أيضاً؟! هذا كثيرٌ حقاً. لن تجري هذه الأمور هكذا. نحن ثوريون نملك تاريخاً مصنوعاً من الانحرافات ومن الدم، ولكننا لم نكن قطّ فاشيين، ولم نكفلهم قطّ. بعض ضبط النفس، اللعنة!*

الحرفان المكتوبان في أسفل التعليق، F.N، أزعجا الوالي ومستشارَيه أيّما إزعاج. تخيّل معهما كل الإمكانيات الممكنة ولكنّها أدّت جميعاً إلى ما رسموه في رؤوسهم منذ النظرة الأولى. حتى إنه

أراد أن يسأل عايشة عن دلالة هذين الحرفين لكنه خجل، فهو مرشّح لشغل منصب وزير الثقافة. ولكنه قرّر بينه وبين نفسه، وبالرجوع إلى أقاربه، أن FN لا تعني FLN التي فقدت الـ التحرير. سوف يطلب منها رسمياً عن طريق كتاب بأن تمحو هذين الحرفين FN أو بكتابتهما بشكل صحيح لأن ذلك رمز وطني، وأنه ليس بالإمكان اللعب بذلك كما نريد، ولا أن نفصله عن جوهره العميق.

قال لنفسه:

- هاهي محشورة الآن، مثل منحوتاتها التي ليس فيها ما هو عظيم إلا هذه الضحكة الوحشية وهذه النظرة المعمية. إني أتساءل لماذا يعدّونها فنّانة كبيرة. كومة من الحجارة البشعة بلا إيحاء وبقايا طيور أحرقها الكولونيل المسكين المجنون بالقضايا الخاسرة، حتى قضية الموت. لسان يبقى طويلاً، كما لو أنه نما من جديد كنبتةٍ سيئة. من قطعوه، لم يكونوا مفكّرين حقيقيين، كان الأولى بهم أن يكتموا أنفاسها نهائياً. وبدلاً من أن يذبحوها تركوا لها يدي المصيبة طليقتين. هذه امرأة لا تتكلّم لكنها لا تكفّ عن الإساءة، وإن لم تعد تفعل ذلك فبصمتها.

شعر بمسؤوليته الكاملة. ويجب عليه أن يتصرّف، لاسيما بحضور زعيم عائلة الثوّار الدائمين الذي كان يرسل نظراته نحو كل شيء. وهو لا يترك شيئاً يفرّ منه، ويمكنه أن يؤذيه في منصبه كوالٍ وكوزير محتمل للثقافة. يجب ألا يسكت، لاسيما أن خطأ عايشة مفضوح هذه المرة. والجميع سيوافقون على إبداء ذلك.

عند الخروج لم يستطع أن يكبت ملاحظته في قلبه. أمسك بيد زعيم *عائلة الثوار الدائمين*، كعاشقين مزيَّفَين، يبدو مكرهما من بعيد، وشوشه بضع كلمات في أذنه، في حين أن الزعيم دفعه بلطف لئلا يحجب حركات الوكيل عن نظره.

بدوره التفت الزعيم وقرأ التعليق بصعوبة بالغة فلاحظ الحرفين في النهاية ولم يريحاه كثيراً.

ـ إن عملاً كهذا غير مقبول، وغير مسؤول. يجب وضع النقاط على الحروف. جميلٌ أنكَ نبّهتني إلى ذلك، وهذا ينمّ عن نظرة ناضجة لا تترك شيئاً للمصادفة.

توجّه الاثنان إلى عايشة، مستصغرانها أولاً، ثم مبديان أنهما فكّا رموز الرسالة التي أقحمتها بين الأحرف الأبجدية. الوالي هو أول من بدأ الحديث مُبدياً عدم تسامحه مع المسائل المبدئية:

ـ عايشة، يا ابنتي، لقد تجاوزتِ الحدود المسموح بها. تمثال الكلب معبّر جداً، لاسيما بالنسبة إلى شخص ضعيف جداً مثلك، عاشقة للطبيعة وللحيوانات. لكن توقيع التعليق لم يؤثّر بي، بل إنه لم يعجبني. والحق يقال أنه أحبطني وخيّب أملي. لا يمكن اجتزاء رمز وطني هكذا. بين FN و FLN ثمة فارق كبير، وهو حرف الـ L أي التحرير الذي قفزتِ من فوقه. وهذا ليس عدلاً. يمكن ألا نتّفق مع حزب سياسي، ولاسيما في ديمقراطية كديمقراطيتنا، ولكن هذا عمل قوي جداً. لقد تجاوزتِ حقوقكِ. إنكِ تسيئين لشهدائنا ولثورتنا المجيدة التي منحتكِ هويتك.

وجاء دور مدير *عائلة الثوار الدائمين* لكي يدلو بدلوه في عملية حفظ المبادئ هذه:

ـ اسمعي يا ابنتي، من سيسيء للثورة لم يولد بعد. ما زلتِ شابة، وإذا كنتِ تفكّرين حقّاً بمستقبلك فعليكِ أن تحترمي خصوصيات هذه الأرض. لا يمكن أن تُعرَض أجسادٌ عارية هكذا. إنها حضٌّ على الرذيلة. أما بشأن الحرفين، فالنصيحة الوحيدة التي يمكنني أن أعطيكِ إياها بوصفي أخاكِ الكبير، هي أن تُسقطيهما، بل بالأحرى أن تزيلي التعليق من أساسه، وإلا فستجدين نفسكِ أمام محاكم هذه الدولة، وسأكون أول من سيقاضيكِ بتهمة المساس برمز وطني.

عندما رفع المدير رأسه، لم يكن الوكيل موجوداً، فهدر في مكانه وجنّ جنونه ولم يستطع كبح جماح هياجه فقال:

ـ اللعنة! لقد فرّ من بين أصابعنا. لن يذهب بعيداً.

ثم اختفى مثل الريح مع مرافقه ذي عيني الأوس.

انتفض الوالي قائلاً:

ـ أرأيتِ، يا عايشة؟ لقد أثرتِ غضب المدير. ولقد كان للعبتكِ غير المسؤولة تأثير صاعق على رجل وهب زهرة حياته لهذا البلد، وهو لا يعرف أبناءه دائماً. ما كان للمدير أن يتصرّف هكذا لو لم يُصب في كرامته. إنه يتكلّم عن شيء فرّ من بين أصابعه، ومن الجنون عدم الاعتقاد بأنه يقصد ثورتنا العزيزة المهدّدة من كل جانب، ولكن الأعداء لن يذهبوا بعيداً. إن المرارة هي التي تُقرأ في عينيه وخيبة الأمل من الجيل الجديد الذي يسيء تقدير حركة كهذه، مهما كانت صغيرة.

حاولت عايشة جهدها أن تقول شيئاً، لكن لسانها المقطوع لم يسعفها. أخذت يداها ترتعشان وفقد السيطرة على جسمها:

ـ هممم... همممم... هممممم!

كانت تريد أن تقول كل ما يعتمل في صدرها. وأن النص يعود إلى مجنون كان الكولونيل مجنوناً به، وأن الأحرف الأولى لا تتعلّق بالحزب... وأنه مخطئ تماماً، وأنه مخبول، وأنه سيُقتَل يوماً بحماقاته كمن سبقوه جميعاً. ولكن بدا لها هذا كلّه هراءً ومضيعةً للوقت لأن الاختلاف الثقافي شاسع.

الصمت في حالة كهذه أبلغ من الكلام.

وقبل أن تتركه لخِوائه اكتفت بأن رمقتُه لحظةً بعينيها السوداوين، ثم رفعت يدها اليمنى التي ما تزال ترتعش، كأنها تريد أن تُقسم يميناً. طوت إصبعيها الأوسطين، تاركة الثلاث الباقية كقرون حيوان مفترس. ها هو الوالي يبتسم؟ برقت وجنتاه الورديتان ـ الخنزيريتان فجأةً. إنه يعرف تماماً إشارة السلام هذه

التي تطلقها دائماً لأصدقائها الذين تحبّهم. شعر أنه أكبر من المعتاد.

لم يستطع كبح ردّة فعله:

ـ هذا عادي يا ابنتي، أن يكون الإنسان في هذه السن قريباً من الخطأ. عظيمٌ هو من يسامح، والحاقد صغير. المهم في هذا كلّه أن يعترف الإنسان بخطئه، وبما أني واثق من حسن نواياكِ فأنا أسامح...

و... خلافاً لكل توقّع، حنت إصبعها الوسطى ووجّهتها إلى وجه الوالي، وهي تحرّك شفتيها ولكن دون أن تتمكّن من الكلام.

بل إنه ظنّ أنه سمعها تقول:

ـ *روح تقوّد ما عندي ما ندير بتسامحك* .

ما كان عصيّاً على الهضم هو هذا الإصبع المسدّد إلى وجهه وهو لم يستطع أن يهضمه ولا أن يفهمه. لا شيء في هذه المرأة يُفصح عن لاتسامحها هذا الذي لم يتمكّن من تفسيره.

ـ لا، هذه ليست الخرساء المحبوبة. ولا هي عايشة البكّوشة التي عرفتُها وساعدتُها.

قال لنفسه:

ـ هل من الممكن أن يكون لحركتها معنى في لغة الصم والبكم مختلفة عن لغة السامعين؟

ـ ربما... بالتأكيد.

الجزائر ـ باريس

شتاء 1997

شكر بعد الوفاة

أقدّم شكري لفريدريك نيتشه، صديق المنفى والأخ العدو في الكتابة، على الوثائق التي وضعها بسخاء تحت تصرّفي.

واسيني

الفهرس

صدر للكاتب

* البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل). دمشق ـ الجزائر 1980.
* طوق الياسمين (وقع الأحذية الخشنة). بيروت 1981.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2002).

* ما تبقّى من سيرة لخضر حمروش. دمشق 1982.
* نوار اللوز. بيروت 1983 ـ باريس الترجمة الفرنسية 2001.
* أحلام مريم الوديعة. بيروت 1984.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

* ضمير الغائب. دمشق 1990.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

* الليلة السابعة بعد الألف: رمل الماية. دمشق ـ الجزائر 1993.
* المخطوطة الشرقية. دمشق ـ 2002.
* سيدة المقام. دار الجمل ـ ألمانيا ـ الجزائر 1995.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

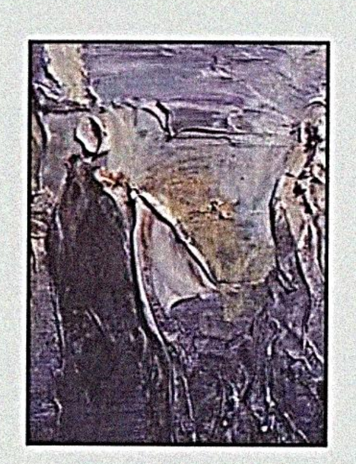
* حارسة الظلال. الطبعة الفرنسية. 1996 ـ الطبعة العربية 1999.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

* ذاكرة الماء. دار الجمل ـ ألمانيا 1997.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

* مرايا الضّرير. باريس الطبعة الفرنسية. 1998.
* شرفات بحر الشمال. دار الآداب. بيروت 2001.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر - Libre Poche 2002).
* مضيق المعطوبين. الطبعة الفرنسية 2005.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر - Libre Poche 2005).
* كتاب الأمير. دار الآداب. بيروت 2005 - باريس الترجمة الفرنسية 2006.
* حارسة الظلال. دار ورد. دمشق 2006.
* طوق الياسمين. دار ورد. دمشق 2006.
* سيدة المقام. دار ورد. دمشق 2006.
* نوار اللوز. دار ورد. دمشق 2007.
* ذاكرة الماء. دار ورد. دمشق 2008.
* أحلام مريم الوديعة. دار ورد. دمشق 2008.
* ضمير الغائب. دار ورد. دمشق 2008.



«في المنطقة المؤمّنة لم يعد لبندقية الكولونيل ماتصطاده، إلا بياض النوارس، البياض المحمّل جداً بالذكريات. إنه يجهد نفسه مع كلبه في رمي هذه الطيور السيئة، ولكن ستكون هناك النورسة الوردية، والمأساة.

في الوقت نفسه وعلى الشاطئ نفسه، المحمي جداً، عايشة الفنانة التي قطع لها القتلة لسانها وجعلوها خرساء، تنحت في الغرانيت العمل الذي سيثير ذهول الناس في الإدارة السياسية، في حين أن الصداقة الحميمة ستسري في لغة الصم والبكم.

تشويق روائي رائع، مرآة شفافة محاطة بالرجاء وبالتشويق الآخر الرهيب واليومي».

مرايا الضرير

واسيني الأعرج. مواليد 1954، بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. ويعتبر أحد أهم الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لاتستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

* في العام 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.

* تحصد في العام 2001 على جائزة الرواية الجزائرية.

* اختير في العام 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث، في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.

* تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية والإسبانية.

علي مولا

